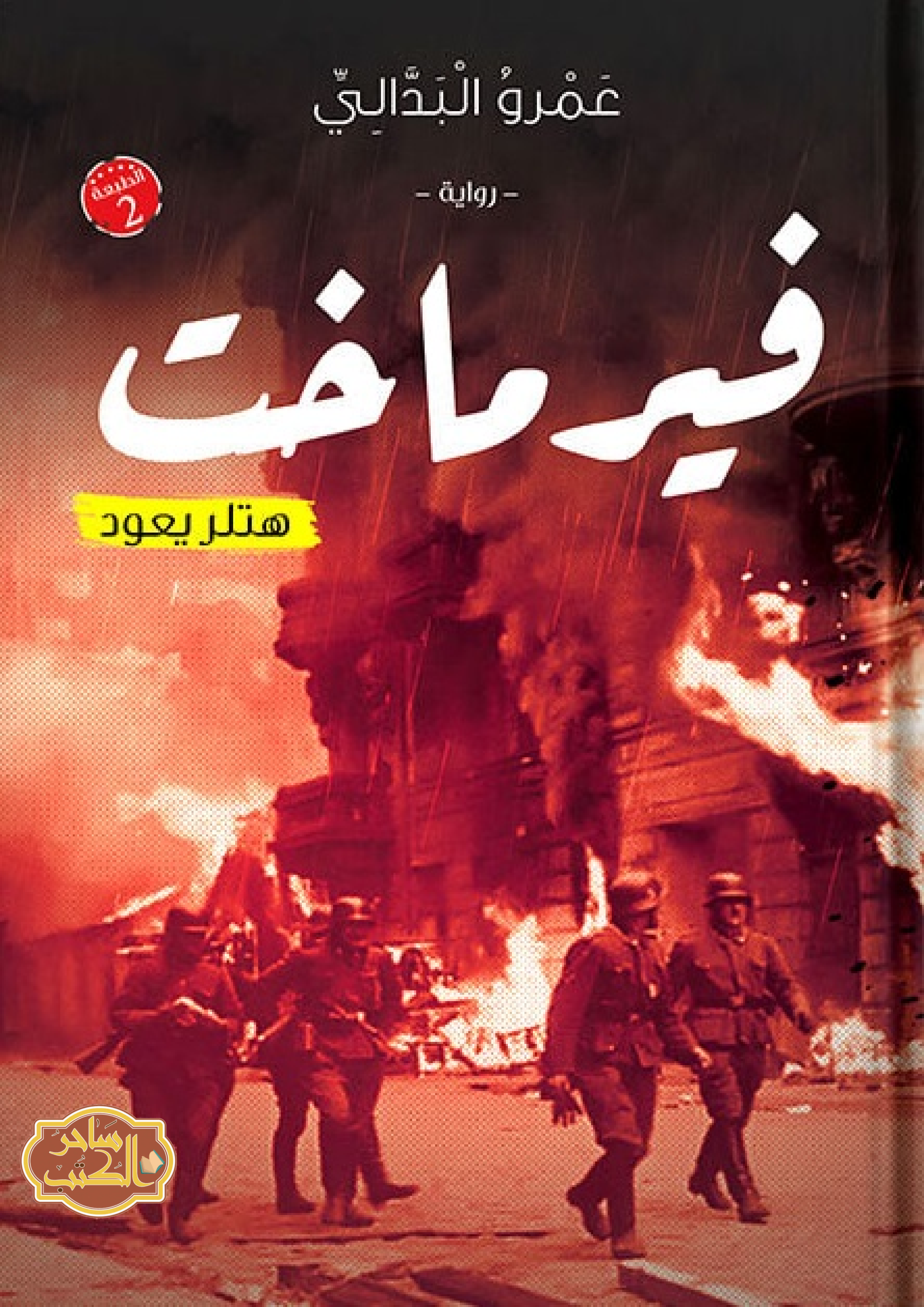

عَمْرُو الْبَدَّالِيّ
الطبعة 2
- رواية -
فيرماخت
هتلر يعود
ساحر الكتب

فيرماخت

هتلر يعود

فيرماخت

هتلر يعود

عمرو البدالي

الجحيم يتَّسعُ للجميع..

مقدمة

(برلين الغربية – العاشر من نيسان ١٩٤٨)

هناك على أنقاض الحرب الفائتة منذ ثلاث سنوات أُعيد إعمار برلين الغربية الواقعة تحت سيطرة البريطانيين كقطعة من كعك مَحشوٍّ بالخراب والدماء الناتجين عن الحرب العالمية الثانية في محاولةٍ لطلائها بإكسير الحياة من جديد.

وشارع "فردريشتراسه" الشاهد على آلاف الجثث التي كانت تنبضُ بالحياة قبل ألمانيا النازية..فقد كان ساحة للموت لمن تبقَّى من الجيش الأَلماني لحظة إعلان الهزيمة.. مُحيت آثار العدوان، وعادت الحياة جزئيًّا كسابق عَهْدِها قبل سنوات الحرب الدامية، على استحياء.. سُكونٌ وأملٌ بما هو قادم تلحظه في وجوه مرتادي هذا الشارع وساكنيه.. فالعائدون للعيش فيه وفي ألمانيا كلها يشكرون الله ليل نهار على كونهم الناجين من مذبحة أدولف هتلر

العالمية.. تلك الحرب التي شنها رجلٌ كاد يُبيد الجنس الآري تمامًا ويمحو أثره.

موسيقى فاجنر المميزة تخرج عالية كالعادة من إحدى الشقق الكائنة على أطراف شارع فردريشتراسيه، المغطاة بشجر كثيف من الخارج، سرعان ما نما مُجدَّدًا بعد إعادة غَرْسِه.

اعتاد الجيران تلك الموسيقى يوميًّا، فساكنو هذه البِناية - وخاصة الدور الأخير منها - يعشقون فاجنر وموسيقاه، ويستمعون إليه كثيرًا في كل الأوقات حتى منتصف الليل، وبعدها يخلدون إلى النوم.

الساعة تقترب من الثانية عشرة منتصف ليل العاشر من نيسان.. هذا ما تُعلنه ساعة الحائط ذات الإطار الفضي المُعلَّقة على يمين صورةٍ عائلية كبيرة تضمُّ سكان هذه الشقة العُلوية.. الجدَّ والجدَّة والزوجين وطفلًا في الثانية من عمره تحمله الأم على ساعدها والابتسامة تعلو وجوههم جميعًا.. ابتسامة هاربة من ألم كاد يقتلهم عن بكرة أبيهم.. عائلة يهودية جديدة أُعيد بناؤها هي الأخرى مع برلين لتتكوَّن من أفراد جُدد.. زوجةٌ هربت من معسكر أوشفيتز القاتل بصحبة أخيها تاركةً وراءها عائلة بأكملها تموت أمام عينيها من دون أن تستطيع حتى البكاء عليهم.. الفرار من الموت كان حتميًّا في هذا الفترة الصَّعبة.. وزوج يهودي نجح في الفرار من ألمانيا قبل تلك الإجراءات الدموية ضد اليهود، وفي أرض محايدة تعارَفَ الاثنان ليُعلن زواجهما المبني على احتياج جارف لكلٍّ منهما للآخر.. زواجٌ بلا حبٍّ واضح.. فقد طُعن قلباهما بذلك الاضطهاد الجارف؛ فلم يعودا يحملان غير الضغينة أو هكذا

بدا لهما في تلك الفترة، ولكنهما جاهدا ذلك الشعور كثيرًا، وحاولا أن يعودا خاليين من الكُره للآخر، ونجحا في ذلك في تلك الليلة التي وطئت أقدامهما أرض برلين من جديد.. فقد أصرَّت الزوجة على العودة مجددًا للمكان نفسه الشاهد على عذابها، وإكمال حياتها فيه.. وانتقلت الأسرة الصغيرة بصحبة والد الزوج ووالدته إلى تلك الشقة في برلين الغربيّة، لتمر أيامهما بسعادة واطمئنان؛ فقد تغيَّر كل شيء بعد رحيل الطاغوت هتلر.. الرجل الذي تمنَّوا قتله آلاف المرات وحَرْق جُثته والتمثيل بها بأيديهم، ولكنه لم يعطهم الفرصة لذلك.

تتردد موسيقى فاجنر بين جدران شقتهم الصغيرة.. أطباق العشاء على طاولة مستطيلة بكراسيها الستة والشموع تتوسطها.. وأرغفة من الخبز الأبيض استعدادًا لتلاوة الكيدوش –القداس الأسبوعي ليلة الجمعة– ولكن، في هذا البيت يتلى الكيدوش كل ليلة تبرُّكًا به، وتقرُّبًا إلى الله.. ففي كل ليلة كان الجد يتوسطهم في خشوع بعد إطفاء الأنوار، ويُلقي تراتيله على قلوبهم الراغبة في النجاة على أضواء الشموع..

– قد دخلتُ جنتي يا أختي العروس، قطفتُ مُرّي مع طيبي، أكلتُ شهدي مع عسلي، شربت خمري مع لبني.. كلوا أيها الأصحاب، اشربوا، واسكروا أيها الأحباء.

وتُرفع كؤوس النبيذ إلى أفواههم، ويبدؤون بعدها العشاء في حميمية، بعد إضاءة المصابيح مجددًا وإطفاء الشموع..

ولكن الليلة تختلف، فوجبة العشاء كما هي.. الشموع مُطفأة، والأنوار لم تجد من يُضيئها.. الموسيقى عالية للغاية.. أنين يصدر بالقرب من طاولة الطعام.. يمتزج بالموسيقى ولا تكاد تسمعه.. الظلام دامس لا ترى شيئًا سوى بعض الضوء المنفلت من شارع فردريشتراسه عبر شباك زجاجي تكسوه الستائر.. ضوء القمر يتسلل عبره بصعوبةٍ من دون جدوى، فلا يقوى على شَقِّ ذلك الظلام المسيطر على تلك الشقة.. صوت الأنين مستمر.. إنه لربة ذلك البيت تتوجَّع:

- آه..آه..

كانت مُقيَّدة على أحد الكراسي الخشبية في منتصف صالة البيت بأسلاك حادة تؤلمها للغاية.. حاولت فكَّها، ولكنها كالسكين لو قاومتها ستقطع جسدها وشرايينها.. سكنتْ بمكانها مدركة خطورة ما تمرُّ به.. لا تتذكر شيئًا سوى غيابها عن الوعي بعد شُرب كأس النبيذ بصحبة عائلتها.. سقطت على الأرض حينها، وسقط الجميع واحدًا تلو الآخر.. العرق يتصبَّب على جبينها، ورأسها يؤلمها، كأن أحدهم كاد يُهشِّم جُمجمتها بمِعوله..

كانت تصرخ عاليًا وما من مجيب:

- ما الذي يحدث؟ من يفعل ذلك؟

إدجار!! هل أنت هنا؟ إدجاااار!

ذهبتْ نداءاتها لطفلها هباءً.. كان دومًا يُجيبها بمجرد سماع صوتها.. لعله يختبئ في مكان ما.. تمنَّت ذلك حقًّا.. دقائق من الصراخ أنهكتْها تمامًا..

أدركت أنه لا فائدة، فصوت الجرامافون يغتال صرخاتها بنجاح.. رائحة شواء تتسرب لأنفها ممتزجة برائحة من الدماء تملأ المكان. إنها تنزف.. بعض الدماء المتجلطة على وجهها.. صمتت لحظات حينما شعرت به.. شخص ما يتنفس بالقرب منها.. تشعر بأنفاسه كأنه يحملق فيها.. سألته بصوت خافت:

- مَنْ أنت؟

لم يأتها أي إجابة.. شعرت بيده تتحسَّس جسدها، تُداعب نهديها، وتنزلق لأسفل.. ثارت حينها كأن عقربًا يلدغها.

- دعني أيها الخنزير.

صوته يهمس في أذنيها بهدوء يُثير الرعب في نفسها، ويرتعش له قلبها:

- لا تنزعجي.. فلن يفوتك طعام الكيدوش.

- مَن أنت بحق الجحيم؟

- ششش.. الجحيم يتسع للجميع.. لا داعي للصراخ.

أنفاسه تحرق وجهها.. تحسَّس بيديه ملامحها.. إنه يقترب لشفتيها.. قاومته.. ولكنه أصرَّ على تقبيلها.. قبلة عنيفة قاسية، كادت أنفاسها تختنق جراء قُبلته.. تركها وهي تبصق ناحيته باكيةً، من دون أن تراه.

- اللعنة! إدجاااااااااااار..أين ذهب الجميع؟

- تبحثين عن طفلك؟ أم عن الجميع؟

- إدجااااااااااااااااااار.

- حسنًا..أنتِ من طلبتِ ذلك.

لحظات من الصمت المطبق.. شعرت به يبتعد عنها.. يقترب من الطاولة ويُشعل إحدى الشموع..

بصعوبةٍ حاولت تمييز وجهه، ولكنه كان مرتديًا قناعًا من الجلد لرجلٍ عجوزٍ تملأ وجهَه التجاعيد. تعالت ضحكاتُه عاليًا:

- أنتِ ساذجة.. تعتقدين أنني هنا بوجهي الحقيقي.

- من أنت؟

- أنتِ فضولية كثيرًا.. يهودية عنيدة. أتعلمين؟ كان يجب إبادتُكم منذ القِدم، مؤكد كانت ستصبح الأرض بلا حروب.

- أيها النَّجِس.. لصٌّ نجس.

- لص؟

تعالت ضحكاته عاليًا مرددًا كلمتها الأخيرة:

- لص!

توقفت ضحكاته فجأة ونظر إليها:

- لو أن لديَّ متَّسعًا من الوقت لكشفتُ لكِ عن وجهي الحقيقي.

ولكن للأسف هذا القناع يستغرق ثلاثين دقيقة لانتزاعه سليمًا.. حتى أتمكَّن من استخدامه مجددًا.. أتعرفين فنَّ التَّنكر؟

- إدجاااااااااااار.

- إدجار سبقك وعائلتك إلى الجحيم.

انتابت المرأة حالة من الهياج العصبي والبكاء الشديد.. تهدَّجت أنفاسها، وكاد قلبها يفرُّ من بين ضلوعها خوفًا وهلعًا.. صرخت عاليًا:

- ادجاااااااااار.

بخطى سريعة قفز ناحيتها وصفعها بقوة:

- اصمتي أيتها العاهرة..

سادت بينهما لحظات من الصمت قَطَعَها متنهدًا عائدًا لهدوئه السابق..

- أعتذرُ منك.. الصوت العالي يوتِّرُني.

ما عدا موسيقى فاجنر..

ترجَّل ناحية الجرامافون ناظرًا للأسطوانة الموسيقية، ثم التفت إليها:

- الأسطوانة على وشك الانتهاء، وستنتهي تلك المعزوفة، هل ترغبين في إعادتها؟ الساعة ستدقُّ الثانية عشرة.. لا بد أن تخلدي إلى النوم يا عزيزتي.

كان يذرع المكان أمامها ذهابًا وإيابًا بهدوء مستفزٍّ.

- رأيت بيانو في مدخل الشقّة.. هل أنتِ مَن تعزفين عليه أم زوجك؟ حسنًا أعرف أنكِ لا تودين الحديث معي؛ ولذلك سأرحل وأتركك، فأنا لا أحبُّ فرض صداقتي على أحد.

كانت تراقبه في صمت.. تمنَّت لو فَكَّ قُيودها لتنقضَّ عليه وتلتهم قلبه بأسنانها.. لم تُدرِك ما يفعله ذلك اللصُّ المجذوب، ولا أين عائلتها. ولكن كل ما كانت تفكر فيه لحظتها هو انتهاء تلك المعزوفة، والصراخ عاليًا لعل العون يأتيها من جيرانها.. اقتربَ منها هامسًا:

- والآن يا صديقتي، سأرحل، ولكنني أريدُك أن تخبري العالم كلَّه عنّي.. ستنتهي المعزوفة خلال دقائق تضمن خروجي من الحي بأكمله، حينها ستتمكنين من الصراخ، وسيأتي مَن يفكُّ قُيودك.. ليلة سعيدة يا عزيزتي.

هَمَّ بالرحيل، ولكنه توقَّف وعاد أدراجه هامسًا لها من جديد:

- نسيت شيئًا مهمًّا.. كنتِ تتساءلين وتنادين عن عائلتك! سأجعلك ترينهم حتى تصرخي صراخًا جيدًا أيتها اليهودية.. صراخًا نابعًا من القلب، أمستعدة؟

دقات قلبها تتعالى رعبًا من ذلك المُخرِّف.. أمسك كرسيها وأداره للخلف بعد إضاءة مصابيح خلفية أنارت أغلب صالة تلك الشقة:

- الآن.. سهرة سعيدة.

يا لهول ما رأت.. اختفى الرجل خارجًا من المنزل بعدما ألقاها بدوامات من الألم البَشِع تعتصرها بقية عمرها.. جحظت عيناها.. كاد عقلها يهذي..

رؤوس زوجها ووالديه مفصولة عن أجسادهم، ومثبتة في الحائط بمسامير غليظة في وسط جبهة كل منهم.. الدماء في كلِّ مكان، وأجسادهم ملقاة على الأرض.. ودماؤهم تقطر من رؤوسهم المنحورة.. وبالقرب من

المدفأة تشتد النيران المستعرة بكثير من الحطب الاستثنائي.. شيء ما مُعلَّق تلتهمه النيران.. كأن أحدهم يقبض على قلبها بقوة عارمة.. دقَّقت النظر.. إنه إدجار طفلها الوحيد وقد تَمَّ شَيُّه بالكامل متفحماً.

- إدجااااااااااااااااااااااار

صرخت بكل قُوَّتها مرات ومرات من دون توقُّف حتى انتهت المعزوفة الموسيقية، وسمعت بأذنيها طرقًا على باب شقتها، وآخر ما لاحظته حينها وسط ذلك الدمار والدماء، جملة كُتبت على الحائط بالدماء، وغابت بعدها عن الوعي تمامًا.. جملة تنسف ثلاث سنوات من الجنة الزائفة، وتعلن بدء الجحيم، ليس لها فقط، بل للعالم أجمع.. جملة من أربع كلمات، من أسوأ ما يكون.

- هتلر عاد.. ليبدأ جحيمكم.



"سوف تُصاب ألمانيا بمحنة شديدة، تعصر شبابها اعتصارًا، فيجب علينا أن نستعد لأكبر موقعة، بل لأكبر مجزرة يشهدها التاريخ، ستكون الحرب القادمة حربًا طاحنة، وستُهدم مدن ألمانية كثيرة، وستختفي من الوجود مبانٍ شاهقة، وسيرحل إلى العالم الآخر أناس كثيرون، ولكننا سننتصر، وستخرج ألمانيا من هذه الحرب وهي خَرِبة، ولكنها في خرابها ستكون أجمل البلاد، وسيدة العالم.

أدولف هتلر

(قبل ذلك بيومين)

(١)

(قرية دير ياسين- فلسطين- الثامن من نيسان ١٩٤٨)

أشرفت الشمس على المغيب في يوم لا مثيل له في حياتي، كأنها تُودِّع كل ما تبقى بداخلي من ضياء وأمان، وتتركني غارقًا في ظلام أعلم أنه لن ينتهي إلا وأنا جثة هامدة مفارقًا تلك الحياة البغيضة.. شيء ما بداخلي يُحتضر.. شعور بالاستسلام يتسرب إلى نفسي محاولًا إقناعها بأنه لا فائدة من الاستمرار.. شيء ما يهمس لقلبي:

- مرحبًا بك في عالم الأموات.

ولكن صوت الوطن الجريح، السجين في صدري، يقاوم مستلًّا سيفًا من وهن.. يحاول أن يخبرني بأنه يحتاج إليَّ، وإلى كل من هم مثلي.. وإن سقطنا في بحور الخضوع والمذلَّة والاستسلام فمن سينقذ ذلك الوطن إذًا؟

أشعرُ وأنا فوق جوادي بأنني تائه في الدروب المؤدية إلى قريتي.. قرية

دير ياسين.. التي أُجبرت على الرحيل منها بعدما أعلنت علانيةً عداوتي للصهاينة.. لم يكن لديَّ خيار آخر.. والدي الحبيب قاسم الزيداني، الرجل الذي طالما تعلَّمت منه الكثير على الرغم من أُمِّيَّته.. المزارع الثوري المناضل.. النضال الحق من أجل كرامة قريته وأهلها.. قد قُتل على مرأى ومسمع من الجميع.. وكان عليّ أن أنتقم له علانيةً..

ذلك المربي العظيم الذي كان يتابعني خطوةً بخطوة، ويُحمِّسني، ويغذي روحي بكلماته.. التي ما زالت تتردد في أذني كوقود للحياة الكريمة.

– أنت محقٌّ يا ياسين. الدفاع عن أرض الوطن ضد المعتدين، جهاد في سبيل الله.. العلم سلاح قوي سيهزم الأعداء عاجلًا أم آجلًا.

كنت طالبًا مجتهدًا على الرغم من قِلة فرص التعليم بفلسطين، فقد كانت حكومة الانتداب البريطاني لا تنفق على التعليم أكثر من ٤٪ من ميزانيتها، وكان هناك أكثر من ٤٠٠ قرية بلا مدارس، ونسبة القبول كانت لا تتعدى ٦٠٪، لقلة الأماكن وصِغر حجمها.. تلقيت المراحل الأولى من تعليمي في مدرسة قالونيا، وبعدها أَصَرَّ والدي على استكمال تعليمي بدار المعلمين، وهي الكلية العربية التي تأسست عام ١٩١٨ في بناية ضخمة بُنيت لها خصَّيصًا في جنوب بيت المقدس، على جبل المكبر بالقرب من دار الحكومة التي فيها مكتب خاص للمندوب السامي البريطاني.. كانت الدراسة داخلية، وعددنا كان قليلًا للغاية، وكانوا يُعِدّونَنا للتدريس في المدارس الابتدائية والسنوات

الأولى للثانوي.

مرات عديدة كنت أراه عن قُرب.. ذلك المندوب السامي اللعين.. تمنيتُ لو أخرجتُ خنجرًا من سُمٍّ وغرزتُه في قلبه صارخًا بملء صوتي:

- ارحلوا عن بلادنا أيها الكلاب.

طوال تلك الفترة كنت مجاهدًا عتيدًا أشارك في المظاهرات والعمليات الجهادية السرية مع القائد عبد القادر الحسيني مَثَلي الأعلى في فلسطين.. بل كنت أحد أهم أعضاء الحركة الجهادية السرية تحت قيادته.. ولم يُكتشف أمري طوال هذه الفترة، ولعل لوالدي ونصائحه الفضل في ذلك.

- عليكم أن تُخفوا نشاطكم الجهادي عن الجميع.. كونوا قنابل موقوتة تنفجر في وجوه أعدائكم في التوقيت المناسب لكم.

وتوافَقت نصائحه مع رغبات القائد عبد القادر الحسيني، وبالفعل كل المنضمين للحركة الجهادية اعتنقوا إخفاء نشاطهم حتى عن أقرب الناس إليهم، وهذا ما أربَكَ البريطانيين والعصابات الصهيونية على حدٍّ سواء.. وعلى الجانب الآخر كان لديَّ رسالة لا بد أن تكتمل، ألا وهي إنشاء أول مدرسة بالجهود الذاتية بقرية دير ياسين.. تبرَّع والدي بقطعة أرض كانت لنا، وجَمَعْنا تبرعات، واستخرجنا لها الأوراق، وأصبحت مدرسة مُعتمَدة أُدرِّس فيها أبناءَ قريتي، وأسقيهم العلم الصحيح.

كانت حكومة الانتداب تصرُّ على تدريس تاريخ مغلوط عن فلسطين..

أتذكَّر حينما كنت في مدرسة قالونيا اعترضَ المدرسون على منهج التاريخ المزيَّف المقتصِر على التاريخ اليهودي للقدس، وأنها كانت عاصمتهم المزيَّنة بالقصور والمَعابد.. ولم يقف الأمر عند ذلك، بل حرقنا تلك الكتب في ساحة المدرسة، وتكرَّر الأمر في مدارس عديدة، اضطرت بعدها حكومة الانتداب إلى تعديل المناهج حينذاك، واعتبرناه انتصارا مؤقتًا طامعين في انتصار بعيد.

شاركت عبد القادر الحسيني في تدريب شباب فلسطين سرًّا لتجهيز الوحدات المسلحة لتقف ضد العصابات الصهيونية، وكنا حريصين كل الحرص على سرية تلك التدريبات حتى لا ترصدها حكومة الانتداب الموالية للصهاينة بكل وضوح.. نفَّذتُ عدة عمليات ناجحة، ولم يُكتشف أمرنا.. إلقاء قنبلة على منزل سكرتير عام حكومة فلسطين، إلقاء غيرها على المندوب السامي البريطاني، اغتيال الميجور سيكرست مدير بوليس القدس ومساعده، مهاجمة القطارات الإنجليزية.. كل تلك العمليات الجهادية نُسبت لعبد القادر الحسيني، وكان رأسه مطلوبًا من حكومة الانتداب، أما نحن رفاقه فلا يعلم عنا أحد شيئًا.. كُنّا نُعوشًا طائرة تقتنص الأعداء في أية لحظة، وذلك ما كان يُوتِّرهم ويربك صفوفهم دائمًا.

ولكنني لم أحافظ على ذلك العهد.. فمنذ أسبوعين لقي والدي حتفه على يد أحد التجار اليهود بعد خلافٍ على سعر المحصول الزراعي.. فكنا نُتاجِر مع اليهود ونحارِبهم في الوقت نفسه.. وللحق لم يكن لدينا أزمة مع اليهود

كونهم أهل كتاب سماوي، ولكن أزمتنا الحقيقية مع الصهاينة الراغبين في الاحتلال، وأن يحلوا محلَّ البريطانيين.. ففلسطين مِلكٌ لأهلها فقط وليس لأحد أن يسيطر على أرضها غيرهم.. هذا حقُّنا.. كنا نُفَرِّق جيدًا بين اليهود والصهاينة، بل إن هناك رجالًا منهم كانوا يعترضون على أفعال العصابات الصهيونية ويساندوننا وجدانيًّا.

جُنَّ جنوني حين أخبرني شيخ القرية منصور الرحيمي بعد عودتي من سفر دام أيامًا بموت والدي مقتولًا على يد التاجر اليهودي "إيزاك" القاطن في مستوطنة قريبة من دير ياسين تُدعى "عين خربة التوت".. لم أدفنه إلا بعد مهاجمة تلك المستوطنة، وذَبْح ذلك التاجر إيزاك وتعليق رقبته على باب بيته، وكتبتُ بجوارها توقيعي: ياسين الزيداني.. عُدتُ ودفنتُ والدي في المساء وأخبرت الجميع بساحة القرية أن قاتل والدي قد ذُبح، وأنني سأتقبَّل العزاء ببيتنا.

وكأنني طعنت صدورهم جميعًا.. رأيتُ الخوف والقلق في عيونهم.. لدرجة أنه لم يعزِّني أحد.. ظلوا واقفين بأماكنهم في ساحة القرية كأن على رؤوسهم الطير.

أصرَّ الشيخ منصور الرحيمي على طردي من القرية أمام الجميع قبل فوات الأوان.. صاح الشيخ في وجهي قاطعًا صمتهم المهين:

- نحن قوم نريد الحياة، وأنت تصرُّ على إشعال النيران في قريتنا.

- لقد قُتل والدي.. قُتل الرجل الذي أراد لكم العلم والحياة.

- وتريدنا أن نُقتل جميعًا بعده.

- أتضعون رؤوسكم في الرّمال؟ أين كرامتكم؟

- لا داعي لهذا الحديث الآن.. شدَّ رحالك من هنا ولا تَعُدْ؛ شرطة الانتداب ستصل بحثًا عنك في أية لحظة، وأهل بيتك كبناتنا سنرعاهن ونقضي طلباتهن.

امتطيت جوادي ورحلت بعيدًا عن تلك القرية الخانع أهلها.. خرجتُ طريدًا منبوذًا مطلوبًا من حكومة الانتداب مع عبد القادر الحسيني.. ياسين قاسم الزيداني أصبح وجبة دسمة يبحثون عنها ليل نهار ليرضوا ساداتهم الصهاينة.

ووصلني أخبار بعدها أن الشرطة هاجمت القرية، وبحثت عني في كل مكان، وأن الشيخ الرحيمي أخبرهم أنني لم أحضر دفن والدي، وسعت حكومة الانتداب لعقد وثيقة هُدنة توقَّع بين رجال القرية واليهود اعترافًا منهم برفضهم لجريمتي اللعينة.. هدنة العار.

لم أكن أنوي العودة إلى هناك مجددًا.. بل كنت أرتِّب نفسي لنقل عائلتي بعيدًا عن تلك القرية بعد هدوء الأحوال وغياب العين المترقِّبة لعودتي بين حين وآخر.. ولكنني مع الوقت هدأت والتمستُ لهم العذر.. هكذا قَدَرُ المجاهدين لو نجحوا في تحرير الناس حُملوا على الأعناق أبطالًا، وإن

فشلوا نَعَتَهم الجميع بالمجاذيب مغامرين بالحياة الآمنة، وشنُّوا عليهم حرب العزلة، وربما النفي.

الناس في قريتنا لا يفهمون تلك النزعة الثورية.. يريدون العيش بسلام وكفى.. حاولتُ كثيرًا بثَّ روح التمرُّد في داخلهم، ولكنهم خائفون..كنت أملًا أن يُغيِّر العلم شبابهم، ولكن لم يمنحني الزمن وقتًا كافيًا لتغييرهم.

وها أنا أعود مُجددًا إلى قريتي رغمًا عني.. لم أجد مكانًا آخر يحتوي أحزاني وآلامي.. وأنا على علم بخطورة ظهوري هناك بهذه السرعة، وبالأخص هذه الليلة.. أعود إلى تلك البيوت الحجرية المطلية بالأبيض، والممرات الضيقة بينها، وساحتها أمام تلك الشجرة العتيقة.. وكما كانت دير ياسين تحوي بين صفحات تاريخها طفولتي وشبابي، فستُكتَب الآن فيها شهادة وفاتي.

تلك الرصاصة العتيدة التي أصابت كتفي، وعَقَدَت تحالفًا قويًّا مع نزيف لا يتوقف.. ابتلَّ جوادي بدمائي وأنا أُجاهد لأصل إلى قريتي حيًّا.. رغبتُ في الموت هناك على فراشي وسط أخواتي الثلاث وزوجتي الحاملة في أحشائها ابني المنتظَر.

اقتربتُ من القرية.. استمعتُ لصوت موسيقى عزف زوجتي.. فهي عازفة ماهرة تُجيد العزف على البيانو.. كنت قد اشتريتُ لها بيانو قديم الطراز، وأحضرته هديةً لها، وكان قوم دير ياسين قد اعتادوا التجمُّع في أول عطلة أسبوعية من كل شهر يتسامرون في ساحة القرية، ويغنون ويرقصون

للتخلص من عناء العمل، والتقارب بين أبناء القرية.. عادة استحدثها والدي الراحل منذ عشر سنوات، وواظبوا على تكرارها.

زوجتي عنود تلك الفتاة الحالمة، الألمانية الأصل، ذات الستة وثلاثين عامًا.. صاحبة العينين السوداوين والجمال الأخاذ.. تلك التي لم تنطق بكلمة واحدة منذ شاهدتُها هنا ملقاة على مدخل قريتنا فاقدة للوعي منذ عام ونصف.. حملتُها لبيتنا، وعالجتُها ووفَّرتُ الرعاية لها..كانت منهكة، منهارة، ممزقة الثياب، كأنها هربت بأعجوبة من بين فكي ضبع صحراوي شرس،.. اكتشفنا حينها أنها خرساء، لا تتكلم..وجدنا في قبضتها ورقة صغيرة، مكتوبًا فيها: عنود إبراهيم ألمانية مسلمة، ويبدو أنها كنت على ديانة أخرى، وأسلمت، هذا ما توقَّعتُه في بداية الأمر..ملامحها تنبئ بذلك.. وحاولنا كثيرًا معرفة قصتها، ولكنها كانت تكتب لنا أنها لا تتذكر شيئًا من ماضيها.

اعترضَ الشيخ منصور الرحيمي على وجودها في بيتنا، ونصح والدي بإبلاغ الشرطة، ولكنني رفضتُ بقوة، وأبلغتُ والدي أن يخبر الشيخ أنني سأتزوجها.. لم يعارضني والدي، بل ربت حينها على كتفي مبتسماً.

- رجل يا ياسين.. يحميك الله يا بني.

لم أفكر لحظة في هذا القرار رغم غرابته.. فقد كنتُ رافضًا للزواج تمامًا؛ لأنني وهبتُ حياتي للنضال والكفاح، وأدركتُ منذ البداية أنني ميت برصاص الأعداء لا محالة، فحرَّمتُ على قلبي الحب والغرام، وأوقفتُ أية

محاولة لبناء بيت تقليدي وعائلة صغيرة، قد تعاني لفراقي يومًا ما، واعتبرتُ زواجي بتلك الألمانية الشريدة جزءًا من مشروع جهادي غرضه الحماية فقط لا غير.

تزوجتُها، ووفَّرت لها كل الأمان والحماية من دون أن أعرف قِصتها.. اعتقدتُ أنها هاربة من جحيم الحرب العالمية الثانية.. الفتاة الرقيقة الهادئة عازفة البيانو ومالكة لموهبة فذَّة بالرسم..كانت تتكلم برسوماتها.. ملأت البيت برسومات عديدة للقرية ورجالها ونسائها.

أحبَّت عنود الجلوس معي كثيرًا في أثناء تلاوتي للقرآن الكريم كأنها ترتوي من عطش دام عقودًا، وأحيانًا كان يغلبها النعاس وهي تستمع لي كطفلة تهوى الحكايات.

تعلَّمت ركوب الخيل، وكثيرًا ما انطلقت بجوادي بين أرجاء القرية فَرِحَةً كملاك طائر.. كنتُ أجلبُ لها المجلات والجرائد البريطانية، وكانت ترسم منها كثيرًا من الصور.. أتذكَّر تلك اللوحة التي برعت فيها نقلًا عن مجلة إنجليزية لمسجد ألماني بُنِيَ من الخشب، على أطراف برلين، وتهدَّم بفعل الزمن في قرية ألمانية.. رَسَمَتْهُ ببراعةٍ مُنقطعة النظير، وكتبتْ على اللوحة جملة: "الأمان مجرد هراء".

تعجبتُ كثيرًا من تلك الجملة.. كانت تكتب تعليقاتها على لوحاتها ورسوماتها بجوار تاريخ إنهائها لها، ولكن هذا التعليق أثار فضولي.

"الأمان مجرد هراء- أيلول ١٩٤٣ - عنود إبراهيم" .

سألتُها متعجبًا:

- هل تشعرين بالخوف معي؟ ألم أوفِّر لك الأمان يا عنود؟

سالت دموعها رغمًا عنها، وتركتني وأغلقت باب غرفتها عليها أيامًا.. حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أعرف ما الذي يُخيفها، حتى فهمت أنها تخاف من يوم كيومي هذا.. يومًا تفقد فيه حمايتي.. لقد أحبتني عنود.. كنت أحكي لها عن عملياتي الجهادية ولا أنتظر منها إجابة.. أرى الخوف في عينيها فقط.. تربت على يدي بحنان وتبتسم وحسب.. كانت أحضاني ملاذًا لها.. شيء ما يُخيفها ويتردد بكوابيسها ويجبرها على الفزع بجواري كل ليلة.. حتى في لحظاتنا الحميمية كنت أراها شاردة غائبة الروح.. ومع ذلك كانت تبذل قصارى جهدها لرعايتي.. ذات مرة كتبت لي رسالة وضعتْها بجوار طعامي مع وردة صغيرة حمراء اللون:

- أنت بطل حقيقي، وأنا أخاف على الأبطال من الموت. لا تتركني أرجوك.. لن أقوى على العيش بعدك.

بحثتُ عنها في أرجاء البيت حينها ولم أجدها.. كانت هناك عند ساحة القرية جالسة تحت تلك الشجرة العتيقة شاردة تفكر.. السكون كان أنيسًا موحشًا لها، والدموع تتساقط من عينيها دون توقف.. احتضنتها بحنان منقطع النظير.. قبَّلت وجنتها ومسحت دموعها براحتي يدي مبتسمًا لها:

- لا تخافي يا عنود.. لن أتركك ما حييت.

أشارت حينها ناحية قلبها.. كانت تريد أن تخبرني أنها تعشقني، وارتمت في حضنٍ يشوبه الكثير من الفتور العاطفي.

لم أستطع حبها رغم محاولاتي لذلك، ويبدو أنها كانت تشعر بذلك، ولكنني مع ذلك احترمت حبَّها لي، وكنت زوجًا صالحًا حتى أعلمتني أختي نادية بالبشرى..

- عنود تحمل لك طفلًا في شهره الثالث.

وكأن طوفانًا عارمًا اجتاح مشاعري المتضاربة.. اشتياق وخوف، عشق وكره، فرح وحزن، كل شيء وعكسه في اللحظة نفسها.. مخلوق جديد سيعلق برقبتي، جزء من قلبي سيغدو أمام عيني.. تخيَّلت ملامحه ولفتاته، اشتقت إلى أحضانه قبل رؤيته، وتلك الكلمة التي ستغيِّر حياتي:

- أحبك أبي.

أصبحت أكثر توترًا وعصبية.. شعوري بالمسؤوليّة تضاعَف، وتمنيتُ لو مُحي الصهاينة والبريطانيون من الوجود لينعم طفلي بحياة هادئة ومستقبل واعد..أقسمتُ على الجهاد بكل ما لديَّ من قوة..كم تمنيت أن تتطهر فلسطين من الأنجاس قبل مولده!

وزادت نظرتي المتعصبة ضد أهل قريتي الراغبين في السلام فحسب.. غضب مكبوت يتنامى في داخلي كل يوم من أهالي القرية الخاضعين بدون

أدنى محاولة للمقاومة المشروعة.. وعنود تُهوِّن عليَّ بكل الطرق كأنها تفهمني بدون شكوى.. تحتضني وحسب.. كانت مرآتي التي أرى بعينيها اضطراب أوشك على الانفجار في داخلي.. وموسيقاها تلك التي كانت تُغيِّر ألحانها تبعًا لحالتي النفسيّة.. غضب، ترقُّب، كُره، حُب، سكون، حزن، وغيرُها كثيرٌ.. كأنها تثبت لي أنها وموسيقاها تقرآن ما بداخلي بنجاح.

كنت منهمكًا بتغيير أهالي القرية بكل الطرق الممكنة.. بالعلم، سرد روايات الأبطال المجاهدين، قصص السلف الفلسطيني ودفاعهم عن الوطن، وبأبيات من الشعر برعت في تأليفها وإلقائها على مسامعهم في حفل السمر الشهري.. وكانوا أحيانًا يغنونها كالأناشيد دون أن تنفذ في قلوبهم.. أو كانوا يمنعون أنفسهم من التأثر بها.. أتذكر المرة الأخيرة التي وقفتُ فيها في وسط تلك الساحة في آخر تجمع لهم، وزوجتي "عنود" تعزف على البيانو الخاص بها بإيقاع مناسب لكلماتي:

- وحيد..وحيد في داري باحثًا..

عن الأحباب بين جدراني خائفًا..

لهثت على وطن يغتاله..

فحيح الأفاعي وسمَّهُم..

يسري رويدًا رويدًا في عروقنا..

ونحن نتابع العيش وقلوبُنا

تصرُخ طالبةً النجدة كأنّما

صُمت آذاننا، ونفوسنا

تأبى الحياة بكرامة

يسرقها الأعداء عيانًا بعلمنا

ونحن والصمت أشقاء، وخضوعنا

سيقضي على ما تبقى... سيقضي على ما تبقى

وحيد.. وحيد في داري باحثًا..

عن الأحباب في داري خائفًا.

أكثر ما آلمني في تلك الليلة رفض شباب القرية الانضمامَ إلى الجهاد السري المسلح.. سألتهم سؤالًا مباشرًا:

- لو أُتيحت لك الفرصة للجهاد لتحرير فلسطين فماذا أنت فاعل؟

إجابة واحدة بصيغ مختلفة.. إن تلك الأمور خاصة بالجيوش، وليس لمواطنين عُزل يد فيها..كنت أعلم طبيعتهم جيدًا.. يحبون السلام وحسب.. على الرغم أن كل بيت منهم لديه سلاح ناري أو بندقية يخبئها بمعرفته تحسبًا لأي خطر مُحتمل.. وقليل من الذخيرة.. لكن تلك الأسلحة كادت تصرخ من ندرة استعمالها.. هوَّن والدي من غضبي تلك المرة مبتسمًا:

- لا تحزن يا ولدي.. فهم أهل قريتك مهما يحدث، ولا تعتب عليهم طبيعتهم.. واحمد الله أن هناك، بين أبناء هذا الوطن، من يناضلون مثلك.. كُتب عليك الجهاد لتحميهم.

- وإن مت وإخواني المجاهدون يا أبتِ، فمن يحمي ذلك الوطن؟

- سيولد غيركم.. سيأتي من يرث ثورتكم ودفاعكم..لا تقلق.

كانت زوجتي تمارس عزفها كالمعتاد.. والتفَّت حولها أخواتي الثلاثة.. فادية الأخت الصغرى ذات السبع سنوات، ونادية الأخت الوسيطى ذات العشرين عامًا، وغادة الأخت الكبرى الموشكة على وضع مولودها بين يوم وآخر.. حرص الثلاثة على حضور حفل السمر الشهري، وإحياء سُنَّة والدي وسُنتي بالرغم من الحزن المطل من وجوههنَّ، وذلك اللحن الحزين الذي تعزفه عنود.

تركتُ جوادي عند مدخل القرية، وترجَّلت ناحية أهاليها.. كانت وجوههم صامته حزينة.. اخترقت صفوفهم وهم ينظرون إليَّ متعجبين.. وكأنهم يلومونني على عودتي إلى القرية مجددًا ولكن مظهري وملابسي الملطخة بالدماء منعتهم من النطق مرة أخرى بطردي.. كنت أترنَّح في طريقي ناحية عنود وأخواتي..لم تقوَ قدماي على السير أكثر من ذلك.. وقفت بعدما شاهدنني مواجهًا لهنَّ، ولمحت الشيخ منصور الرحيمي متّجهًا نحوي، وهو ينظر إليّ بوجهه الجامد:

- ياسين!!

لفظت جملةً واحدة، وبعدها غبت عن الوعي وسقطتُ على الأرض متأثرًا بجراحي..

- لقد مات عبد القادر الحسيني.

صرخت أخواتي، وهرولن ناحيتي هنّ وزوجتي.

- ياسيييييين.

ربما كانت النهاية، أسرع مما توقعت، هنا في دير ياسين.

(٢)

مستشفى والتر للطب النفسي - برلين الغربية

الثامن من نيسان

دقَّت الساعة التاسعة مساءً في تلك الساعة العتيقة المُعلَّقة على حائط استقبال ذلك المستشفى الصامد منذ عهد هتلر وحروبه. قد يكون هذا المكان هو الوحيد الذي لم يتعرض للتدمير الكامل في أثناء قصف الجيش الأحمر لبرلين، ثمّة تهدُّم بسيط في الجانب الغربي للبناية، وقد أُعيد ترميمُه من جديد، فأصبحَ أفضل مما كان عليه.

جلست الطبيبة النفسية "ساندرا هون" في مكتبها تستمع لموسيقى هادئة كلاسيكية وهي تتناول فنجانًا استثنائيًا من القهوة المسائية، مُنتظرة قدومه في أية لحظة، فقد تأخَّر كثيرًا، ولولا وعدها له لعادت إلى أسرتها الصغيرة بدون تردُّد لتتناول معهم طعام العشاء كالمعتاد.

ارتشفت من قهوتها، وأخذت تتصفح ذلك الملف الورقي أمامها المكتوب عليه "نيكول غيرد"، مريضة وسواس قهري.. جالت بعينيها مرات ومرات في أوراقه التي أعدتها مؤخرًا تعليقًا نهائيًّا على حالتها، شاردة، حتى قطع شرودها من تنتظره..أخوها الصِّحافيّ الشاب "بيتر هون".

- هل تأخَّرت؟

- كثيرًا.. أنت تعلم أنهم لا يتناولون عشاءهم إلا بوجودي.

- عذرًا.. أنجزت بعض العمل في الجريدة قبل مجيئي.

- حسنًا، هيا بنا، فلننتهِ من هذه المقابلة إذًا.

اصطحبته خارج مكتبها.. كانت ساندرا طبيبة يهودية ماهرة، عاشت بألمانيا منذ صِغرها وتعلَّقت بشوارعها وميادينها وحدائقها حتى الحرب العالمية الثانية.. وفقدت كل أسرتها في معسكرات الموت الخاصة بهتلر، وكانت على وشك أن تلقى المصير نفسه، لولا أحد رجال الأعمال اليهود أصحاب النفوذ الذي استطاع تهريبها وأخيها من تلك المعسكرات بالرشوة مع مجموعة من الشباب المختارين معهما إلى خارج ألمانيا، ولكنها أصرَّت على العودة إلى برلين بعد انتحار أدولف هتلر، وتزوجت بـ"إدوارد هير" بعدما تعرَّفت إليه في غربتها واشترطت العودة إلى ألمانيا لإتمام الزواج، ووافقها إدوارد على ذلك.

لم تنسَ ساندرا تلك الليلة التي وطئت فيها قدماها أرض برلين من جديد بعد عذاب دام سنوات.. رأت الموت بعينيها مئات المرات في تلك المعسكرات الدامية المغتالة للإنسانية.. كأنها ولدت حينذاك.. ومن رحم الألم تولد الحياة من جديد.

تسلَّمت ساندرا عملها طبيبةً في ذلك المستشفى بتوصية من رجل الأعمال اليهودي نفسه المساعد لها ولأخيها على الهرب سابقًا، وتسلَّم بيتر عمله صحافيًّا، كأن اليهود يعودون إلى مكانهم الطبيعي الذي حاول هتلر سلبه منهم عنوة، ودبّت جذورهم سريعًا في كلّ مكان.. عاد اليهود إلى ألمانيا كما كانوا، مسيطرين على مقاليد الأمور، في عالم يعمُّه السلام والهدوء والمساواة بين المواطنين.

نُقل حفل زواجها على التلفاز الألماني كونها واحدة من اليهود العائدين لأرض الوطن بعد الدمار، وكانت تلك فكرة أخيها بيتر، وأثنى عليها رئيس تحرير الجريدة، وسرعان ما انتقلت وحدة التلفاز الألماني لحفل الزفاف المرتقب.. عبَّرَت ساندرا عن فرحتها العارمة بكلمة ألقتها في بداية عُرسها.

- مات أبي وجدي هنا على الأرض نفسها، ماتت أمي معهما، وفررتُ وأخي كالجرذان الملعونة الهاربة من حريق شبَّ في ألمانيا كلها، واليوم.. عُدنا، وعادت ألمانيا، ومَن فَعَلَ بنا ذلكٍ قتلَ نفسه بالسُّم والرصاص، وأحرقوه كالجرذان.

صفق لها كل المدعوين والدموع تملأ أعينهم جميعًا..تحمَّلوا ما لا يتحمله بشر..إن من القسوة المتناهية سرقة حق الغير في الحياة لمجرد رغبتك المريضة في ذلك..أن تُخضع غيرك لرغباتك المجنونة معتقدًا أنك إله تحيي هذا وتُميت هذا لهو قمة الطغيان.. ومصير الطاغوت اللعنة حيًّا وميتًا.. هللت حينها وهللوا وراءها:

- فلتحيَ ألمانيا مع اليهود.

- فلتحيَ ألمانيا مع اليهود.

عاشت بعدها ساندرا في صراع نفسي بين الكُره والحقد المالئين قلبها تجاه غير اليهود وطبيعتها القديمة كونها فتاة حالمة طيبة تداوي المرضى، وتقسم على بذل كل المحاولات لشفائهم.. ومع الوقت انتصرت الطِّيبة في داخلها، وهُزم الغِل، ومرَّت أيامها بسعادة مع زوجها ووالديه.. الذين تمكّنوا من الهرب من قبضة هتلر قبيل الإجراءات الدامية ضد اليهود، وزائر جديد أضاء حياتها..ابنها الحبيب إدجار.. ذلك الملاك الذي تعلَّقت به كثيرًا، وكان له دور عظيم في سعادتها بتلك الحياة الجديدة.

إدجار الطفل الذي لا ينام إلا في أحضان ساندرا والدته، وهي تقصُّ عليه إحدى حكاياتها.. من أدركت معه معنى الحبّ.

- أحبك يا أمي.

ما أروع تلك الكلمات من كائن صغير كإدجار! أصبح تأشيرة مرورها لحياة مستقرة سعيدة، حتى علاقتها التقليدية بزوجها إدوارد بدأت تتخذ شكلًا آخر، فهو السبب الرئيسيّ في وجود مفتاح سعادتها إدجار.

كان الأمان الكامل بالنسبة لها النظر في عينيه البريئتين، الشرود بملامحه وابتساماته.. إدجار هو المعنى الحرفي للحياة بعيني ساندرا هون.

ترجَّلت ساندرا بصحبة بيتر في أروقة المستشفى حتى وصلا إلى غرفة المقابلة المُنتظرة.. غرفة نيكول غيرد..السيدة البالغ عمرها أربعين عامًا.. إنها المقابلة الثانية في أقل من شهرين..كانت المرة الأولى التي يُجري فيها تحقيقًا صحفيًّا عن آثار هتلر بغير اليهود. وسجل بيتر حوارًا صحفيًّا ممتازًا مع نيكول، السيدة المسيحية الألمانية الثرية التي انتهى بها الأمر، بسبب هتلر وحروبه في غرفةٍ بمستشفى والتر للطب النفسي، مريضة بالوسواس القهري وأمراض أخرى، ما زالت قيد الملاحظة والاستنتاج.. كان حوارًا متفردًا ذاع صيت بيتر بسببه، ونال مكافأة استثنائية..واليوم يعود من جديد بطلب خاص من نيكول غيرد.. تزعم أن هناك سبقًا صحفيًّا لا مثيل له، سيفوز به بيتر هذه الليلة.

فتحا الباب ودخلا..موسيقى عالية تنبعث من جرامافون قديم في غرفة نيكول.. تمتزج بصوت الأمطار خارج شِباكها كأن السماء تبكي لحالها.. لم تلحظ نيكول وجودهما.. كانت ترقص بردائها الأبيض الفضفاض، وتلتفُّ في الهواء بشرود وحزن واضحين في عينيها الممتلئتين بالدموع.. تعزف بجسدها

على أوتار العذاب..عانت نيكول مرض الوسواس القهري بعد انتهاء الحرب مباشرة، وتعتقد دومًا أنها مُعرَّضة للقتل، وأحيانًا تلجأ للانتحار فرارًا من ذلك، ولكن حالتها تحسَّنت مع الوقت وأصبحت أكثر هدوءًا.

نادتها ساندرا بابتسامة خفيفة على وجهها:

- نيكول.. سيدة نيكول!

توقَّفت حينها عن الرقص ناظرة لهما بتوجُّس.

اقتربت منها ساندرا:

- لقد حضر بيتر حسب الموعد المحدد.

حدّقت نيكول بنظرها ناحيته واقتربت منه بحذر:

- أين بطاقة الهوية الخاصة بك؟

تعجب بيتر، ولكن ساندرا أشارت إليه أن يُخرِج بطاقة هويته لها..قرأتها نيكول وابتسمت له:

- أنت مرة ثانية؟

- هل نسيتِ لقاءنا السابق؟

- أنا لا أنسى شيئًا، ولكنني أتيقَّن من مهنتك.

- صِحافيّ يا سيدة نيكول.. أخبرُتك ذلك في لقائنا الأول.

- نعم.. الصِّحافِيّ بيتر هون الأخ الوحيد للطبيبة ساندرا هون.

- وبعد؟

- فلتجلسا.

جلست مواجهة لهما كأنها سيدة أعمال من الطراز الرفيع..سألت ساندرا:

- هل لي بفنجانٍ من القهوة أيتها الطبيبة الحسناء؟

- أنتِ تعلمين أن القهوة ممنوعة مساءً هنا.

- أليس هناك أية استثناءات؟

- كلا.

- حسنًا.. سأشعل سيجارة.. ليس هناك ما يمنع.. أليس كذلك؟

وأخرجت سيجارتها، وبدأت تنفث دخانَها بهدوء مصطنع.. صوت الأمطار يغتال هدوءها..حاولت نيكول إخفاء توترها بدون جدوى.. فساقاها المهتزتان ورعشات يديها الخفيفة تفضحها.

هدّأَ بيتر من روعها.

- أنا هنا من أجلك.. لا داعي للتوتر والرهبة.

- الأمر في غاية الخطورة.

- نحن بجوارك دائمًا.

قالتها ساندرا بابتسامة وحنان.

- أنتِ لا تعرفين شيئًا.

- لقد حقَّقت لك طلبك يا نيكول. عشرة أيام وأنتِ تلحين علينا لمقابلة الصِّحافيّ مرة أخرى لإخباره بسبق صحفي غير مسبوق. وعلى الرغم من رفض إدارة المستشفى لطلبك مرارًا وتكرارًا لرفضك الإفصاح عن سبب ذلك الطلب، فقد حققته لك على مسؤوليّتي الخاصة.. وها هو الصحفي بيتر هون أمامك.. فلتبدئي إذًا بما تريدين البوح به.

نهضت نيكول من مقعدها، اتّجهت نحو شبّاك غرفتها تنفث سيجارتها ناظرة للأفق بشرود حادٍّ..لحظات من الصمت قطعتها ملتفتة لبيتر:

- هل لي أن أثق بك؟

- جرِّبي.

- أريدُك أن تنشر في الجريدة كل كلمة نتفق هنا على نشرها لا أكثر ولا أقل.

- إن كان الأمر يستحق ذلك.

- وعد؟

- نعم.. وعد.

تحرَّكت نيكول أمامهما بتوتر واضح، ثم اتَّجهت مرتعشة اليدين نحو خزانتها الصغيرة، وأخرجت مجموعة من الأوراق الملفوفة والمغلقة بشريط حريري وناولتها لبيتر:

- هذه الأوراق تصبح ملكًا لك إذا فارقتُ الحياة.

- ماذا؟

- عن أي شيءٍ تتحدثين يا نيكول؟

- عن موتي.

- ألن تكُفِّي عن تلك الوساوس؟ اعتقدتُ أنني نجحت في علاجك في الفترة الأخيرة.

- لم يفهمني أحد طوال السنوات التي قضيتها هنا، والنتيجة ستكون موتي.

- عذرًا يا سيدتي.. ولكن أين السبق الصحفي في ذلك؟

قالها بيتر متعجبًا.

- سأخبركما الآن.

- حسنًا.. نسمعك جيدًا.

- اسمي نيكول غيرد، سيدة مسيحية أرملة رجل الأعمال ريتشارد سام.. ماتت عائلتي وزوجي بالقصف الأخير لبرلين في أثناء السقوط في نهاية الحرب الماضية.. ونجوت بمفردي لأعاني الوحدة والعذاب هنا في هذه الغرفة البغيضة.

أشعلت سيجارة أخرى وصمتت قليلًا وامتلأت عيناها بالدموع:

- كنت زوجة خائنة.. زوجي كان يكبرني بعشرين عامًا، وكنت أعاني العقم، فقبلت بالزواج منه، بعد وفاة ابنه الوحيد بمرض خطير.. لم أعرف معه الحب يومًا.. كان شهوانيًّا قذرًا.. كل ما كان يشغل باله جسدي فقط.. أما قلبي فليذهب إلى الجحيم.. تعذبت كثيرًا معه حتى قابلت شخصًا كنت أعتقد أن يسوع قد أرسله لي ليدعوني لدين العشق الذي كفرتُ به بذلك الزواج اللعين.. تقابلنا سرًّا مرات ومرات.. كان حضنه ملاذًا، وشفتاه خمرًا أغيب في سكرتهما عن عذَاب لا ينتهي.

- ولماذا لم تنفصلي عن زوجك وتتزوجي به؟

قالتها ساندرا مقاطعة إياها.. فسالت الدموع من عينيها:

- لأنه رفض ذلك.. كان يختفي لشهور ويعود فجأة، لم أكن على علم بمكانه ولا بطريقة للوصول إليه.. شخص غامض تحوم حوله شبهات عديدة.. لا أعرف اسمه حتى هذه اللحظة.. تعرَّفت إليه في حفل أرستقراطي جمع رجال الأعمال وعائلاتهم، ولكنه كان بمفرده طوال هذا الحفل، ولم

تسقط عيناه عني طوال الوقت ليلتها، شيء ما جذبني نحوه دون أدنى مقاومة.. وتباعدت لقاءاتنا..كنت أنتظرها كهاربةٍ من الجحيم تقضي بعض اللحظات في الجنّة قبل إلقائها في السعير من جديد.. وفي ليلة التقينا بعد غياب.. هاتفني وأخبرني أنه بانتظاري في مكان جديد.. لم نتقابل مرتين في المكان نفسه.. غموض عجيب.. في هذه المرة اعترف لي بأنه يهودي الديانة.. صُدمت كثيرًا من ذلك، ولكنني تعجبت: كيف له أن يأمن على نفسه هنا وفي ألمانيا في ظل هذه الظروف التي تغتال من هم على ديانته مهما كان نفوذه كبيرًا؟! قال لي إنه يخاطر بحياته ليراني. غِبتُ في نشوة عارمة في أحضانه تلك الليلة.. كنت أعشق ملامحه.. دفء أنفاسه حين يُقبِّل جسدي..لمساته ولفتاته.. كان معشوقي الوحيد في هذه الدنيا.

– يبدو أننا نضيع الوقت هنا يا عزيزتي.

قالها بيتر مقاطعًا نيكول.. فجففت نيكول دموعها ونظرت إليه بحدة:

– لم تبدأ القصة بعد.

– حسنًا.. أكملي.

– ظل الأمر هكذا.. غياب مريب وظهور مفاجئ. حتى انتهت الحرب.. وأُعلن انتحار أدولف هتلر.. ومات زوجي وعائلتي في آنٍ واحد.. بحثت عنه كثيرًا لأخبره أننا قد تحرَّرنا وأن علاقتنا لا بد أن ترى النور.. ذهبت لكل الأماكن التي تقابلنا فيها، ولكن من دون جدوى.. كل شيء عمَّه الخرابُ والدمار.. دُمرت برلين عن بكرة أبيها.. ولعل بقائي على قيد الحياة كان معجزة كبيرة.

عُدتُ إلى منزلي وجلستُ وسط الحطام.. حتى جاءني اتصال هاتفي من مستشفى ببرلين..

تحطَّم كل شيء إلا صلتي الوحيدة به..خط الهاتف الأرضي.. معجزة أخرى تضاف إلى حياتي.. اتصال يحمل النجاة والموت في آنٍ واحد.. شخص ما يخبرني أن هناك رجلًا مجهول الهوية مصابًا بطعنة، تربطه علاقة ما بي.. وأن عليَّ الذهاب إليهم للتيقُّن من ذلك.. هُرعت لهناك والخوف يملأني من فقدانه.

كان هو مصابًا بطعنة خنجر وبين الحياة والموت غائبًا عن الوعي.. مهما أَقُلْ فلن تسعفني الكلمات على وصف مشاعري حينذاك.. كأن روحي تخرج من جسدي..لم أتألم لموت عائلتي كما تألمتُ لإصابته تلك.. وجدتُه ممددًا على سريره مصابًا بالحمى.. أخبرتني الطبيبة المعالجة له بأنها وجدتْ رقم هاتفي مدوّنًا على ورقة صغيرة كانت في جيبه، فاتّصلت بصاحب الرقم لعلها تجد أيًّا من أهله. فلم يكن معه أية بطاقة للهوية..سألتُها عمَّا حدث..فأخبرتني بأنهم عثروا عليه فاقدًا لوعيه في سيارة يبدو أنه قادها حتّى المستشفى وهو مصاب.. وطمأنتني على حالته بأنها مستقرة إلى حدٍّ ما..بقيت بجواره أيامًا عديدة لا أنام.. كنت خائفة من رحيلة إذا غفلتُ عنه ولو لحظة.. سيطرت الحمى عليه كثيرًا على الرغم من تحسُّن الجُرح الذي أحدثه الخِنجر.. وفي إحدى الليالي اشتدت عليه الحمى، وصار يهذي بكلمات غير مفهومة، حتى قال شيئًا لم أنسه مطلقًا.

- ماذا قال؟

- هتلر ما زال حيًّا.. هتلر لم يمت منتحرًا.

- ماذا؟

نظرا لبعضهما البعض، وسادت حالةٌ من الصمت والصدمة بينهما.. استكملت نيكول حكايتها:

- أعادها مرارًا وتكرارًا.. وفي اليوم التالي بدأ يستعيد وعيه.. تعجَّب حينما رآني بجواره، وأخبرتُه أنهم اتصلوا بي بعدما وجدوا تلك الورقة التي احتفظ بها في جيبه.. لم أسأله عن هلوسات الليلة الماضية.. فرحتُ كثيرًا بتحسُّن حالته، وأخبرته بما حدث لزوجي، وأننا سنتزوج من دون خوف.. ولكنه، في هذه الليلة وفي أثناء وجودي في غرفة المرحاض الخاصة بالغرفة اختفى تاركًا لي ورقة بخط يده: "لم أكن أحبك يومًا.. لا تبحثي عني".

طعنة في قلبي مباغتة.. الرجل الوحيد الذي عشقتُه يعترف لي أنه لا يحبني..ومتى؟ بعد زوال كل العوائق بيننا.. اختفى تمامًا بعدها، ولم أعثر له على أي أثر.. ذاب بين الملايين من البشر من دون حتى أن أعرف اسمه.. حتى المستشفى لم يدوِّن اسمه الحقيقي بالأوراق؛ لأنه ادَّعى فقدان الذاكرة بعد استفاقته.. ساءت حالتي النفسية كثيرًا.. وغِبت في عالم من الهذيان والصمت.. توقفت الدنيا من حولي.. ولعلك يا ساندرا تعرفين جيدًا أنني لم أستجِب لعلاجك إلا منذ ثلاثة أشهر على الأكثر.. أليس كذلك؟

- ولماذا لم تقصي عليّ تلك المأساة خلال جلسات علاجك النفسي؟

- كنت أوثر الصمت.. وماذا يفيد الميت بسرد طريقة مغادرته للحياة؟

- أنتِ لم تموتي بعد.. والحياة ما زالت أمامك، وقد تقابلين شخصًا آخر ينسيك ال....

قاطعتها نيكول بضحكات هستيريّة لم تتوقف إلا بنهوض بيتر من مكانه متذمرًا ليهمَّ بالرحيل:

- أهذا هو السبق الصحفي؟ قصة رومانسية بائسة.. فلتذهبي لعائلتك يا ساندرا لتتناولي العشاء وتخلدي إلى النوم.. وأنتِ يا سيدة نيكول طابت ليلتك.. أحلامًا سعيدة.

استوقفته نيكول بحدة.. كأنها تدافع عن قصتها بأقوى ما جاء فيها:

- هتلر ما زال حيًّا.. أدولف هتلر لم يمت منتحرًا.

- هراء.. هلاوس لمريض بالحمى ليس أكثر.

نهضت نيكول بهدوء وتوجَّهت إلى خزانتها، وأخرجت صورة قديمة صغيرة وناولتها لبيتر.

- انظر إلى هذه الصورة جيدًا.

- من هؤلاء؟

لمحت ساندرا الصورة والتفتت لنيكول.

- إنها صورة لعائلتك.

- هذا ما أخبرتُكم به طوال هذه المدة.. ولكنها ليست الحقيقة.. انظر جيدًا إلى الأشخاص في هذه الصورة.

يظهر فيها رجل أصلع حليق الوجه تمامًا، مرتديًا معطفًا سميكًا، ونظارة مستطيلة الإطار، تتعلّق بكتفه فتاة في الثلاثين من عمرها بفستان مكشوف الصدر والكتف، وفي الجانب الآخر على مسافة منهما يقف رجل أُخفيت ملامح وجهه تحت خطوط متشابكة، أُضيفت بقلم حبر.. أُخذت الصورة في مكتبٍ ما.. كما يبدو واضحًا في خلفيّة الصورة.

ابتسمت لهما نيكول:

– أخبرتك بأن هؤلاء هم زوجي ووالدي وأختي، أليس كذلك؟

– بلى.. وأنّكِ أخفيتِ معالمَ وجه زوجك هكذا؛ لأنك تكرهينه.

– ولم يدقق أحدكما في الصورة من قبل كما فعلوا في ذلك المستشفى الذي وجدتُ فيه عشيقي المجهول.

– ماذا تعنين؟

– هذه الصورة وُجدت بجيب حبيبي مع تلك الورقة المكتوب فيها رقم هاتفي، سلَّمتها لي الطبيبة بعد رحيله الفجائي.. انظرا فيها جيدًا.. هذا الرجل على اليسار المبتسم هو حبيبي المجهول.. مزَّقتُ ملامحه كردٍّ فعلٍ جنوني بعد طعنته الغادرة لقلبي وحبي.. والرجل الأصلع الذي يرتدي المعطَف، ويضع نظّارة مستطيلة.. دقِّقا فيه قليلًا.

– من هو؟

– إنه هتلر.. أدولف هتلر..

برقت أعينهما من هول المفاجأة.. دقَّقا النظر إليه، بينما تستكمل هي حكايتها:

– تخيلا معي لو انتزعنا تلك النظارة، وعاد الشارب القصير أعلى فمه وشعره الناعم المتدلية خصلته على جبينه.. أيها السادة هذا الرجل بالصورة هو أدولف هتلر، وعليه فإنه لم يمت منتحرًا كما أُشيع للعالم أجمع.. وللعلم تلك الفتاة التي معه هي إيفا براون عشيقته التي تزوجها قبل سقوط برلين بأيدي الحلفاء بـ ٤٨ ساعة.. والتي أُشيع أنها انتحرت معه.. أعرفها جيدًا.. هتلر ما زال حيًّا..ولحبيبي المجهول هذا يد في ذلك.

– عذرًا سيدة نيكول، ولكن لي سؤال...

– ما الذي جعلني صامتة طوال هذه المدة عن هذا الاكتشاف؟

– نعم.

– لهول صدمتي برحيله واعترافه لي بعدم حبه. ولكنني الآن مستعدة للمواجهة.

– أتعرفين خطورة إعلانك ذلك الأمر؟

– نعم.. احتمالان لا ثالث لهما.. إما سيقتلونني أو سيعود حبيبي لأحضاني مرة أخرى.

– سيعود إلى الابتزاز يا نيكول.

قالتها ساندرا مشفقة عليها، فبكت نيكول:

- أعشقه وأريده ولو عنوة.

اقترب منها بيتر ونظر في عينيها:

- يؤسفني إبلاغك أنه احتمال واحد فقط.. سيقتلونك لا مفر إذا صحَّ ما تقولين.

- هذا إذا نشرتَ التحقيق الصحفي كما أخبرتُك.

- ماذا تقصدين؟

- يبدو أن التحقيق الصحفي الأول ضاع هباءً، ولم يحرِّك مشاعره تجاهي، إذًا فلنرسل له الجزء الثاني.

- ما هو؟

- نيكول غيرد يأتيها كابوس واحد يتكرر كل ليلة.

- أيُّ كابوس؟

- بأن الزعيم النازي أدولف هتلر يقتلها بخنجر في قلبها.. وتنهض صارخة أن هتلر ما زال حيًّا..هتلر لم يمت منتحرًا.

- وماذا سيفيدك ذلك؟!

- ستكون رسالة له أنني أعرف سِرَّه فإن عاد لي يكفيك حينها التلميح بذلك لتصنع تقريرًا صحفيًّا بموضوعٍ مليء بالإثارة الغموض والتشويق.

- وإن لم يعد؟

- أنشر تلك الصورة بتقرير صحفي جديد دليلًا ماديًّا على صحة قصتي.

- أوافق على ذلك.

- أما إن عاد وقتلني فمعك تلك الأوراق المكتوبة بخطِّ يدي وبإمضائي بكل ما رويتُه لك..انشرها حينها في حلقات مُشوِّقة مع الصورة.

مد بيتر يده ليصافحها بفرحة عارمة بهذا الصيد الصحفي الثمين، بينما تغيَّر وجه ساندرا بعد سماعها احتمالية بقاء هتلر على قيد الحياة.

- سعدت بلقائك سيدة نيكول.

- هل هتلر حقًّا على قيد الحياة؟

قالتها ساندرا بتعجُّب شديد وقلق وخوف ممتزجين.

- هيا بنا يا ساندرا.

- طابت ليلتك أيتها الطبيبة الحسناء.

خرجا من غرفتها..أعادت نيكول الموسيقى على الجرامافون، وبدأت بالرقص مرة أخرى، وأخذت تتمايل بجسدها أكثر فأكثر، وتلتف في الهواء حتى سقطت على الأرض تُغالِبُ دموعها..

سقطت في بحور خطيئتها تُصارِع أمواجها العتيدة لآخر مرة..مُعذبة بين شعورين متناقضين: شعور بالذنب تجاه زوجها الراحل وخيانتها له من أجل لا شيء، وشعور بعشق يغتصب قلبها وحياتها من حبيب خرق سفينتها ولاذ بالفرار ولم يعد هناك مفر.. فإما النجاة أو الغرق.

(٣)

بيت ياسين الزيداني – ٨ نيسان ١٩٤٨

"سَأَحْمِلُ رُوحي على راحَتي وأُلقي بِها في مَهاوي الرَّدى

فـإِمّا حَـيـاةٌ تَسُرُّ الصَّديقَ وإِمّـا ممـاتٌ يُغيـظُ العِـدا

بِقَلبي سَأرمي وُجوهَ العِدا فَقَلبي حَديدٌ وناري لَظى

وَأحمي حِياضي بِحَدِّ الحُسامِ فَيَعلَمُ قَومي بِأَنّي الفتى"

تلك كانت الكلمات الأخيرة على لسان مثلي الأعلى في الجهاد والحياة بعد أبي القائد عبد القادر الحسيني.. أبيات من قصيدة لأخينا الشاعر المجاهد عبد الرحيم محمود..قالها قبل أن يخطو بقدميه نحو عرين الذئاب الأنجاس المحتلين حينئذ لقرية القسطل بعد اشتباك طال، واقتربت ذخيرتنا على النفاد.. لم يكن هناك حلٌّ من وجهة نظره سوى الاختراق المباغت، وتفجير قلب القرية بأحد البيوت المتمركزة فيه عصابات الصهاينة.. كان علينا تحرير القسطل بأي ثمن، فسقوطها يعني بداية لسقوط القدس، والسيطرة على

الطريق المؤدي إليها.. رفضت الجامعة العربية تقديم أية مساعدات لعبد القادر الحسيني ورجاله، وطالبته اللجنة العسكرية المسؤولة عن الأوضاع في فلسطين بعدم افتعال تصرفات فردية تجلب الأزمات للجميع، وحاولت إقناعه بأن قضية فلسطين قد أوكلت إليها بصفتها تابعة لجامعة الدول، وطالبوه بعدم الذهاب إلى القسطل أو الاقتراب منها، ولكنه صرخ في وجوههم غاضبًا:

- إنني ذاهب إلى القسطل وسأقتحمها وسأحتلها ولو أدى ذلك إلى موتي، والله لقد سئمتُ الحياة، وأصبح الموت أحبَّ إليَّ من نفسي من هذه المعاملة التي تعاملنا بها الجامعة، إنني أصبحتُ أتمنى الموت قبل أن أرى اليهود يحتلون فلسطين، إن رجال الجامعة والقيادة يخونون فلسطين.

لم تكن الجامعة تريد أية مواجهة مع بريطانيا، حتى وإن كان ذلك على جثة فلسطين.. قرَّر الحسيني مهاجمة قرية القسطل، وأرسل إلى المجاهدين في جميع الأنحاء، وطوَّقنا القسطل بنجاح، ولكننا فشلنا عدة مرات في اقتحامها.. كنا نحتاج إلى مزيد من الأسلحة والذخيرة.. حاول الحسيني مع اللجنة العسكرية مرة أخرى لمساعدته، ولكنهم أصروا على موقفهم، فثارت ثورته لعلهم يسمعونه:

- نحن أحقُّ بالسلاح المُخزَّن من المزابل.

نجح الحسيني في اقتحام القسطل مع فجر الثامن من نيسان، ولكنهم اكتشفوا أمره، وتمَّت محاصرته في أحد البيوت بقلب القسطل، ودارت بيننا

وبينهم معركة شديدة.. وجاءنا دعمٌ من المجاهدين في جميع أنحاء فلسطين، حتى نجحنا في القضاء على عصابات الصهاينة، وتطهير القسطل منهم.. ولكن بعد فوات الأوان.. فقد مات عبد القادر الحسيني متأثرًا بجراحه.. استشهد البطل المغوار دفاعًا عن فلسطين وأهلها.

لم أشعر بتلك الرصاصة المخترقة كتفي إلا بعد رؤية جثته الطاهرة.. كأن موته كان الضربة القاضية بالنسبة لي.

- أيموت الشريف المجاهد ويعيش الجبناء؟

صرختُ بأعلى صوتي بقلب القسطل:

- مات عبد القادر الحسيني من أجلكم أيها الجبناء.

لم يكن كل أهالي فلسطين يخافون الجهاد، بل كثير منهم يشجعونه ولو بقلوبهم.. ولكننا لسنا بحاجة للقلوب..نحن بحاجة للأفعال..النصر أو الشهادة.. لا احتمال ثالث.. لم يعد هناك مكان للعيش بسلام مزيف.. لو أن لك طفلًا قتلته الذئاب أتعقد معهم عهدًا مزيفًا بالسلام لتحمي باقي أطفالك؟ للذئب طبع لن يتغير، وسيقتل باقي أطفالك من دون أدنى اعتبار للعهود، فلذلك لا خيار سوى الجهاد، لا حل غير القتال.

فتحتُ عيني والألم يشتدُّ، فقد فقدتُ كثيرًا من الدماء في رحلة العودة إلى دير ياسين.. كنت على فراشي في غرفتي ذات الطوب الأحمر مخضبًا إياه بدمائي.. رأيت زوجتي عنود تجلس بجواري، وعيناها ممتلئتان بالدموع، وأخواتي الثلاث واقفات بجوارها مترقبات لحظة خروج روحي، والشيخ

منصور الرحيمي ينظر إليّ والدموع في عينيه لأول مرة.. لم أرَ هذا الرجل منكسرًا طوال حياتي، بل كان مثالًا للقسوة والشدة.. كان أهالي القرية برجالها ونسائها وأطفالها يصطفون خارج البيت.. أراهم من شباك غرفتي.. صامتين، مبهوتين، شاحبي الأوجه، ينتظرون مصيرًا مجهولًا.

همست بصوت خفيض يصارع الموت:

- أما زلت على قيد الحياة؟

- لن تموت يا ياسين..أرجوك.

قالتها أختي الكبرى غادة ذات البطن المنتفخ بمولودها الأول.. التفتُّ إليها مبتسمًا:

- توشكين على وضع طفلك يا حبيبتي.. لو رزقَك اللهُ ولدًا فدوِّنيه بسجلات الحياة باسمي.. ياسين.. لعله ينجح فيما فشلنا فيه.. وأنتِ يا نادية أختنا الصغيرة أمانة برقبتك.. لا تقسي عليها مهما تفعل.. كوني الأخت والأخ والأب والأم لها.. فَقَدَرُنا الفراق.

سالت دموعهم جميعًا.. نظرتُ إلى الشيخ منصور الرحيمي مبتسمًا:

- أتبكي الآن يا شيخ؟ فات الأوان. أوصيك بأن تدفنني بجوار أبي.

تلعثم الشيخ كثيرًا مغالبًا دموعه:

- لن نستطيع ذلك يا ياسين.

برقت عيناي وانتحرت الكلمات على لساني.. نظرت أخواتي إليه بتعجُّب وهو يُبرِّر جُملته:

- أنت مطلوب من حكومة الانتداب، ولو علموا بوجودك هنا حيًّا أو ميتًا، فسينتهكون القرية بكل ما فيها..ليس بعيدًا عنهم أن ينبشوا قبورنا ليستخرجوا جثتك ويُمثِّلوا بها، وقد يعاقبوننا لدفنك هنا..و..

صرختُ فيه بأعلى صوتي غاضبًا:

- ألهذا الحد أنتم خانعون؟ يا للعار!

- يا بُني، سلامة أهلك وأهل قريتك تتعلَّق برحيلك حيًّا أو ميتًا.

نهضت حينها عنود بغضب عارم وعينينِ ممتلئين بالدموع حمراوين، وصفعت الشيخ منصور الرحيمي بقوةً متناهية.. لحظات من الصمت توقَّف فيها الزمن.. لا أحد يصدق ما يدور في هذه الغرفة.. لم يستوعب الشيخ تلك الصفعة حينها..لم يدركها عقله.. ولكنه بعد لحظات رد صفعتها بأخرى، وانقضت أخواتي الثلاث على الشيخ يضربنه، وهو بدوره يشتبك معهنَّ بلا وعي..متقاذفين سيلًا من السّباب..صرختُ في الجميع من دون جدوى:

- فليكفِ ذلك.. كفى.

لم يستجِب لي أحد..تحاملتُ على نفسي، ونهضتُ من سريري بصعوبةٍ، وحاولتُ الفصل بينهم سُدًى، حتى وقعتُ على الأرض من هول الألم والضعف السابق للموت.. هُرعت عنود وأخواتي ليحملنني مرة أخرى إلى

فراشي، بينما وقف الرحيمي يضبط ملابسه متلمسًا خدَّه والشَّرُّ يتطاير من عينيه.. كادت روحي تُفارِق جسدي في هذه اللحظات.. سالت دموعي وأنا أُدرك أن أولئك النسوة المعَلقات برقبتي في خطر شديد.. بصق بكلماته نحونا بكلِ قسوة:

- سترحل أنت وزوجتك وأخواتك أحياء أو حتى جثثًا هامدة.

صوت ما يتسلل إلى أذني.. التفتُّ إلى مصدره.. إنه صديق الطفولة "فطين مسعود".

كان خليلي الوحيد قبل رحيله وعائلته من القرية ليقيم بغزة، ومن وقتها كانت لقاءاتنا تُعد على أصابع اليد الواحدة.. لم أره منذ ستة أشهر تقريبًا حينما شاركنا حفل السمر الشهري بقريتنا، وودَّعتُه ليلتها ليعود إلى غزة.. غِبتُ عن الوعي مرةً أخرى، وربما تكون الأخيرة وأنا أستمع إلى كلماته مطمئنًّا إلى وجوده في هذه اللحظة بالأخص لحماية أخواتي وزوجتي، ربما أرسله الله لهنَّ لأموت غير مرتاب في مصيرهنَّ.

- ما الذي يحدث هنا بحقِّ الجحيم؟



(٤)

برلين الغربية

ما زالت السماء تمطر في هذه الليلة الفارقة.. ليلة اكتشاف حقيقة موت هتلر.. هناك ثلاثة احتمالات تحدثت فيها ساندرا مع أخيها بيتر حول تلك المعلومات الخطيرة.. إما أن تكون هذه الصورة التُقطت لهتلر قبل انتحاره، أو أن هذا الرجل مجرد شبيه لهتلر، فهناك بعض الإشاعات المنتشرة بأن لهتلر تسعة رجال يشبهونه، كان يستخدمهم للتمويه عن أماكن وجوده في أثناء الحرب، أو الاحتمال الأخير القاتل بالنسبة لها.. أن يكون هتلر حقًّا على قيد الحياة، وإن كان كذلك فأين هو طوال الثلاث سنوات الماضية منذ سقوط ألمانيا في قبضة الحلفاء وتقسيمها؟

تناولت ساندرا العشاء مع زوجها إدوارد ووالديه وطفلها الحبيب إدجار على تلك الطاولة المستطيلة تحت أضواء الشموع بعد ترتيلات الكيدوش كالمعتاد كل ليلة.. فقد استحدث زوجها ووالده تلك الطريقة للتقرب إلى

الله والدعاء له كل عشاء..كانت شاردة تمامًا، حتى أنها لم تكمل طعامها.. سألها إدوارد ببعض القلق ناظرًا إلى عينيها الزائغتين:

- ماذا بك اليوم يا حبيبتي؟ تبدين شاردة منذ عودتك.

- لا شيء.. فقط إرهاق العمل.

- لم نعد بحاجة لهذا العمل الآن. يمكنك الاستقالة والاهتمام ببيتك وطفلك يا ساندرا.

- لن أترك عملي يا إدوارد.. كُفَّ عن الحديث في هذا الأمر.

تركت الطاولة ونهضت بعصبية زائدة.. نَهَرَ الجدُّ ولده:

- لا تتعامل معها بتلك القسوة يا إدوارد.. ساندرا تعشق عملها يا بني، وهي ترعى بيتها على أكمل وجه.

تحرَّك إدوارد وراءها مخبطًا على باب غرفتها قبل الدخول.. وجدها تجلس أمام مرآتها تنظر إلى ملامحها بشرود تام والدموع تملأ عينيها.. ربت على كتفيها بحنان:

- آسف.. كل ما أريده راحتك يا حبيبتي.

تساقطت دموعها رغمًا عنها..جثا على ركبتيه، وأدار وجهها ناحيته ناظرًا إلى عينيها.. مَدَّ يده ليمسح تلك الدموع المتساقطة.

- لن أطلبها منكِ ثانية.

فانهمرت ساندرا بالبكاء بحضنه الدافئ.. تعجَّب إدوارد:

- ما الأمر يا ساندرا؟ أهناك شيء آخر يضايقك؟

- كلا.. أنا بخير.

حاولت التماسك.. مسحت دموعها مبتسمة له بضعف، يختلج قلبها.. لا يمكن لعقلها أن يتخيل عودة ذلك النازي المجرم يومًا ما..أتلك الجنة التي استمتعت بالحياة فيها طوال الثلاث سنوات الماضية مجرد وهم؟ أتحين لحظة دخولها لجهنم من جديد؟ وليس هي فقط بل إدجار.. هالَها ذلك التخيل.. أيتعرض إدجار للخطر إن صحَّت عودته؟

نظرت إلى تلك الكتب والجرائد القريبة من فِراشها.. كل أعمال فرانس كافكا، ذلك الكاتب التشيكي اليهودي رائد الكتابة الكابوسية، وأفضل الأدباء الألمان في الرواية والقصة القصيرة..ساندرا عاشقة لأعماله منذ صغرها على الرغم من محاولات هتلر حرقَ أعماله بالكامل، ولكنها أُنقذت من بين مخالبه بأعجوبة.. تذكرت حينها تلك القصة التي كتبها عام ١٩١٢ بعنوان "التحوُّل"، وتلك الكلمات بمقدمتها.

"استيقظ جريجور ذات صباح بعد أحلام مزعجة، فوجد نفسه قد تحوَّل في فِراشه إلى حشرة هائلة الحجم.. تمنَّى جريجور أن يكون كابوسًا، ولكنه كان حقيقة، وأبدى جميع المقربين منه رغبتهم في التخلص منه، فما كان هناك حلٌّ ممكن سوى الانتحار".

الانتحار هو الحل..خاطرة لعينة تسيطر على ذهن ساندرا في تلك اللحظات.. لن تتحمل أبدًا ضياع عائلتها مجددًا.. ولكن ليست هي من تزهق روحها بيديها.. وكيف لحارس الروح أن يقتلها غدرًا؟ ساندرا الطبيبة صاحبة الرسالة الإنسانية التي ساهمت في علاج الكثيرين تنتحر؟! لن تسمح بذلك مهما تكن المصائب.. مهما تكن الضغوط.

فكرة ما تبزغ أمام عقلها في هذه اللحظات.. شيء ما يخبرها بأن اليوم يختلف كثيرًا عن البارحة.. فكل ألمانيا تقع تحت احتلال الحلفاء وسيطرتهم.. تلك القوى العظمى لن تسمح بعودة ذلك النازي أبدًا.. هو مجرد هارب لعين كالجرذان، ولن يقوى أبدًا على الظهور مجددًا خاوي الوفاض من قوته وعتاده.. فقد سقط الفيرماخت يوم انتحار هتلر.. تلك الجيوش العظيمة التي مات معظمها، واستسلم الباقي، وتفكّكت في نهاية الحرب.. لن يعود الفيرماخت، ومن ثم لن يعود أدولف هتلر الذي تعرفه ساندرا.

رقص قلبها حين استقرت تلك الخاطرة في ذهنها.. حقًّا.. لن يعود هتلر كما كان.. فلتُكمل حياتها إذًا باطمئنان تامٍّ..فالميت لن يعود حتى وإن رَغِبَ في ذلك بقوة.

قطع إدوارد شرودها مجددًا:

- ساندرا! ساندرا!

- أتريد أن تستمع لعزفي هذه الليلة؟

- بكل سرور حبيبتي.

- هيا بنا.

أخذت يديه بين راحتي يديها كطفلة تستعدُّ للعبتها المفضلة.. خرجا من الغرفة وتوجَّها ناحية البيانو الخاص بهما.. جلست والسعادة تقفز من عينيها، وبدأت بعزف مقطوعة لفاجنر بعدما أغلق إدوارد موسيقى الجرامافون ليستمعوا لها معلنًا عنها بسعادة أمام والديه وإدجار.

- أيها السادة، نقدِّم لكم العازفة الطبيبة ساندرا هون في أحدث مقطوعاتها.

- فاجنر.

قالتها لتصحح له جملته فأعادها مجددًا ثم صفَّق لها وشارَكه الجميع تصفيقه.

- أحدث مقطوعات فاجنر.

كانت ضحكاتهم تلك تساوي الدنيا.. الحياة بالنسبة لها تلك العائلة التي بصعوبةٍ أقنعت نفسها بإمكانية إحلالهم بقلبها محل عائلتها القديمة.. ونسيان ما حدث لها في الماضي القريب من موت وغدر وحرق على يد الطاغوت هتلر.. أو على الأقل تناسي ذلك لتتمكن من متابعة حياتها..

كانت تنقر بأصابعها على البيانو بسعادة بالغة.. لحنًا على أوتار قلبها الراغب بالمُضي بسلام لا يشوبه شيء.. فقط السلام وسط أحبائها.

مرت الليلة بحضرة جمالها الأخاذ، وإدوارد ينهل من بحور عشقهما حتى مطلع الفجر.. ذاب الاثنان كلٌّ في أحضان الآخر، وتفتّتت الآلام والاضطرابات في لحظات حميمية تتكرر لتبث الطمأنينة في قلبيهما.. لم يخلدا إلى النوم إلا مع أول ضوء للصباح، فاليوم التالي إجازة كليهما الأسبوعية.. كانا قد اتفقا على ذلك ليتمكنا من التنزُّه مع إدجار طوال اليوم في نهاية كل أسبوع..

كان إدوارد رجلًا مهذبًا وقورًا تحلم به الكثيرات، ولكنه غرق بحب ساندرا منذ الوهلة الأولى التي رآها فيها.، وأقنعها بالزواج، ومهَّد لها طريقًا جديدًا لحياةٍ كانت تتوق إليها، ومع ذلك كان قلبها صعب المنال.. شعر كثيرًا بأن ما بينهما مشاعر تقليدية واجبة بين الزوجين، ولكنه بذل كل جهد ممكن ليستميل قلبها الجريح مراعيًا تلك التجربة القاسية التي تعرضت لها في حياتها.. ولم تمانع هي من المحاولة، لعل قلبها يستجيب يومًا ما لعشقه الرابض على أبواب مشاعرها..عَشِقَها فآوته في محراب قلبها، فأضاع عمره ساجدًا مع كل طرفة عين في محرابها المقدس.

سأله والده ذات مرة حين كان يرمقها عن بُعد:

- أتحبها إلى هذا الحد؟

- كلا يا أبي، الأمر أعظم من هذه الكلمة، فأنا أعيش فقط لأراقب ابتسامتها، وأحاول أن أكون سببًا لسعادتها.

احتضنها إدوارد بشدة قبل أن يغلق عينيه ويخلد إلى النوم هامسًا لها بحبٍّ منقطع النظير:

– أشهد بأنك أجمل امرأة رأتها عيناي.. أحبُّك.

وبمنزل صغير بضواحي برلين قضى بيتر هون ليلته يكتب تقريره الصحفي بعد حصوله على موافقة رئيس التحرير لنشره في عدد الغد، وعليه الانتهاء منه قبل خروج الطبعة الأولى فجر ذلك اليوم.. كان شغوفًا بردود أفعال القراء حول هذا السبق الصحفي.. احتفظ بالصورة التي أهدتها له نيكول غيرد لهتلر وإيفا براون زوجته وحبيبها المجهول بدرج مكتبه، وأحكَمَ إغلاقه بمفتاحه واضعًا إياه في جيبه.. وضعها جنبًا إلى جنب مع تلك الأوراق المكتوبة بخطِّها لتكون الخطوة الثانية بعد ذلك التقرير الصحفي إن لم يستجب لها ذلك الحبيب.. كم تمنى بداخله أن يغدر بها معشوقها ولا يعود بل أكثر من ذلك..تمنَّى لو تُقتل نيكول غيرد ليحقق مجدًا صحفيًّا لا يقارن.. سيصبح أكثر الصِّحافيّين شهرةً وأغناهم مالًا إذا حدث ذلك.. وسينتقل حينها إلى أحد الفنادق الراقية ليعيش هناك ويغادر ذلك المنزل الصغير.. تناول قهوته وهو يختار عنوان ذلك التحقيق الصحفي بعد انتهائه منه:

"أدولف هتلر بين أساطير الحياة والموت..هل هتلر على قيد الحياة؟



(٥)

قرية دير ياسين

٩ نيسان ١٩٤٨

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

صوت مقرئ القرية يتسلل رويدًا رويدًا إلى أذنيّ.. كان أعذبنا صوتًا بتلاوة القرآن، وكنا نستعين به في المآتم والأفراح على حد سواء.

كنت ممددًا على فِراشي، والبرد يجتاح جسدي بضراوة.. ضباب كثيف يملأ غرفتي حولي، لم أتمكن من رؤية أي شيء فقط أستمع لأصواتهم..

أخواتي يبكين بحزن شديد، ويمتزج نحيبهنَّ مع صوت المقرئ القريب.. استمعت لصوت أختي الصغيرة فادية ذات السبع سنوات تغالب دموعها بصعوبةٍ متسائلة:

- لماذا يحدث لنا كل هذا؟ أي ذنب يعاقبنا الله عليه؟

صوت صديق الطفولة "فطين" يجيبها، كنت أسمعه بوضوح من دون أن أراه، وأستشعر حنانه على تلك الطفلة الباكية:

- هل تعرفين قصة النبي موسى والخضر يا صغيرتي؟

- نعم.

- دعيني أذكرك ببعض منها.. لقد ابتلى الله أصحاب السفينة في أول رحلة لموسى والخضر بخرق مصدر رزقهم الوحيد.. وبعدها قتل الخضر طفلًا صغيرًا ليُصاب والداه بكارثة فراقه.. هل جال بخاطرك مشاعر هؤلاء المساكين أصحاب السفينة؟ خوف، رعب في عرض البحر، وتلك العائلة التي فقدت ابنها.. منتهى الحسرة.. أليس كذلك؟

- بلى.

- لكن الله كشف لنا في كتابه العزيز سرًّا من أسرار الكون.. لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.. قد يولد الخير من رحم الشر أو ما نعتقده شَرًّا.. تلك السفينة كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا، وذلك الخرق سينقذ مصدر رزقهم الوحيد، والطفل كان له مستقبل إجرامي ينتظره.. ابن عاق

لوالديه سيرتكب الجرائم العديدة التي سترهقهما.. كان خيرًا لهما ما حدث على الرغم من بكائهما ونحيبهما واعتصار قلبيهما.

ذلك هو القدر يا طفلتي.. القدر.. وقد يمنحك الله الفرصة في المستقبل لتكتشفي أن ما يحدث الآن خير لكم جميعًا..

– خير لنا أن نُطرد من قريتنا.. خير لنا أن يموت أخونا الوحيد..أيرضي ذلك الله؟

قالتها أختي الكبرى غادة فنهرها فطين:

– استغفري الله واصمتي يا غادة.. وادعي له بالمغفرة..

برقت عيناي.. أدركت حينها أنني قد فارقت هذه الدنيا البغيضة.. أنا الآن روح تغادر، وجسد يتجمد ليوارى تحت الثرى، وكل ما يؤلمني الفراق.. حتى قبر والدي لن أنال شرف الدفن بجواره.. ولكن يكفيني شرف الشهادة في سبيل وطني رغم أنف أهلها الخاضعين.. البرد يتمكن مني تمامًا.. دقائق من الانتظار لمصير حتمي.. أعلم أن الجنة بانتظاري.. موقن من هذا.. فقد وعد الله الشهداء بجنّة عرضها السموات والأرض، وما فعلتُ ذلك إلا دفاعًا عن وطني.

الأصوات تختفي تدريجيًّا من حولي بصحبة الضباب، وما تبقى سوى صوت المقرئ مرتِّلًا القرآن..تفحصت الغرفة.. إنها خاوية لا أحد فيها.. ضوء لا تقوى العين على النظر خلاله خارجها.. ألاحظه بوضوح من شباكها.. ضوء يتسرب لقلبي كأنه يمنحني قوة مضاعَفة، فأنهض واقفًا

متحسسًا جسدي.. نظرت لغرفتي للمرة الأخيرة، فقد آن موعد الرحيل.. ملأت عينيَّ بتلك الصورة المعلقة على الحائط لي بصحبة والدي وأخواتي الثلاث وزوجتي.. همست والدموع تتساقط من عينيَّ:

- اللهم إني أستودعك أهلي فاحفظهم بحفظك الذي لا يرام، وعينك التي لا تنام. ونجِّهم من القوم الظالمين والأعداء..

صوت عجيب يفاجئني ويملأ أذني في هذه اللحظة توقَّف على أثرها صوت المقرئ بغتة وخفتت حدة الضوء في الخارج.. صافرة إنذار الحروب تجتاح القرية بأكملها كأننا على وشك غارة.. لم أدرك ما يدور حولي.. الأرض تهتز من تحتي.. أصوات أقدام حاشدة تخبط الأرض بتتابع منتظم.. الصوت مستمر ويتعالى.

التفتُّ إلى خارج شباك الغرفة بصعوبةٍ.. طائرات تخترق سماء قريتنا.. عدد هائل من الطائرات تذرع المكان ذهابًا وإيابًا في شكل أشبه باستعراض عسكري.. قوات عسكرية على مدى البصر خارج بيتنا تدب أرجلها في الأرض وتهتف بصوت تهتز له القلوب.

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر..

لم أصدق ما تراه عيناي.. إنه الفيرماخت.. جيش هتلر العظيم.. أرى الصليب المعقوف على بدلهم العسكرية.. الشعار النازي في كل مكان.. علم ألمانيا النازية يرفرف فوق شجرة قريتنا العتيقة..

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر..

هل أنا على قيد الحياة؟ أم هذه هي الجنة؟ أنا أحب هتلر.. لا أنكر ذلك أبدًا.. قائد عظيم أراد اقتلاع الشر من العالم.. القضاء على اليهود.. هذا الرجل دافَعَ عن فلسطين ودعَّم مجاهديها بالتدريب والسلاح حتى رحيله.. أحبَّ هتلر الإسلام وكان يعطي المقاتلين الألمان المسلمين المنتمين للفيرماخت الحق في الصلاة في أي مكان ووقت.. لقد كانوا يصلون جماعة في ساحات برلين.. لقد حضرتُ ذات مرة لقاء بمفتي القدس الشيخ أمين الحسيني بصحبة القائد عبد القادر وبعض رجاله.. أخبرنا أنه قابَلَ أدولف هتلر عدة مرات، وأن الرجل حقًّا زعيم لا يُضاهى، يريد الخير لأمة المسلمين جميعًا.. ما زلت أتذكر كلماته عنه:

- لقد طلب مني إلقاء خطبة عن سيرة الصحابة - رضوان الله عليهم - على كتائب من جيوشه..

- ألم تستمعوا إلى خطابه يوم زحف الفيرماخت لموسكو؟ لقد بدأه بالآية الكريمة.. "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ".

- رفض شرب البيرة حتى وإن كانت علاجًا لأمراضه.

- النازيون والمسلمون لهما الهدف نفسه، محاربة أعداء الله من اليهود والبلاشفة.. جهاد في سبيل الله.

هُرعت إلى خارج البيت داخل كفني الأبيض.. ترجَّلت وسط جنود الفيرماخت وتحت طائرتهم.. قلبي يرقص من الفرحة.. صوت صافرة الحرب تتلاشى، ويحلُّ محلها عزف فريد على البيانو، كأنه سيمفونية لم أستمع

لها من قبل.. لمحت عنود زوجتي تمارس هوايتها بالعزف على ذلك البيانو بساحة القرية، وهي تنظر إليَّ بابتسامة هادئة.. أصوات الجنود تتعالى.

– أقسم بالله العظيم هذا القَسَم المقدس، أن أكون مطيعًا لكل ما يُصدِره لي زعيم الرايخ الألماني وقائد شعبه أدولف هتلر القائد الأعلى للقوات المسلحة، وأن أكون مستعدًّا كجندي شجاع للتضحية بروحي في أي وقت من أجل زعيمي.

تكرَّر ذلك القسم كثيرًا بحماسة منقطعة النظير.. كنت أخترقُ صفوفهم مذهولًا كطائر فُك أسره للمرة الأولى في حياته المنقضية خلف قضبان المشروع الصهيوني.

كانت هناك.. تلك الفتاة العجيبة بردائها الأحمر الأرجواني.. ثلاثة أعوام وهي زائر رئيسي لأحلامي.. فتاة لم أقابلها من قبل إلا في عالم الأحلام.. رائعة الجمال، وعيناها حالكتا السواد، ليل تتمنى قضاء عمرك كله بظلامه قبل بزوغ فجر اليقظة.. فتاة في الثلاثينيات من عمرها كالقمر يوم اكتماله.. حبيبتي التي لم تُخلق في هذه الدنيا.. عشيقة اللاوعي.. فتاة أحلامي.

لم أتمكن من السيطرة على الحلم كاليقظة، فقلبي الذي طالما أقنعتُه بالزهد الجبري غرق في حب فتاةٍ صنعتها أحلام شاب آثر الجهاد.. قلب عجيب.. كان يبحث دومًا عنها في عيون الغرباء وهو موقن بالفشل.. فعشيقته وهم لا يفوز بلقائها إلا في المنام.. فقد أصدر عقلي حكمًا نهائيًّا لا نقض له بعزل قلب كان يتمنى حياة يملؤها الغرام في عالم يغتال أبسط حقوق الإنسان، في وطن

لا أمن فيه ولا سلام.. لا تتعجب، فأكثر الرهبان زهدًا يعشقون، وإن برعوا في إقناعك بالعكس.

لم أشعر لحظة بتأنيب للضمير.. فقد كنت زوجًا مخلصًا لعنود..تلك التي أبرمت عقدًا علنيًّا بالحماية والسند بيني وبينها، ولم يكن الحب بندًا فيه.. وبناءً عليه فإن عشقي لفتاة ليس لها وجود ليس خيانة.. فتاة تلازمني في أماكن لم تجرؤ غيرها على إتيانها.. بأعمق بقعة ضوء في قلب تملؤه العتمة.. عازفة على أوتار الحنين لحنًا أدمنتُ محوه باليقظة.

وهكذا كنت ممزقًا بين عقلٍ أقسم على الحرمان واقتنع به، وقلب جعل معشوقته الوهمية إلهًا يقدم له القِرابين، كلما احتاج إلى وجودها.

وقفت فتاة أحلامي في منتصف الساحة بمكان خالٍ من الجنود، وعلى وجهها الابتسامة الساحرة نفسها التي اعتدتها.. اقتربت منها وقبَّلت يدها.. نظرت إلى عيني بابتسامتها الساحرة وهمست:

- اشتقت إليك.

- لم أرك منذ فترة.

- كان لديك ما هو أهم.. وطنك.

- هكذا أنت دائمًا.. لديك إجابات مقنعة.

- هل ودعتها؟

أشارت بعينيها تجاه زوجتي عنود.

- أنا لا أفهم أي شيء.. أخبريني: هل أنا ميت؟ أم أنه حلم جديد؟

- أنت فقط من تملك تلك الإجابة.

- هل بُعث هتلر من الموت؟

- ماذا ترى؟

كانت الجنود مستمرة بهتافها:

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر.

نظرت ناحيتهم ولم أجد أية إجابة.. ابتسمت لي:

- هل ترغب في الرقص؟

- هنا؟

- الآن.

مدَّت يدها نحوي.. بدأنا بالرقص على موسيقى عنود التي تزداد إيقاعًا.. لم تكن رقصة رومانسية كالمعتاد، فقد كنا نتراقص في أحلامي دائمًا، ولكنها الآن تختلف.. رقصة سريعة لا تمكث أقدامنا على الأرض ثانية واحدة إلا وتفارقها.. وكأننا نطير فرحًا بما يحدث.. التفَّ الجنود حولنا مصفقين.. وكذلك عنود كانت سعيدة لسعادتي.. ملأت الفرحة وجهها على الرغم من سيريالية ما يحدث.. فزوجها يُراقص غيرها على ألحانها.. يحتضن بعينيه عيني فتاة لا تعرفها، والعشق أنشودتهما المشتركة.. وكأنها تدرك أن قلبي ليس ملكًا لها.. انتهينا من رقصتنا وضحكنا كثيرًا.. همست لي فتاتي:

- هناك مفاجأة لك.

نظرت إليها مستفسرًا.. أشارت ناحية نهاية الساحة على الجانب الآخر.. كانت هناك منصة خشبية عالية لم ألحظها من قبل.. وبأعلاها ستار ضخم يخفي ما خلفه.. أمسكت يدي بقبضتها واقتربت بي من تلك المنصة.. تتعالى هتافات الجنود مع حركات استعراضية لطائرات الفيرماخت:

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر.

موكب ما يشق صفوف الجنود من بعيد.. موكب يقترب من مدخل القرية يسار تلك المنصة.. سيارات منسوبة للفيرماخت ترفرف فوقها أعلام الرايخ النازي.

توقفت بالقرب منا.. حالة هائلة من التأهب تصيب كل من بالمكان.. فُتح باب تلك السيارة الأماميّ.. هبط منها رجل لم أصدق عينيّ حينما رأيته.. إنه أدولف هتلر.. هنا في دير ياسين أنا وأدولف هتلر أمام بيتنا! اقترب مني بابتسامة وجيزة مادًّا يده ناحيتي:

- ياسين قاسم الزيداني.

لم يقوَ لساني على النطق بكلمة واحدة.. ربت على كتفي بقوة:

- أحسنت صنعًا أيها الفتى.. الدفاع عن الوطن شرف لا بد للجميع أن ينالوه.

- هل أنت على قيد الحياة أيها القائد العظيم؟

- أي حياة تقصد؟

- سيدي الفوهرر.

قاطعني هتلر مبتسماً:

- لا تُفْرِط في تفاصيل لا داعي لها.. الوقت من ذهب، لقد كتب لك الله النجاة أنتَ وأسرتك من القوم الظالمين.

- هل وقعت فلسطين بيد الفيرماخت سيدي الفوهرر؟

- كفَّ عن تلك الأسئلة.. أريدك فقط أن تسعد بحياتك وعائلتك. وهذا الوطن ملك لكم جميعًا بعدما طهرتُه من اليهود الأنجاس.. هم الآن تحت الأرض إما جرذان هاربة أو موتى.. هنيئًا للشرفاء بوطنهم.. شيء أخير، أريد أن أهديك إياه يا فتى.

- أي شيء؟

- انزعوا الستار.

قالها لرجاله، فأُزيح الستار عن تلك المنصة.. رأيت أهالي القرية بأكملها قابعين خلفه مقيدي الوثاق.. يبكون بأنين تقشعر له القلوب.. أصوات الجنود تتعالى:

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر.

نظر إليّ بعينين حادتين:

- هؤلاء قوم خاضعون.. لا يستحقون وطنًا شريفًا كفلسطين كما تستحق أنت.

نظرتُ إلى وجوههم ولمحتُ الشيخ منصور الرحيمي بينهم منكس الرأس.. رجوت الفوهرر متوسلًا:

- سيدي الفوهرر.. إنهم قومي، وهذا وطنهم شئنا أم أبينا.. أرجوك اعفُ عنهم لأجلي.

- قضي الأمر.. والآن حانت النهاية.

أشار حينها بيده، فعاد صوت صافرة الإنذار من جديد أقوى مما كان.. الجنود تدب أرجلهم على الأرض محدثةً سُحبًا كثيفة من الأتربة تكاد تخنقني.. توقَّفت عنود عن العزف، ونهضتْ من مكانها..كنت أراها بوضوح شديد تتحرك ببطء مثلهم.. وكأن عقلي يستقبل ما يدور حوله بصعوبةٍ.. وجنود هتلر يفتحون لها طريقًا نحونا، وفي الوقت نفسه تحركت فتاة أحلامي تجاهها.. تقابلت الاثنتان في منتصف الطريق.. نظرتا لبعضهما البعض، واستكملت كل منهما طريقها.

أبعدني بعض الجنود حينها عنوة عن مكاني بجوار هتلر.. وصلت عنود أمام الفوهرر.. وفتاة أحلامي حلت محلَّها على البيانو الخاص بها، وبدأت بعزف لحن حزين للغاية.. أصوات أجراس تعلو في كلّ مكان.. إنها لكنيسة ما.. لم يكن هناك أية كنيسة بالقرب من هنا.. نظر هتلر إلى عيني عنود وأمسك وجهها بحب شديد.. عمَّ الغضب قلبي فجأة وأنا بين أيديهم يجرجرونني للوراء.. هتافاتهم تعلو:

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر.

اقتربت عنود منه في عشق والتقمت شفتيه في قبلة العار.. وتبدلت الأدوار في المشهد نفسه.. لأذوقَ ما فعلته بعنود..ربما ما أراه محاكمة ضمير.. ولكنني لم أتحمل ذلك مطلقًا.. كيف لقائد عظيم كهتلر أن يسمح بتلك الخيانة الزوجية؟ صرخت:

- خاااااااااااااااااااااااائنة.

فرغ هتلر من تقبيلها.. تعالت أصوات أجراس الكنيسة المجهولة، وامتزجت صفّارة إنذار الحروب خلفية للحن حزينٍ تصوغه أصابع فتاة أحلامي المجهولة.. علَّقت ذراعها بذراع الفوهرر وهمَّا بالرحيل في موكبه، وتبعته سيارات الفيرماخت بعدما أشار لرجاله، فعلت هتافهم مؤدين تحيته العسكرية، رافعين أياديهم اليسرى لأعلى:

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر.

وغاب الموكب وسط الأتربة في ثوانٍ معدودة.. وقف أحد الجنود بجواري يقرأ من ورقة مطلية بالذهب بصوتٍ جهوري:

- مرسوم ملكي:

قرَّر الفوهرر أدولف هتلر ملك جرمانيا المعظم إعدام جميع أهالي قرية دير ياسين نظرًا لخضوعهم لليهود، وإثبات جريمتهم بوثيقة هدنة وُقِّعت قبل ضمِّها لمملكة جرمانيا المعظمة.. وعليه فقد تقرَّر إعدامهم بالديناميت ما عدا الآتية أسماؤهم:

ياسين قاسم الزيداني.. فادية قاسم الزيداني.. نادية قاسم الزيداني.. غادة قاسم الزيداني.. وينفذ الحكم في ساعته وتاريخه. الفوهرر.. المملكة.. الجنس الآري.

انتهى حينها من مرسومه الملكي العجيب.. لا أفهم شيئًا مما يحدث.. هللت الجنود عاليًا..

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر.

وفي لحظة من دون إنذار انفجرت المنصة بمن عليها.. تطايرت أشلاؤهم ناحيتنا.. صرختُ عاليًا:

- لاا.

وقع تحت قدمي رأسُ الشيخ منصور الرحيمي.. أغمضتُ عينيَّ من هول ما رأيت:

- إنهم قومممممممممي..

صوت ما ينفذ لأذني:

- اهدأ يا ياسين.. اهدأ يا صديقي.

كان هذا الصوت لفطين مسعود.. فتحت عيني متفحصًا.. وكأن المكان حولنا قد تبدَّل حولي.. كنت نائمًا في مكان مظلم تمامًا إلا من شمعة بجواري تضيء المكان قليلًا.. بعض الطعام وقنينة من الماء تحت قدمي، وفطين بجواري.. سألته:

- هل أنا على قيد الحياة؟

- نعم، لا تخف فقد استخرجتُ الرصاصة من كتفك وكويتُ الجرح.. مضى أكثر من ٢٤ ساعة ونحن هنا وأنت تعاني الحمى.

- أين نحن؟

تأخر كثيرًا في الرد على سؤالي.. كان يربت على يدي بحنان شديد.. آلام شديدة تصارع جسدي.. صرخت فيه:

- أين نحن؟

- نحن في قبر والدك.

قالها مشفقًا على حالي.

- ماذا؟

- كان عليّ إخفاؤك بأية طريقة.

نظرت حولي وقلبي يعتصره الألم.. سألته مُكابرًا ودموعي تنسال فجأة.. صرخت فيه:

- أين هتلر؟

- اهدأ يا ياسين.. أرجوك.

- هل تخبرني بما يحدث هنا قبل أن يصيبني الجنون؟

- سأخبرك، ولكن هوِّن عليك قليلًا.. لا تزعج روح والدك ويكفي أننا انتهكنا قبره بهذه الطريقة.

- والدي!

وكأن عقلي يدرك للتو معنى ما يقول..تفحَّصت المكان من حولي.. إني في مقبرته حقًّا.. دخلتها مرة واحدة ونحن ندفن جدي منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، حتى بعد قتله لم أجرؤ على رؤيته على هذه الحال.. غير أنني كنت طريدًا طوال الأسبوعين الماضيين.. كنت أشتمُّ رائحته حولي.. أمسكت تلك الشمعة سريعًا وحرَّكتها في المكان.. كان هناك داخل كفنه على جانب جدران المقبرة.. كنت أرى وجهه.. اقتربت ودموعي تنسال من دون توقُّف.. قبَّلت وجنته الشاحبة.. وقد تحولت بشرته للون الأزرق قليلًا:

- أبي.. سامحني يا أبي.. لم أكن بجوارك حينما اعتدى عليك ذلك النجس.. ولكنني ذبحته كالخراف، وعلَّقت رقبته في وسط مستوطنتهم القذرة.. أعلنت للجميع أنني أخذتُ بثأرك.. طردوني يا أبي.. هؤلاء القوم الذين طالما دافعتُ عنهم طردوني.. خافوا مِن تحمُّل شرف المقاومة، وعقدوا هدنة مع قاتليك.. سامحني يا أبتاه.. سامحني.

ربت فطين على كتفي الجريحة، فتألمت كثيرًا.. تأوَّهت من آلام لا توصف تغصُّ بقلبي قبل جسدي:

- آآآآآآآآه يا أبي..آآآآآآآآه.

- هدِّئ من روعك يا ياسين.

جلستُ بجوار جثته أبكي متذكرًا كلماته الأخيرة لي كأنها وصيته:

- ستغدو بمفردك يومًا ما يا بني مهما يكن عدد رِفاقك.. تلك هي الحقيقة، فاستعد.

أسندتُ رأسي على الحائط، وغِبتُ في وصلة من البكاء الهستيري.. مَدَّ فطين يديه، وأمسك كلتا يديَّ بقوةٍ ناظرًا إلى عينيَّ:

– ياسين.. عليك أن ترحل من هنا بأي ثمن. أعتقد أن الأمور قد هدأت في الخارج، وأنت قادر الآن على الفرار.

– ما الذي أتى بك في هذا التوقيت؟

– جئتُ لأنقذك من قنبلةٍ موقوتة كانت ستنفجر في بيتك.

– ماذا تعني؟

– سأخبرك.. ولكن جفِّف دموعك أولًا.

– لا شأن لك بدموعي.. أخبرني وحسب.

– حسنًا.. حينما كنتُ في حفل سمر القرية منذ ستة أشهر التقطتُ مجموعة من الصور الفوتوغرافية لنا بصحبتك وأخواتك.. ظهرت زوجتك في إحداها.

– وما المشكلة في ذلك؟

– تعرفتُ إلى فتاة يهودية بغزة خلال الأشهر الماضية، ونمت بيننا علاقة حب ستُتوج بالزواج قريبًا.

نظرت إليه بضيق شديد متذمرًا:

– أنت؟ أنت يا فطين تتزوج بيهودية؟

- أحببتُها يا ياسين.

- أحببتَ مَن تريد اغتصاب وطنك؟

- الصهاينة هم مَن يفعلون ذلك.. ألم تخبرني مرارًا وتكرارًا أنك تُفرِّق جيدًا بين اليهود والصهاينة.. أذهبَ كلامك كله سُدًى؟

- كنت مخطئًا.. جميعهم أنجاس.

- غير حقيقي.. لا تجعل المأساة التي تمرُّ بها تحيد بك عن الحقيقة.

- ماذا تريد يا فطين؟ أخبرني.. أجئتَ لهنا لتزفَّ إليّ خبر زواجك بيهودية؟

- كلا..اسمعني جيدًا يا ياسين.. حبيبتي تلك تُدعى سارة شبير، نازحة من ألمانيا بعد انتهاء الحرب هناك مع عائلتها الثرية..

- يهودية ألمانية! وكيف نَجَتْ من براثن هتلر؟

- اعتنقت عائلتها المسيحية قبيل الإجراءات المُشدَّدة ضد اليهود، وبالمال اشترى والدها كل الأوراق التي تثبت أنهم لم يكونوا يومًا من اليهود، وبقوا هناك ليراعي والدها تجارته عن قُرب، ولكن بعد دمار برلين انتقلوا للعيش هنا بفلسطين، واستقروا بغزة، وعادوا لديانتهم الأصلية.. اليهودية.

- إنهم يُغيِّرون ديانتهم أكثر من أحذيتهم.

- مهلًا يا ياسين.. تعرَّفت إلى سارة بعد مرورها بأزمة نفسية كبيرة لقتل أخيها جبرائيل على يد فتاة كانت صديقتها وهربت.. ولم تتمكن قوات الانتداب البريطاني من الإمساك بها.. يبدو أن هناك أشياء أخرى أكثر أهمية

لديهم من البحث عن قاتلة هاربة.

– وبعد؟

– هذه الفتاة القاتلة هي زوجتك.

– سحقًا لك.. ما هذا الهراء الذي تقول؟

– كانت صديقة مُقرَّبة لسارة ونزحت مع عائلتها من ألمانيا، وأقامت معها فترة قصيرة قبل أن يحاول جبرائيل مراودتها عن نفسها، فامتنعت، وكانت سارة شاهدة على ذلك، فنهرته بشدة لصالح صديقتها، ولكنه لم ينصَع لرفضها وحاول اغتصابها في غرفة سارة بعد أن أحكم وثاق أخته ضاربًا بتوسلاتهما عرض الحائط. فلم تجد الصديقة حلًّا ضد هذا المخمور سوى سكين الفاكهة.. دبَّتها في قلبه، وأردته قتيلًا في الحال.. وهربت ممزَّقة الثياب من غزة.. وتمزقت سارة بين صديقتها وبين أخيها المقتول، في صراع دام لفترة حتى حسمت أمرها لصالح أخيها. قبل أيام كنت أشاهد صورنا الفوتوغرافية بصحبة حبيبتي سارة.. برقت عيناها وهي تشير ناحية زوجتك وتقول: "قاتلة أخي.. قاتلة أخي".

– لا أصدق ما تقول.. محال.

– لم يتوقف الأمر على ذلك.. فعليك أن تعرف أن زوجتك تلك لم تكن مسلمة.. ولا تحمل اسم عنود إبراهيم من الأساس.. عنود هذه اسم خادمة كانت تعمل عند عائلة شبير، ويبدو أنها استساغت اسمها للتنكُّر في قريتكم.

– ومن هي إذًا؟

– ألمانية مسيحية اسمها الحقيقي إيفا براون.

– إيفا براون!

ألقى تلك القنبلة في وجهي بعد سيل من المفاجآت غير المتوقَّعة..إيفا براون.. أعرف ذلك الاسم جيدًا.. إنها زوجة الفوهرر أدولف هتلر لآخر ٤٨ ساعة في عمره، وانتحرت بأقراص السيانيد السام برفقته، وحُرق جثماناهما معًا أمام مبنى مستشارية الرايخ ببرلين.. هل هذا مجرد تشابه أسماء؟

أكمل فطين حديثه موضحًا:

– إنها هي.. ما خطر ببالك صحيح.

– أنت مجذوب.. إيفا براون ماتت وحُرقت منذ ثلاث سنوات.

– كشفت سارة شبير هذا السر لشرطة الانتداب البريطاني قبل وصولي إليك بساعات.. أول ما فكَّرت فيه أن قوات الشرطة حتمًا ستهاجم القرية وتُفتش عنها في كل مكان.

– محال.. إن كان ما تقوله صحيحًا، فلماذا أخفت ذلك السِّرَّ طوال هذه المدة؟

– سارة كانت تدرك جيدًا هول الإعلان عن سرٍّ كهذا. إيفا براون على قيد الحياة.. إذًا فقد يكون هتلر كذلك.. تورُّط عائلتها بمساعدة إيفا كان يلجم لسانها.

– ومَن فكَّ اللِّجام؟

– موت الأب والأم بحادث سير منذ شهر وبضعة أيام.. شعرت سارة بأن ما يحدث لها لعنة أصابتها وعائلتها لمساعدة إيفا.. كان عليها تسليمها.. والاعتراف بكل شيء.

– غير صحيح.. عنود زوجتي كانت عذراء يوم زفافنا.. كل ما تقوله هراء.

– أقاويل كثيرة سمعناها بأن هتلر كان عاجًزا جنسيًّا.

– اصمت.

– تلك هي الحقيقة يا ياسين.

– فليكفِ.. اصمت.

كنت أصرخُ فيه غاضبًا.. لم أتحمل كل هذه الصفعات اللعينة.

– لا تخف يا صديقي، فقد أحرقتُ تلك الصور الفوتوغرافية التي تظهر فيها داخل القرية، أحرقتُ دليل إدانتك الوحيد.. وطردتها في سرية.. لم يشعر أحد بأي شيء.

أمسكتُ بذراعيه كالمجنون بقوة، وآلامي تشتدُّ، كأن النزيف عاد من جديد يفرض سطوته عليَّ.. صرخت فيه:

– طردتَها؟

- نعم، أخبرتُها أن جريمتها قد كُشفت، وأن عليها الرحيل.

- أيها الغبي.

- هذا أفضل لك ولأخواتك يا ياسين.. وقد توسطتُ بينهنَّ وبين الشيخ منصور الرحيمي، واعتذرن له.. سيكون كل شيء على ما يُرام..عليك فقط الابتعاد قليلًا.

- اخرس.. كيف فعلت ذلك؟ عنود على وشك الوضع أيها الغبي.. كنا ننتظر طفلًا أنت أضعته بتسرعك.

- طفلًا!

- سأقتلك.. ولكن ليس الآن.. عليّ اللحاق بها.

تركتُه وهممتُ بفتح الباب الحديدي العلوي للمقبرة.. كان يحاول منعي بقوة.

- لن أدعك تُلقي بنفسك إلى التهلكة.

- دعني وشأني.

لكمتُه في وجهه وخرجتُ.. كانت المقابر تبتعد عن قريتنا لأكثر من خمسة كيلومترات في مكان صحراوي.. خرج ورائي صارخًا:

- ارجع يا ياسين.. لا تذهب إلى القرية أرجوك.

ركضتُ إلى هناك في إعياء شديد.. كل شيء يتسلل من بين يدي، وتعتم حياتي يومًا بعد يوم..أيضيع طفل كنت أتمناه وظننت أنه أمل جديد قد يصنع في الدّنيا ما فشلنا نحن في صُنعه؟

مطلوب من البريطانيين والصهاينة على حد سواء، ومن بين العالم أجمع، أتزوج زوجة هتلر! لينضم لأعدائي الروس والأمريكيين وغيرهم ممن يحتفلون ليل نهار بتخلُّص الكون من الزعيم النازي.

– طفلي.

كنت أصرخ بها لاهثًا بكل سرعة ممكنة.

وصلت القرية في غسق الليل.. السماء ملبدة بالغيوم.. هُرعت لبيتي ودخلت وأنفاسي تتصارع داخل صدري.. وجدت أخواتي جالسات في صالة البيت بملابسهن السوداء، والحزن يملأ وجوههن.. انتفضن ناحيتي واحتضنَّني.

– حمدًا لله على سلامتك يا ياسين.

– أين عنود؟

– اختفت.. بعدما طلب منا فطين الاعتذار للشيخ منصور، وتجهيز تلك الأدوات التي سيستخرج بها الرصاصة من كتفك.. وخرجنا نساعده لنقلك في سيارة للمقابر، وعندما عدنا بحثنا عنها ولم نعثر لها على أثر.. وبعدها بساعات معدودة هاجمت شرطة الانتداب قريتنا، وفتشت في كل مكان.. والعجيب أنهم لم يتحدثوا إلينا مطلقًا.. انتهوا من التفتيش وانصرفوا..

قالتها غادة وأنا أفتِّش كل أرجاء البيت عنها.. دخلتُ غرفتنا، ووجدتُ رسوماتها مبعثرة بكل مكان.. وسقطت عيناي على ورقة بخطِّ يدها مكتوب فيها: "الأمان مجرد هراء".

نظرتُ من شباك غرفتي، فلم أجد جوادي في الخارج.. لقد فُكت قيوده.. وجدتها ملقاة على الأرض.. لقد رحلت عنود.. لم أكن أمانًا بالنسبة لها.. لم أستطع حمايتها.. الآن فقط أدركت معنى ذلك الحلم الأخير في أثناء إصابتي بالحمى.. أدركتُ حقيقتها وقِصتها التي أخفتها طوال عام ونصف.. حقيقة إيفا براون.. زوجة أدولف هتلر الحاملة في أحشائها ابنًا لي.



(٦)

مستشفى والتر للطب النفسي

العاشر من نيسان

تقترب الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل، والأمطار مستمرة لا تتوقف منذ يومين.. كان طقسًا قاسًيا تعوَّده الألمان، بل تعودوا ما هو أشد قسوة وعناء.. ذلك الجيل المعاصر لأدولف هتلر يستحق جائزة للبقاء حيًّا مرورًا بتلك الحرب الشنعاء.

هناك في تلك الغرفة الصغيرة بمستشفى والتر للطب النفسي تستمع إلى الموسيقى ليل نهار نابعة من ذلك الجرامافون.. وصرَّح لها الأطباء بذلك كنوع من العلاج.. كان لساندرا دور كبير في ذلك، فهي مؤمنة أن الموسيقى غذاء للروح، وتملك تأثيرًا أقرب للتنويم المغناطيسي، حتى أن جميع الغرف في المستشفى مجهزة بجرامافون، كلٌّ على حدة.

الأضواء خافتة في غرفة نيكول غيرد، والموسيقى تدور وتدور.. الستائر تتطاير، والبرد قارس.. لم تكن نيكول في مكانها المعتاد فوق فراشها في هذا الوقت المتأخر من الليل.

تمرُّ الطبيبة الليلية راشيل على النزلاء للاطمئنان كروتين يومي.. تعوَّدت راشيل المبيتَ في المستشفى حتى من قبل سقوط برلين في قبضة الحلفاء، فهي من أقدم الأطباء هنا، على الرغم من صغر عمرها الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، ولكنها ستُتمّ، في هذا العام ثماني سنوات من العمل في مؤسّسة والتر العلاجية للطب النفسي.. لم تتزوج راشيل، وآثرت العيش لخدمة المرضى وتلبية احتياجاتهم كونها رسالة إنسانية أدمنت اعتناقها.. ترجَّلت راشيل ناحية غرفة نيكول وهي تعرف أنها لم تخلد إلى النوم بعد.. كانت آخر من ينام في هذا المستشفى.. ولذلك تجعلها آخر من تمرُّ عليه خلال نوبتها الليلية.

فتحت الباب.. لم تجد نيكول في مكانها..البرد قارس.. لم تعتَد نيكول تَرْكَ شُباكها مفتوحًا هكذا.. أجالت راشيل نظرها في أرجاء الغرفة...أضاءت مصباح الغرفة العلوي.. تحركت لتغلق شباكها، ولكنها تعثرت بشيء ما على الأرض كانت تخفيه الستائر.. نظرت نحو الأسفل.. فصُعقت لِمَا رأت، وصرخت صرخة مدوّية:

كانت نيكول غيرد مقتولة بطعنة في الصدر ناحية القلب، وغارقة في دمائها، وقد فارقت الحياة.

كما رأت على الحائط بجوارها جملة واحدة كُتبت بالدماء:

"هتلر عاد.. ليبدأ جحيمكم".

(٧)

العاشر من نيسان

خرج طوفان الزمن في موكب مباغت لن يوقفه شيء.. وانهالت أمواجه على الجميع مُعلنةً دقاته المصيرً.. فللزمن دقات قد تُعلن عليك الحرب، الانتقام، القتل، الحزن، الحب، وأنت وقَدَرُك.

يقف الزمن ممسكًا بكل خيوط المصير، وهو فقط مَن يدرك النهايات ونحن نقاوم تارة أمواجه العاتية، وتارة يغرينا الاستسلام والغرق.

ثلاثة في ميدان المعركة في اللحظة نفسها.. ساندرا هون الطبيبة اليهودية الموشك حلمها على الاغتيال بأخبار مفخخة عن أكثر رجل تمقته في حياتها.. أدولف هتلر، وبيتر هون الصِّحافيّ الطموح المنتظر شهرةً لا مثيل لها، بدأها اليوم بذلك التقرير المثير عن الرجل نفسه، وأنا، ياسين الزيداني الفلسطيني التائه بين دروب دير ياسين بحثًا عن ابن ضَلَّ الطريق في أحشاء إيفا براون الهاربة.

كلٌّ يتعلق بالزعيم النازي أدولف هتلر، ولكلٍّ مصير لن يتغير.. معركة أُجبرنا على القتال في ساحاتها المتباعدة وبزمن واحد.

انتقلت قوات الشرطة إلى مستشفى والتر للطب النفسي، تحديدًا غرفة القتيلة نيكول غيرد.. رُفعت البصمات، واتُّخذت كلّ الإجراءات المعتادة في مثل هذه الجرائم، ونُقلت الجثة إلى المشرحة لتحديد سبب الوفاة.. وكُتب التقرير المبدئي للجريمة:

– إنه في الساعة الثالثة فجر يوم العاشر من نيسان، تم العثور على جثة السيدة نيكول غيرد في إحدى غرف مستشفى والتر للطب النفسي مصابة بطعن نافذ في الصدر، وقد انتقلَ فريق البحث الجنائي والطب الشرعي فور إبلاغ الطبيبة المعالجة المدعوة راشيل موسى عن الجريمة، وبمعاينة المكان وجدنا الآتي:

* غياب أي محاولة للعنف أو للكسر في غرفة القتيلة..

* لا وجود لسلاح الجريمة في الغرفة..

* كتابات على الحائط نعتقد أنها كُتبت بدماء القتيلة "هتلر عاد ليبدأ جحيمكم".

سرعان ما تسرَّب خبر الجريمة لبيترهون.. وكان أول مانشيت في الجريدة صباحًا..

"مقتل السيدة نيكول غيرد بطعنة في القلب، وأدولف هتلر يعلن عودته".

انقلبت ألمانيا رأسًا على عقب..أخذت القضية منذ ساعتها الأولى منحًى سياسيًّا خطيرًا، قد يؤثر في العالم أجمع..تكهنات خلف الغرف المغلقة.. اجتماعات سرية فجائية لقادة من الطراز الرفيع.. وسؤال واحد شغل الجميع:

- هل هتلر ما زال حيًّا؟

لم يكن التحقيق بموت سيدة اعتيادية، ولكن القاتل يدَّعي أنه هتلر.. الزعيم النازي المنتحر منذ ثلاث سنوات.. انتشر الخبر كالنار في الهشيم، مثيرًا الرعب والترقب لنتائج التحقيقات.. لم تصدق ساندرا هون ما طالعته في الجريدة في ذلك الصباح، وهُرعت - لتتأكد بنفسها - إلى المستشفى.. وقفت أمام تلك الجملة المكتوبة على حائط غرفة نيكول بارقة العينين.

لم تنطق بأي كلمة من هول الصدمة.. أقصى ما توقعته هو قتل نيكول ليختفي هذا السر إلى الأبد، ولكن أن يعلن قاتلها هذا السر بنفسه فهذا يعني شيئًا واحدًا فقط.. هتلر على استعداد تام الآن للعودة ليبدأ جحيم العالم أجمع.. نُسفت أمانيها بحياة هادئة؛ فلم يعد في الجنة مكان لها منذ اليوم.. فلتنتظر، والعالم، سلسلة من العذابات على يد ذلك النازي البغيض.

استدعت النيابة الصِّحافيّ بيتر هون، ليس لكونه صاحب التحقيق الذي قلب ألمانيا كلها، ولكن لبلاغ من مجهول بتورط بيتر في مقتل السيدة نيكول.. ضحك بيتر مستهزئًا بمكتب التحقيق.. سأله المحقِّق بوجه جامد الملامح:

- سيد بيتر.. سأُعيد سؤالي مرة أخرى وعليك الإجابة عليه بوضوح: ما قولك في الاتهام الموجَّه إليك بقتل السيدة نيكول غيرد؟

- اتهام ساذج وكيدي.

- ألم تربطك بها أية علاقة مسبقة؟

- قابلتها مرتين.. وفي كلتيهما كانت أختي الطبيبة ساندرا هون حاضرة.

- هل حضر غيركما هذه المقابلة؟

- لا.

- وماذا دار خلال هاتين المقابلتين؟

- مجرد تحقيق صحفي.. ما نشرتُه، وتستطيع أن تطَّلع عليه في الأعداد السابقة للجريدة.

- ألا تشاركني التعجب من قتل نيكول بعد لقائها بك بيوم واحد، وكتابتك لتقرير عن كابوسها المرعب بعودة النازي هتلر؟

- نعم، ولكن هذا ما حدث.

- مريضة نفسية تحلم بهتلر يقتلها بخنجر في قلبها ويهتم لكابوسها صِحافيّ، ويكتب تقريرًا مثيرًا عن ذلك، وفي اليوم التالي تُقتل السيدة بالطريقة نفسها، ويُكتب على حائط غرفتها: "هتلر عاد ليبدأ جحيمكم"!.. خطة ذكية يا عزيزي، أليس كذلك؟

- ماذا تقصد يا سيدي؟

- لن تنفعك تلك البلبلة المثارة في مقالاتك. وسرعان ما ستتكشف الحقائق.. ولذلك أدعوك لتوفير الوقت والكفّ عن المراوغة التي لا داعي لها على الإطلاق.. أريدك أن تعترف بجريمتك وحسب.

- لماذا تصر على اتهامي سيدي المحقِّق؟

- لأن العقل والمنطق يرفضان قصتك.. حتى وإن أكدتها الطبيبة ساندرا هون، فهي في النهاية أختك، وقد تكون مشتركة معك في تلك الجريمة.

- لا دخل لساندرا بشيء.

- إذًا أخبرني أنت: لماذا قتلتها؟

- لم أقتلها.. لست أنا من قتلها.

- رائع.. من قتلها إذًا؟

- شخص ما ساعد هتلر على التنكُّر والهرب.

فَقَدَ حينها المحقق أعصابه صارخًا في وجه بيتر هون:

- كفَّ عن تلك النغمة البغيضة.

- لديَّ دليل قوي على ما أقول.

- أيُّ دليل؟

- أوراق كتبتها القتيلة بخطِّ يدِها وبتوقيعها، تتضمّن كل حكايتها التي لم أنشر أغلبها بعد.. وصورة فوتوغرافية لهتلر متنكرًا بصحبة ذلك الرجل.

كانت ساندرا وزوجها إدوارد يقفان في رواق بناية النيابة في انتظار بيتر، فقد اتصل بها ليخبرها أن الشرطة ألقت القبض عليه بتهمة قتل نيكول.. طمأنها كثيرًا في البداية، ولكنها هُرعت وزوجها إلى النيابة مستشعرة كارثة على وشك الحدوث.

كانت على حق..فقد صَدَقَ حدسها.. اصطحبت قوات من الشرطة بيتر هون إلى بيته الصغير لتفتيشه، والبحث عن تلك الأوراق التي يزعم وجودها بخط القتيلة. وكانت النتيجة مباغتة: لا وجود لتلك الأوراق، ولا للصورة الدالَّة على تنكُّر أدولف هتلر.

- لقد سُرقت الأوراق.. لقد سُرقت الصورة.. مؤامرة.. إنها مؤامرة.

فَقَدَ بيتر هدوءه في تلك اللحظات المُعلِنة عن تورطه في تلك الجريمة التي لا دخل له بها.. وأكد تورطه ما أسفر عنه تفتيش بيته ومكتبه الخاص. عُثِر على خنجر ملطخ بدماء يُشتبه أنه السلاح المستخدم في الجريمة.

وُجّهت تهمة القتل عمدًا، رسميًّا، إلى بيتر هون، واختلاق قصة لإلهاء الرأي العام حول النازي هتلر.. من اليوم الأوّل للقضيّة، قرّرت النيابة حبسه خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، وخرج المتحدث الرسمي لوزارة الداخلية ببيان صحفي نسفَ به كل المخاوف التي التهمت العالم بساعات قليلة منذ بدء التحقيق.. ووردت في نهايته جملة واحدة أثلجت الصدور:

- جريمة فردية لصحافيّ، لا علاقة لها بهتلر. هتلر في عداد الأموات ونحن نؤكد لكم ذلك.

وأصدر القدر حكمًا لم يكن بالحسبان.. أعلن الزمن في ذلك اليوم مصيرًا مظلمًا لبيتر هون بعد حلم وُئد في أيّامه الأولى، بشهرة لم ينلها كما أراد.. وانتهى به في حبس انفراديّ داخل غرفة مظلمة، في قضيّة إنقاذه منها يكاد يكون مستحيلًا.

***

"الأمان مجرد هراء".

جملة دبت سيفها في قلبي، في لحظاتٍ لا مثيل لها من الضياع، بقدرٍ أعلن الحرب عليّ بكل مياديني، فلم يتبقَّ لي شيء.. أب راحل، وابن مفقود، وزوجة هاربة، واسم مطلوب على قائمة البريطانيين والصهاينة.

نظرت من شباك غرفتي فلم أجد جوادي في الخارج.. لقد فُكت قيوده.. وجدتها ملقاة على الأرض.. لقد رحلت عنود.. لم أكن أمانًا بالنسبة لها.. لم أستطع حمايتها.. الآن فقط أدركتُ معنى ذلك الحلم الأخير في أثناء إصابتي بالحمى.. أدركتُ حقيقتها وقِصتها التي أخفتها طوال عام ونصف.. حقيقة إيفا براون.. زوجة أدولف هتلر الحاملة في أحشائها ابنًا لي.

صرختُ عاليًا أمام البيت ناظرًا إلى السماء لاهثًا، وقلبي يصرخ من الأوجاع بدموع ملأت عيني:

- يااااااارب.. ياااااارب..

طلقات نارية كثيفة تجيب صرخاتي.. هُرعت إلى الداخل بصعوبةٍ، متحاشًيا إصابتي مجددًا بطلق يُرْدِيني قتيلاً هذه المرة.. صوت صافرة إنذار الحروب يعود من جديد.. ولكن هذه المرة ليس حلماً كالمرة الفائتة.. رأيت الرعب في عيون أخواتي.. صرخت فيهن:

- اخفضن رؤوسكنَّ.

زحفتُ أرضًا ناحية الباب، وأبصرتُ ما يحدث في الخارج.. كان هناك في مدخل القرية سيارة مصفحة، وخلفها عناصر مسلحة، صهاينة تابعون لمنظمتي أرجون وشتيرن.. رأيت شعارهما بوضوح على تلك السيارة التي يحتمون خلفها.. منظمتان شبه عسكريتين تناديان بالقتال من أجل إنشاء دولة للصهاينة على أرضنا.. كنت وقائدي عبد القادر الحسيني والمجاهدون نتربص بهم كثيرًا، ونقتل منهم، فهم عدوُّنا اللدود.. وابل من الرصاص لا يتوقف ممتزجًا بصوت تلك الصافرة اللعينة، وصوت ينبعث من ميكروفون يتكرر:

- على أهالي دير ياسين الرحيل.. على أهالي دير ياسين الرحيل.

- سيحتلون القرية.

قلتُها بغضب شديد.

- سيحولونها لمستوطنة صهيونية جديدة.

لم أتمالك تلك الأوجاع التي تغصُّ في قلبي إلا وأنا أنهض مجازفًا بحياتي .. هُرعت لغرفتي مُخرِجًا تلك البندقية التي أحكم إخفاءها تحت أرضية

البيت.. نبشتُ التراب من فوقها واستخرجتُها وسُرة من الذخيرة وضعتها في جيبي وخرجتُ وأخواتي يصرخن فيَّ:

- عُدْ يا ياسيييييين.

عدوتُ بسرعة متناهية بين طلقاتهم، نحو مسجد القرية القريب من البيت.. كنت أعلم أنها الفرصة الأخيرة، وعليّ المحاولة.. عليّ تحريرهم من الخوف رغمًا عنهم.. نجحتُ في الوصول للمسجد من دون إصابة واحدة، كأن الله يحيطني بملائكته ليحميني.

فتحت ميكروفون المسجد وهتفتُ فيه عاليًا بكلمات نشيد الثورة الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني الذي صاغه الشاعر إبراهيم طوقان عام ١٩٣٤:

مـــوطنـــي مـــوطنـــي	الجلالُ والجمالُ والسناءُ والبهاءُ

في رُبــــاكْ في رُبـــــاكْ	والحياةُ والنجاةُ والهناءُ والرجاءُ

في هـــواك في هـــواك	هـــــل أراكْ؟ هـــــل أراكْ؟

سالمـــاً منعَّما وغـانما مكــرَّمًا	هـــــل أراكْ في عُـــلاكْ؟

موطني موطني موطني.

أعدتُها مرارًا وتكرارًا بحماسة تبارز نداءهم:

- على أهالي دير ياسين الرحيل.

هللت بحماسة أكبر:

- يا أهل دير ياسين.. النصر أو الشهادة.. سيقتلون أبناءكم، ويستحلون أرضكم، ويغتصبون نساءكم.. لقد حان اليوم الذي طالما حذرتُكم منه.. النصر أو الشهادة.. لقد اخترقوا هدنتكم.. النصر أو الشهادة.

كنت أعلم جيدًا أن كل بيت في القرية يمتلك سلاحًا كسلاحي، وكنت أراهن هذه المرة على استخدامهم له بعد غياب.. دقائق من الهتافات المتصارعة حتى بدأ صوت آخر ينضم لرصاصهم.. طلقات أخرى تخرج على استحياء من بيوت قريتنا.. رقص قلبي فرحا لثورتهم المتأخرة دفاعًا عن وطننا وأرضنا.. تسللت سريعًا إلى مئذنة المسجد لأتابع الحدث جيدًا وأتيقن من تلك الأصوات.

رأيتُ أحد الجنود يصاب بطلق ناري في بطنه، فأثلج صدري لذلك.. مفاجأة كبرى لم يتوقعها المهاجمون الصهاينة.. وارتباك في صفوفهم القليلة.. أعدادهم لا تتجاوز الخمسين.

بدأت باستخدام بندقيتي لأشارك في هذا القتال المتبادل.. وقفت نداءاتهم بعد دقائق: وانخرطنا في حرب من الرصاص العشوائي.. كنت أراهم يعودون للوراء في كل لحظة يشتد فيها دفاعنا عن القرية..كلٌّ من بيته..حتى كفَّ رصاصهم عن الضجيج.. إنهم يبتعدون حاملين جرحاهم وقليلًا من القتلى: بخزي وعار يثبت استبسال أهالي قريتي.

عُدتُ سريعًا إلى فناء المسجد ممسكًا بالميكروفون، وتعالت هتافاتي بنشيد الثورة، ولكنني لست بمفردي هذه المرة، فأصوات أهل قريتي تردِّده معي، كلٌّ من مكانه خلف جران بيوتهم.

مـــــوطنـــي مـــــوطنـــــي	الجلالُ والجمالُ والسناءُ والبهاءُ
في رُبـــــاكْ في رُبــــــاكْ	والحياةُ والنجاةُ والهناءُ والرجاءُ
في هـــــواك في هـــــواك	هـــــل أراكْ؟ هـــــل أراكْ؟
سالمـــاً منعَّما وغـانما مكـرَّمًا	هـــــل أراكْ في عُـــــلاكْ؟

موطني موطني موطني.

تعالت أصواتنا الفرحة بانتصار سيُدوِّنه التاريخ.. يد ما تربت على كتفي، فالتفتُّ ناحية صاحبها.. كان الشيخ منصور الرحيمي والدموع تنساب من عينيه بدون توقُّف:

- لقد كنت مُحقًّا يا بني.

احتضنني لأول مرة ذلك الرجل الصارم.. همس لي مغالبًا دموعه:

- سيعودون.

- نحن لهم.

- تعال معي.

اصطحبني إلى ناحية من المسجد، وأزال ذلك الحصير من أرضه، وفتح غطاء مربعًا يُخفي شيئًا ما تحته.. أنار شمعة كانت معه لتظهر محتوياته.. سرداب أرضي ممتلئ بالصناديق.. برقت عيناي:

- ما هذا يا شيخ؟

- لم آمن لهم يومًا.. ولهذا ساعدني والدك - رحمة الله عليه - على تخزين تلك الذخائر ليوم كهذا. فتحتُ بعضها.. صناديق ممتلئة بالذخيرة عن آخرها.. ربت على كتفي بقوة:

- علينا توزيعها على أهالي القرية لنستعد لعودتهم.

- النصر أو الشهادة.

- النصر يا ولدي.. النصر.

***

الساعة تقترب من الثانية ظهرًا، وفشلت كل محاولات ساندرا هون لمقابلة أخيها بيتر المحجوز على ذمة تلك القضية.. حاول إدوارد أن يُهدئ من روعها وانهيارها:

- لا طائل من وجودك هنا يا ساندرا.. لقد أدليتِ بشهادتك، وبيتر سيقابله محاميه بعد الاطلاع على أوراق القضية.. ولن يسمحوا لنا بمقابلته.. فلتعودي إلى البيت، وأنا سأخبرك بكل شيء أولًا بأول.

- لن أخرج من هنا إلا وبيتر معي..

- ساندرا!

- لن أخرج.

قالتها صارخة في وجهه.. ربت حينها على كتفها بحنان محاولًا امتصاص غضبها، فارتمت باكية في أحضانه الدافئة.. مرت ساعة على مكوثهما هكذا حتى خرج لهما المحامي "هارن"..تحدث إليهما سريعًا:

- القضية مكتملة الأركان.. سلاح الجريمة وُجد في مكتب بيتر، ولا وجود لتلك الأوراق التي زعم وجودها، وتلك الصورة الخاصة بهتلر، وشهادتك ليست لها قيمة أمام أداة الجريمة.. أملنا الوحيد هو تقرير المعمل الجنائي بوجود بصمات أخرى على الخنجر، ولكنني غير متفائل بذلك، فمن ينفذ جريمة كهذه، ويورِّط فيها غيره، لن يفوته ترك سلاح الجريمة بلا بصمات، ليصبح القاتل هو من وُجدت في منزله تلك الأداة.

- افعل أي شيء أرجوك يا هارن.

- سأفعل كل ما بوسعي.. سأقابل بيتر الآن لعل لديه تفسيرًا آخر لما يحدث.

- هل لي أن أقابله معك؟

- كلا.. لن يسمح لك بذلك.. غير أنه رفض مقابلة أحد، ولذلك سأذهب بنفسي لأحاول معه.

- سأنتظرك.

- حسنًا.

تحرك هارن في اتجاه أروقة التحقيقات بصحبة أحد الجنود إلى محبس بيتر الانفرادي..كان غرفة صغيرة معتمة مخصصة للمجرمين قبل ترحيلهم إلى السّجن.. سمحت النيابة ببعض الوقت بين هارن وبيتر بمحبسه الخاص بعد رفض بيتر مقابلة أحد.. انتابته حالة من الهياج التام والبكاء منهارًا بعد انخراطه في هذه الجريمة.. فتح الجندي ذلك القفل على باب زنزانته، فدخل بعض من النور إلى هذه الغرفة البغيضة.. برقت عينا هارن لما رآه.. بيتر هون عاريًا معلّقًا بشيء ما في الشباك العلوي لتلك الزنزانة، مفارقًا الحياة... كأنه خلع ملابسه ليشنق بها نفسه.. وانتحر بيتر هون، لتُقفل القضية تمامًا في يومها نفسه.. أقصر قضية في ألمانيا.. القاتل ينتحر بعد القبض عليه بساعات.

***

واشتدَّ وطيس المعركة من جديد بعد شروق الشمس.. عادت قوات الصهاينة لمحاصرة القرية مجددًا بقواتٍ لا حصر لها من الهاجاناه.. يبدو أنهم طلبوا الدعم من هذه المنظمة العسكرية، لتصبح عملية احتلال دير ياسين عملية عسكرية بامتياز.

معركة غير متكافئة، فقد كنا نقاتل ببنادق قديمة الطراز، أمام فرقة من المشاة مدججة بالسلاح تحاصر القرية، بالإضافة إلى خمس عشرة دبابة كانت تدكُّ بيوتنا بوابل من الطلقات الموشكة على هدمها، ومع ذلك كنا نقاتل بشرفٍ، حتى ظهرت تلك الطائرة العسكرية فوق رؤوسنا، وبدأت تحصد ما تبقى من أرواح أهالي القرية.

ضُرب المسجد بقذائف مباشرة فتهدمت حوائطه، ومات الشيخ منصور تحت أنقاضه، وقد كنا احتمينا به مع مجموعة كبيرة من رجال القرية، تاركين النساء والأطفال والشيوخ في البيوت، وطلبنا منهم عدم الخروج مهما يحدث.. لكنهم مع تهدُّم البيوت خرجوا يهرولون ناحية المسجد هاربين من رصاصهم الغادر الحاصد لأرواح أغلبهم.

كنت أعلم أنها النهاية، وقد اتخذت قرارًا بالشهادة في ساحة المعركة، وكذلك أدركتُ أننا سنُباد بالكامل، ولكن يكفينا شرفًا أن هؤلاء المجرمين لن يدخلوا قريتنا إلا على دمائنا رجالًا ونساءً وشيوخًا وأطفالًا.

جثث في كلِّ مكان في القرية تكاد الأرض تختفي من تحتها، وما زلت أنا وبعض الرجال والنساء المحتميات بأنقاض المسجد على قيد الحياة، وللمفارقة رأيت أخواتي جميعهن وسط النساء الباقيات، كأن الله كتب لنا الموت معًا بمسجده المبارك.. نظرتُ إليهنَّ مبتسمًا ونحن نقاتل..فتبادلن ابتساماتهنّ معي بعيون يملؤها الخوف والدموع، ولكنها مؤمنة بقضاء الله.

اقتربت ذخيرتنا على النفاد، ومات أغلبنا بوابل رصاصهم المحيط بنا من كل اتجاه، وبدأت قواتهم تقترب أكثر وأكثر.. كنت أصرخ فيمن تبقَّى منا:

- النصر أو الشهادة.

حوصر المسجد تمامًا من الخارج بقوات المشاة، ونفدت ذخيرتنا عن آخرها.. لم يتعدَّ عددُنا خمسة وعشرين.. أغلبنا من الرجال وأقلية من

السيدات، وطفلان.. هؤلاء من تبقوا من أصل سبعمائة وخمسين هم تعداد قريتنا قبل تلك المجزرة.

دقائق من الصمت توقفت فيها أصوات القذائف والنيران تمامًا.. لا شيء سوى صوت الطائرة التي تجوب القرية وتتيقن من موت الجميع.. كأن الزمن قد توقف من حولنا، ونحن نبحث عن ذخائر وسط الجثث والصناديق الفارغة وسط الركام والأتربة.. نظرنا بأعين بعضنا البعض لحظات، معلنة أرواحنا لافتة النهاية، في معركة استمرت قرابة التسع ساعات بدون هوادة.

كانت فادية تبكي مرتعشة في إحدى الزوايا.. خطوتُ ناحيتها ملقيًا سلاحي واحتضنتها.. مسحت دموعها مبتسماً وهمستُ لها:

- لا تخافي يا صغيرتي.. سنكون بخير.

- لقد مات الجميع.

قالتها وحروفها تتعثر على فمها تغالب بكاءها من دون توقُّف.. نظرت إلى عينيها:

- لقد فاز الجميع.. كلهم شهداء عند ربهم بجنات عرضها السماوات والأرض.

- هل سنموت يا أخي؟

- الروح لا تموت.. الروح باقية أبد الدهر.. فلا خوف ولا حزن.

- ستحمينا يا أخي.. أليس كذلك؟

نظرتُ إليها وانتحرت الكلمات على لساني.. صوت ينبعث من الميكروفون مجددًا كأول هجومهم في الليلة السابقة:

– اخرجوا واضعين أياديكم فوق رؤوسكم.. اخرجوا واضعين أياديكم فوق رؤوسكم.

وانتهت دقات الزمن لهذا اليوم بالتحديد عن مصير لا عودة فيه..

* انتحار بيتر هون الصِّحافي اليهودي.

* احتلال قرية دير ياسين على جثث أهلها الشرفاء.

* أدولف هتلر ما زال على قيد الحياة .. ذلك ما بات مؤكدًا على الأقل لساندرا هون.



(٨)

نُصبت أفراحهم الداعرة على عبق دمائنا الشريفة احتفالًا بإبادتنا واحتلال دير ياسين.. كانوا يهللون كعرابدة أدمنوا الخطيئة، ويرغبون في المزيد.. قيَّدوا من تبقى منا على قيد الحياة.. ضموا أيادينا خلف ظهورنا، وكمَّموا أفواهنا مُصرِّين على إبقائنا أحياء.. تمنيتُ لو يصوب أحد أنجاسهم سلاحه الناري إلى قلبي وينهي حياتي عند هذا الحد.. كبَّلونا فوق شاحنة تابعة لمنظمة الهاجاناه.. صعد بعض جنودهم، وخلعوا عنا ملابسنا بالقوة.. كنا نُقاوِمهم وهم يضربون وجوهنا، ويشقُّون ثيابنا الملطخة بالدماء، ويبصقون في أَعيننا مهللين باستهزاء:

- هذا مقامكم يا أبناء العاهرة.

كنت كالثور الهائج.. ما أُعايشه الآن أقسى ما يمكن لبشر أن يتحمله.. الهوان والعار أشد ألمًا من الموت ذاته.. صرختُ بصوت مكتوم متلقيًا

عشرات الضربات في كل أنحاء جسدي، حتى تمكنوا من فعلتهم.. أصبحنا عراة كيوم ولدتنا أمّهاتنا، فوق تلك الشاحنة الشيطانية.. يا الله.. تصرخ روحي بين ثنايا نفسي الغاضبة.. هل مِن مُنقذٍ؟ نظرت ناحية السماء كأنني أناجي الله متوسلًا بدموع لا تتوقّف:

– اقبض أرواحنا يا الله.. لا تتركنا في هذا العذاب.

تحركت الشاحنة على أنغام نشيدهم الوطني "الهاتيكفاه" الشهير، الذي كتبه الشاعر اليهودي نقتالي هيرتس، وذاعت شهرته بينهم، فأصبحوا يتغنون به في كلّ مكان.. يرددونه دائمًا في أفراحهم بلغتهم العبرية، وكنتُ فاهمًا لبعض منها:

– ما دامت تكمن في القلب نفس يهودية

.. تتوق للأمام، نحو الشرق

..أملنا لم يصنع بعد

.. حلم ألف عام على أرضنا

..أرض صهيون وأورشليم القدس

.. ليرتعد من هو عدو لنا

.. ليخيم على سمائهم الذعر والرعب

.. حين نغرس رماحنا في صدورهم

.. ونرى دماءهم التي أريقت

ورؤوسهم المقطوعة..

ما دامت تكمن في القلب نفس يهودية

.. تتوق للأمام، نحو الشرق

..أملنا لم يصنع بعد

.. حلم ألف عام على أرضنا

..أرض صهيون وأورشليم القدس

دارت بنا تلك الشاحنة الشيطانية في دروب القرى المجاورة بشكل استعراضي مثير للغثيان، فكلما مررنا بمستوطنة صهيونية كانوا يُهلِّلون لرؤية أجسادنا العارية، ويتلذذون مطلقين سياط عيونهم الناهشة لشرفنا، ويتراقصون مرددين تلك الأنشودة، والشماتة على وجوههم، ساخرين منا.. لم أنسَ قط تلك النظرات الساخرة من طفل يهودي لم يتعدَّ عمره ست سنوات وهو يقضي حاجته ملوحًا بعضوه الذكري ناحيتنا.. من أين أتى هذا الصبي بكل هذا الإجرام؟ ألهذا الحد يربُّون أبناءهم على الكُره والعدوان؟

أفراح وزغاريد ونساء يهوديات يصفقن ويتراقصن على جثث كرامتنا.. لم تترك الشاحنة طريقًا إلا وسلكته.. حتى القرى الفلسطينية المتشحة بالصمت والذعر مما يرونه أمامهم، كأنهم يُوجِّهون لهم رسالة أصبحت أقرب ما يكون لهم مصيرًا:

- الرحيل أو الخراب.

رسالة واضحة لا تحتاج لأي تفسير.. ما حدث في قريتنا سيثير الرعب في نفوس الفلسطينيين أكثر فأكثر، وسيقررون التنازل عن الوطن والفرار بحثًا عن حياة مغمسة بالذل والهوان.

انتهت جولتنا بين ربوع وطننا الموشك على الضياع.. عادوا بنا مرة أخرى إلى دير ياسين، وقد نصبوا منصة في المكان نفسه الذي رأيته في حلمي الأخير.. كم أتمنى أن يعود هتلر من جديد ويدكَّ حصونهم بالفيرماخت وينقذنا!

ربطوا رقابنا بعضها ببعض بحبال سميكة كالخراف، وجرجرونا إلى تلك المنصة.. وقفنا أعلاها، وجثث أهالينا مرصوصة حول تلك المنصة كعرض شيطاني برعوا في تجهيزه.. أعدادهم تزداد، كأن اليهود يأتون من كل حدب وصوب ليشاهدوا الاحتفال الدموي الأول لقريتنا.. قرعوا كؤوس الخِسَّة، وتجرعوا دماءنا بوقاحة منادين بحقِّهم في أرضٍ هي لنا، ولأجدادنا منذ القدم.

ضحكات ممتزجة تختلط ببكائنا المكتوم.. تلاقت عيناي بأعين أخواتي الثلاث..عجزت تعابير أوجهنا عن وصف ما نشعر به في هذه اللحظات.. صعد بجوارنا رجل منهم يقترب عمره من الخمسين عامًا.. وبدأت موسيقى النشيد الوطني الصهيوني تتردَّد من جديد حتى نهايته.. صعد غيره وتحركوا حولنا متحرشين بأجسادنا.. امتدت أياديهم إلى أعضائنا تعبث بها، وهم يضحكون مستهزئين.

- يا أبناء العاهرة.

كانوا يرددونها كثيرًا بضحكات هستيرية.. أمسك أحدهم ميكروفونًا وأخفض صوت النشيد الوطني وبدأ بالتحدث إليهم بشكل استعراضي أقرب إلى المهرج:

- أيها السادة.. بنو إسرائيل. نعلمكم أن الحملة العسكرية "نحشون" التي قامت بها الإرجون وشتيرن بدعم من الهاجاناه قد نجحت في تطهير قرية دير ياسين والسيطرة عليها، وإعلان مستوطنة جديدة على تلك الأرض.. مستوطنة جفعات شاؤول.

هلل الجميع مصفقين، فعلا صوتُه مردِّدًا:

- فلتحيَ إسرائيل.. تحيا إسرائيل!

وكانوا يرددون خلفه بحماسة.. رأيت بعضًا منهم يلتقطون الصور الفوتوغرافية لنا وللقرية ولتلك الجثث حولنا.. إنهم يوثِّقون جريمتهم النكراء ليبثوا الذعر في قلوب الفلسطينيّين.

نظر إلينا ذلك الرجل تاركًا ميكروفونه صائحًا:

- والآن يبدأ الاحتفال.

مر بيننا ورجاله يتفحصوننا واحدًا تلو الآخر، ناظرًا إلى عيوننا بشماتة لا مثيل لها.. التفَّ وراءنا وعاد مواجهًا لنا مجددًا.. أشار إلى أخواتي الثلاث فادية وغادة ونادية ورجلين.. فكُّوا ذلك الحبل من رقابهم، وجرجروا الباقي

أسفل المنصة، وأنا معهم.. وقف الخمسة بمفردهم، وكنا أول المتفرجين، وتحيط بنا الجثث من كل مكان يدهسونها بأحذيتهم.

صعد رجلان من قوات الهاجاناه إلى المنصّة.. تحسسوا أجساد الخمسة بقذارة.. كنت أزوم غاضبًا لا أتحمل أكثر من ذلك.. تلقيت خبطة قوية على رأسي ببندقية أحدهم، كادت تُهشِّم رأسي.. تداخلت الأصوات من حولي، وأصبحتُ بحالة أقرب للهذيان، كأن غشاء من ضباب أحاط بعيني.. ومع ذلك كنت أراهم وأجاهد أكثر كالثور الجريح.. أحدهم تحسس بطن أختي غادة الموشكة على وضع طفلها:

- ولد أم بنت؟

- أنا أقول ولد.

- لا.. بنت.

- أتراهنني؟

- أراهنك.

أخرج سكينًا حادًّا كان بجيبه، وأشار إلى بعض الجنود، فاقتربوا من الجميع، وقيَّدوهم وشلُّوا حركتهم.. دبَّ سكينه ببطن غادة وشقَّه طوليًّا.. يا لهول ما أرى! امتزجت صرخاتنا المكتومة، ودماؤها تتطاير أسفلها لتفارق الدنيا وهم ينتزعون أحشاءها ويخرجون طفلها عابثين بجسده.. علت صرخات الطفل الأولى بقدومه لدنيا ظالمة طاغية.. هلَّل أحدهم:

- أرأيت؟ ولد.

- ولكنه مزعج للغاية.

انفلتت الكلمة عن فم أختي فادية.. صرخت عاليًا بأعلى ما بصوتها:

- أخي.. أخي.

وفي هذه اللحظة جَرَّ الرجل سكينه على رقبة الرضيع، ونحره في الحال، وبعده كذلك أختي الصغرى فادية والرجلين.. فَصَلَ رِقابهم عن أجسادهم ليسقطوا كذبائح تُصارِع من أجل الحياة.. لم يتبقَّ غير نادية الممشوقة القوام.. تحسَّس جسدها بيديه الملطختين بالدماء.. أشار إلى رجاله، فهبطوا بها إلى أرض المنصة، واعتلاها ذلك النجس خالعًا بنطاله.. فتح قدميها عنوةً، وبدأ بمضاجعتها بقسوة ونذالة.. صرختُ بكل ما لديَّ من قوة، وهم ينهالون عليَّ بضرباتهم بدون توقُّف. ورجاله يُصفِّقون ويتراقصون كأنهم يشاهدون عرضًا بديعًا.. إنهم يغتصبون أرضنا وشرفنا وعِرضنا وحياتنا.. توقَّف بعد عدة دقائق مرتعشًا، وتركها تُنازِع تحت قدميه. وفي لحظة خاطفة أخرج سكينه وذبحها هي أيضًا.. خارت قواي معها، واستسلمتُ لضرباتهم، ووقعتُ على الأرض، وغِبتُ عن الوعي على أمل أن تكون النهاية.. دعوتُ الله لحظتها أن أموت ولا أعود مجددًا إلى هذه الحياة الطاغية.

***

الساعة تقترب من الثانية عشرة منتصف ليل العاشر من نيسان.. هذا ما تُعلنه ساعة الحائط ذات الإطار الفضي المُعلقة على يمين صورة عائلية كبيرة تضمُّ سكان هذه الشقة العلوية.. ساندرا هون وإدوارد والجد والجدة، وإدجار تحمله ساندرا على ساعدها، والابتسامة تعلو وجوههم جميعًا.. تتردد موسيقى فاجنر بين جدران شقتهم الصغيرة.. أطباق العشاء على طاولة مستطيلة بكراسيها الستة والشموع تتوسطها.. وأرغفة من الخبز الأبيض استعدادًا لتلاوة الكيدوش.

كان يومًا صعبًا على الجميع.. لم يتمكن إدوارد، بالرغم من علاقاته أن ينهي إجراءات دفن بيتر هون، ومنع خضوع جثته للتشريح، كما طلبت ساندرا.. لم تكف ساندرا عن البكاء منذ رؤيتها لجثة أخيها الوحيد المتبقي من عائلتها القديمة، وقد فارق الحياة هكذا بغتة بدون إنذار.. أخذت تُهلل في رواق النيابة والتقطتها عدسات المصورين والصحفيين الذين هُرعوا لمتابعة تلك القضية منذ بدايتها:

- لقد قتل هتلر أخي.. لقد قتل هتلر أخي.

حاول إدوارد تهدئتها من دون جدوى.. اقتحمت مكتب التحقيقات وصرخت في وجه المُحقِّق:

- لقد ساعدتموه على قتله.. أنتم تساعدون هتلر.. أنتم نازيون.

كادت قوات الشرطة تُلقي القبض عليها، لولا تدخُّل زوجها متوسلًا إلى رئيس هيئة التحقيق لمراعاة مصيبتها.. أمره بخروجها من بناية النيابة وإلا فسيصدر أمرًا بالقبض عليها.. أجبرها إدوارد على الرحيل، وبقي بجوارها طوال اليوم في مكتبه بالقرب من بناية النيابة، يجري اتصالاته بالجميع ممّن اعتقد أن في يدهم المساعدة، والنتيجة لا شيء.. سيخضع بيتر للتشريح، وسيسمح لهم بعدها بدفنه.

عاد بصحبتها إلى البيت بعد أن فقدت الأمل.. كانت شاردة لا تتكلم ولا تجيب تعازيهم لها.. حتى طفلها إدجار لم تحتضنه كعادتها، كأنه والعدم سواء.. أعدَّ إدوارد العشاء، وذهب إلى غرفتهما محاولًا إقناعها بتناول الطعام معهم..رفضت في البداية وانهارت في البكاء، ولكن إدجار دخل إليها متوسِّلا بصوته الملائكي الصغير، والحروف تترتب على لسانه بصعوبةٍ.

- لا تبكي يا أمي.. لا تبكي أرجوك..

احتضنته ساندرا وقبَّلته.. فمسح دموعها بكفيه الصغيرتين هامسًا لها:

- لن أتناول عشائي إلا معك.

خرجت معه وجلست إلى الطاولة، وشرعوا في تناول النبيذ بعد تلاوة الجد للكيدوش.. ولكنهم كانوا على موعد مع فصل جديد ومباغت من القدر.

الموسيقى عالية للغاية..أنين يصدر بالقرب من طاولة الطعام.. يمتزج بالموسيقى وتسمعه بصعوبةٍ.. الظلام دامس لا ترى شيئًا سوى بعض الضوء المنفلت من شارع فردريشتراسه عبر شباك زجاجي تكسوه الستائر.. ضوء القمر يتسلَّل عبره بصعوبةٍ من دون جدوى، فلا يقوى على شقِّ ذلك الظلام المسيطر على تلك الشقة.. صوت الأنين مستمر.. إنه لساندرا تتوجَّع:

- آه.. آه.

كانت مقيَّدة على أحد الكراسي الخشبية في منتصف صالة البيت بأسلاك حادة تؤلمها للغاية.. حاولت فكَّها، ولكنها كالسكين، لو قاومتها فستقطع جسدها وشرايينها.. سكنت في مكانها مُدرِكةً خطورة ما تمرُّ به.. لا تتذكر شيئًا سوى غيابها عن الوعي بعد شرب كأس النبيذ.. سقطت على الأرض حينها، وسقط الجميع واحدًا تلو الآخر تاركين إدجار بمفرده، فهو لا يشرب النبيذ.. العرق يتصبَّب على جبينها، ورأسها يؤلمها، كأن أحدهم كاد يُهشِّم جمجمتها بمعوله.. كانت تصرخ عاليًا دون مجيب:

- ما الذي يحدث؟ من يفعل ذلك؟ إدجار!! هل أنت هنا؟ إدجاااار.

ذهبت نداءاتها لطفلها هباءً.. كان دومًا يُجيبها بمجرد سماع صوتها.. لعله يختبئ في مكان ما.. تمنت ذلك حقًّا.. دقائق من الصراخ أُنهكت فيها تمامًا.. أدركتْ أنه لا فائدة، فصوت الجرامافون يغتال صرخاتها بنجاح.. رائحة شواء تتسرب لأنفها ممتزجة برائحة من الدماء تملأ المكان.

إنها تنزف.. بعض الدماء المتجلطة على وجهها.. صمتت لحظات حينما شعرت به.. شخص ما يتنفس بالقرب منها.. تشعر بأنفاسه كأنه يحملق بها.. سألته بصوت خافت:

- من أنت؟

لم يأتها أي إجابة.. شعرت بيده تتحسس جسدها، تداعب نهديها وتنزلق لأسفل.. ثارت حينها كأن عقربًا يلدغها:

- دعني أيها الخنزير.

صوته يهمس في أذنيها بهدوء يثير الرعب بنفسها ويرتعش له قلبها:

- لا تنزعجي..فلن يفوتك طعام الكيدوش.

- من أنت بحق الجحيم؟

- ششش.. الجحيم يتسع للجميع.. لا داعي للصراخ.

أنفاسه تحرق وجهها.. تحسس بيديه ملامحها.. إنه يقترب من شفتيها.. قاومته.. ولكنه أصرَّ على تقبيلها.. قبلة عنيفة قاسية كادت أنفاسها تختنق جراء قُبلته.. تركها وهي تبصق ناحيته دون أن تراه باكية:

- اللعنة! إدجااااااااااااار.. أين ذهب الجميع؟

- تبحثين عن طفلك؟ أم عن الجميع؟

- إدجاااااااااااااااااااار.

- حسنًا.. أنتِ من طلبتِ ذلك.

لحظات من الصمت المُطبِق.. شعرت به يبتعد عنها.. يقترب من الطاولة ويُشعل إحدى الشموع.. حاولت تمييز وجهه، ولكنه كان مرتديًا قناعًا من الجلد لرجل عجوز تملؤه التجاعيد.. تعالت ضحكاته عاليًا:

- أنتِ ساذجة.. تعتقدين أنني هنا بوجهي الحقيقي.

- مَن أنت؟

- أنتِ فضولية كثيرًا.. يهودية عنيدة أتعلمين؟ كان يجب إبادتكم منذ القدم، مؤكد كانت ستصبح الأرض بلا حروب.

- أيها النجس.. لصٌّ نَجِس.

- لصّ!

تعالت ضحكاته عاليًا، مرددًا كلمتها الأخيرة.

- لص!

توقفت ضحكاته فجأة ونظر إليها:

- لو أن لدي متسعًا من الوقت لكشفت لكِ عن وجهي الحقيقي. ولكن للأسف ذلك القناع يستغرق ثلاثين دقيقة لانتزاعه سليمًا.. حتى أتمكن من استخدامه مجددًا.. أتعرفين فنَّ التنكُّر؟

- إدجاااااااااااار.

- إدجار سبقك وعائلتك إلى الجحيم ليلتقوا ببيتر هناك.

انتابت ساندرا حالة من الهياج العصبي والبكاء الشديد.. تهدَّجت أنفاسها، وأوشك قلبها على الفرار من بين ضلوعها خوفًا وهلعًا.. صرخت عاليًا:

- إدجاااااااااار

بخطى سريعة قفز ناحيتها وصفعها بقوة:

- اصمتي أيتها العاهرة.

ساد بينهما لحظات من الصمت قطعها متنهدًا عائدًا لهدوئه السابق:

- أعتذر لكِ.. الصوت العالِي يُوتِّرني ما عدا موسيقى فاجنر.

ترجَّل ناحية الجرامافون ناظرًا للأسطوانة الموسيقية، ثم التفتَ إليها:

- الأسطوانة على وشك الانتهاء، وستنتهي تلك المعزوفة، هل ترغبين في إعادتها؟ الساعة ستدق الثانية عشرة.. لا بد أن تخلدي إلى النوم يا عزيزتي.

كان يذرع المكان أمامها ذهابًا وإيابًا بهدوء مستفز:

- رأيت بيانو في مدخل الشقة.. هل أنتِ من تعزفين عليه أم زوجك؟ حسنًا، أعرف أنكِ لا تودِّين الحديث معي؛ ولذلك سأرحل وأتركك؛ فأنا لا أحبُّ فرض صداقتي على أحد.

كانت تراقبه في صمت.. تمنت لو فكَّ قيودها لتنقضَّ عليه وتلتهم قلبه بأسنانها.. لم تدرك ما يفعله ذلك اللص المجذوب، وأين عائلتها؟ ولكن كل ما كانت تفكر فيه لحظتها هو انتهاء تلك المعزوفة والصراخ عاليًا لعل العون يأتيها من جيرانها.. اقترب منها هامسًا:

- والآن يا صديقتي سأرحل، ولكنني أريدك أن تخبري العالم كله بي.. ستنتهي المعزوفة خلال دقائق تضمن خروجي من الحي بأكمله، حينها ستتمكنين من الصراخ، وسيأتي مَن يفكُّ قيودك.. ليلة سعيدة يا عزيزتي.

هَمَّ بالرحيل ولكنه توقَّف، وعاد أدراجه هامسًا لها من جديد:

- نسيت شيئًا مهمًّا.. كنتِ تتساءلين وتنادين عائلتك!

..سأجعلك ترينهم حتى تصرخي صراخًا جيدًا أيتها اليهودية.. صراخًا نابعًا من القلب.

أمستعدة؟

دقات قلبها تتعالى رعبًا من ذلك المُخرِّف.. أمسك كرسيها وأداره للخلف بعد إضاءة مصابيح خلفية أنارت أغلب صالة تلك الشقة:

- الآن.. سهرة سعيدة.

يا لهول ما رأت.. اختفى الرجل خارجًا من المنزل بعدما ألقاها بدوامات من الألم البشع تعتصرها بقية عمرها.. جحظت عيناها.. كاد عقلها يهذي.

رؤوس زوجها ووالديه مفصولة عن أجسادهم ومثبتة بالحائط بمسامير غليظة في منتصف جبهة كل منهم.. الدماء المختلطة في كلّ مكان، وأجسادهم ملقاة على الأرض.. ودماؤهم تقطر من رؤوسهم المنحورة... بالقرب من المدفأة تشتد النيران المستعرة بكثير من الحطب الاستثنائي.. شيء ما معلَّق تلتهمه النيران.. كأن أحدهم يقبض على قلبها بقوة عارمة.. دققت النظر.. إنه إدجار طفلها الوحيد، وقد تم شيُّه بالكامل متفحماً.

- إدجاااااااااااااااااااااار.

صرخت بكل قُوَّتها مرات ومراتب بدون توقُّف حتى انتهت المعزوفة الموسيقية، وسمعت بأذنيها طرقًا على باب شقتها، وآخر ما لاحظته حينها وسط ذلك الدمار والدماء جملة كُتبت على الحائط بالدماء وغابت بعدها عن الوعي تمامًا.. ليتكرر ما رأته بحائط غرفة نيكول غيرد مرة أخرى في اليوم نفسه.. جملة من أربع كلمات من أسوأ ما يكون:

- هتلر عاد.. ليبدأ جحيمكم.



(٩)

مساء الحادي عشر من نيسان ١٩٤٨

جهاز الاستخبارات الإسرائيلية - تل أبيب

بدأت الجلسة المرتقبة بين السيد ألبرت هيرمان، واحد من أهمِّ أعضاء منظمة الهجرة غير الشرعية، إحدى مؤسسات الاستخبارات الإسرائيلية التابعة للهاجاناه، والسيد ناحوم رئيس الجهاز.. كُلف السيد ألبرت بجمع المعلومات عن تلك القضية المتعلقة بظهور هتلر من جديد..

كانت منظمة الهجرة غير الشرعية تمهيدًا لمؤسسة يشرعون في إعلانها عن قريب باسم الموساد الإسرائيلي، وهي في البداية كانت تهتم بشؤون المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وبعدها أصبح لهم دور استخباري مهم في تلك المرحلة الدقيقة.

ألبرت هيرمان ألماني الجنسية، يهوديّ وطنيّ حتى النخاع.. قضى سنين عمره التسع والخمسين خادمًا للقضية اليهودية، ومدافعًا عنها ضد الاضطهاد، وبخاصّة الآري منه بقيادة هتلر وحزبه.

لم يكن ألبرت رجلًا اعتياديًّا، فقد كان من أكثر الأثرياء تضحيةً بأمواله في سبيل إنقاذ اليهود من قبل قيام الحرب العالمية الثانية، على الرغم من قربه السابق لأدولف هتلر. فقد وُلد الاثنان في النمسا وترعرعا معًا، وجمعتهما الرغبة الفنية، فألبرت عشق الرسم كهتلر، وحاول الاثنان الالتحاق بأكاديمية الفنون، لكن النتيجة أعلنت فشل هتلر وقبول ألبرت.. صداقة بين قطبين متناقضين انتهت سريعًا.. وبدأت اهتمامات الصديق تتغيَّر، وابتعد كلٌّ منهما عن الآخر حتى حَلَّ الجفاء بينهما.

لم ينس ألبرت تلك الرسالة النصية التي تلقاها من أدولف هتلر فور وصوله إلى سُدة الحكم بألمانيا بعد انقطاع دام أعوامًا:

- بحكم ما سبق بيننا، فإنني أحذرك من البقاء في ألمانيا.. كن مهاجرًا خيرٌ لك من الموت على أرض ألمانيا.

كانت الإجراءات المعادية للسامية تتصاعد يومًا بعد يوم بشكل مقلق للغاية.. فخرج الأمر عن مجرد تصرفات فردية إلى اتجاه تدعمه حكومة هتلر النازية ومذهب يعتنقه رجاله المخلصون.

ولكن ألبرت لم يرحل، واتخذ ألمانيا جبهة قتال إنساني حاول بكل ما أوتي من قوة الدفاع عن اليهود المضطهدين، وانتقل إلى أرض فلسطين منضمًّا لمنظمة الهجرة غير الشرعية منذ تأسيسها عام ١٩٣٧، وأشرف بنفسه على هجرة الكثيرين من اليهود الألمان إلى فلسطين، ووقف مدافعًا عنهم ضد تعنت الفلسطينيين، وتلك القيود المعرقلة لهجرتهم من قبل البريطانيين،

وظَلَّ يتردَّد على ألمانيا بأسماء مستعارة، وبطاقات هوية مُزوَّرة، لمساعدة يهود ألمانيا عن قُرب.

اعتدل السيد ناحوم على كرسيه حينما بدأ ألبرت بعرض ما جمعه من معلومات مهمة.. أخرجَ مجموعة من الصور الفوتوغرافية مشيرًا إلى أوَّلها.. صورة للطبيبة ساندرا هون..

- ساندرا هون.. طبيبة ألمانية يهودية.. هُجرت وأخيها بيتر من معسكر أوشفيتز، بعد موت باقي أفراد عائلتهما هناك عن طريق رجل أعمال يهودي ساعدهم على الهرب إلى شمال أفريقيا.. تعرَّفت إلى زوجها إدوارد هناك، واشترطت عليه العودة إلى ألمانيا بعد إعلان انتحار هتلر، وكانت أول العائدين.. تسكن في بناية في شارع فردريشتراسه، وتعمل طبيبة نفسية في مستشفى والتر للطب النفسي.. تورط أخوها الصِّحافيّ بيتر هون في قتل مريضة لديها تُدعى نيكول غيرد، وانتحر بعدها، عُثر على زوجها ووالديه مقتولين بطريقة بشعة، وعلى طفلها، وقد تم شيُّه حيًّا.. كُتب على حائط بيتها: "هتلر عاد ليبدأ جحيمكم"، الجملة نفسها التي كُتبت على حائط القتيلة نيكول غيرد في مستشفى والتر.

ساندرا أذيع زفافها على التلفاز الألماني بعد رحيل هتلر، وألقت فيه كلمة تأثر بها الكثيرون وقتها:

"مات أبي وجدي هنا على الأرض نفسها.. ماتت أمي معهما، وفررتُ وأخي كالجرذان الملعونة الهاربة من حريق شَبَّ في ألمانيا كلها، واليوم.. عُدنا وعادت ألمانيا، ومَن فعل بنا ذلك قَتلَ نفسه بالسُّم والرصاص وأحرقوه كالجرذان".

أزاحت صورتها لتظهر صورة نيكول غيرد وبدأ بالحديث عنها..

- نيكول غيرد.. مريضة نفسية بالوسواس القهري.. منذ شهر تقريبًا كَتَبَ عنها الصِّحافيّ بيتر هون تقريرًا عن آثار حروب هتلر المدمرة بغير اليهود.. وتزعم ساندرا أن نيكول أخبرتها بأنها تعشق رجلًا ساعد هتلر على الهروب، واختلاق قصة الانتحار أمام العالم، وأنها كتبت ذلك ضمن مجموعة أوراق بخطِّها، وكذلك سلَّمت أخاها صورة لهتلر متنكرًا، ولكن قوات الشرطة لم تعثر على هذه الأوراق، ولا الصورة المزعومة.

ظهرت صورة ياسين الزيداني.. صورتي بيد ألبرت.

- ياسين قاسم الزيداني.. فلسطيني من قرية دير ياسين.. اشترك في كثير من العمليات الإرهابية ضد اليهود بصحبة عبد القادر الحسيني الإرهابي المقتول منذ عدة أيام.. ولم نستطع العثور عليه حتى الآن.. متزوج بفتاة ألمانية خرساء عُثر عليها في مدخل القرية منذ عام ونصف.. جاءنا بلاغ مُقدَّم من السيدة سارة شبير المقيمة بغزة، يفيد أن هذه الخرساء هي إيفا براون زوجة أدولف هتلر، التي من المفترض موتها بصحبته منذ ثلاثة أعوام بسُمِّ السيانيد ثم حُرقت جثّتاهما.. ولكن سارة شبير لها رأي آخر.. اعترفت أنها فوجئت بصديقتها إيفا براون بعد إعلان انتحارها بأسبوع تلجأ إليها، وتطلب منها مساعدتها بالاختباء، وبالفعل قامت عائلة شبير بذلك، ولكن حالتها النفسية ساءت كثيرًا، فنُقلت إلى مستشفى والدها شبير للطب النفسي تحت اسم مزيف، ومكثت فيها أسبوعين، ثم انتقل شبير وعائلته لغزة، وكانت معهم حتى قتلت الأخ الوحيد لسارة وهربت.. وبحثت قوات الانتداب

عنها في كل مكان في قرية دير ياسين قبل بدء العملية العسكرية "نحشون"، ولم يعثروا لها على أثر.

سادت لحظات من الصمت في تلك الغرفة قَطَعَها السيد ناحوم:

- هل تيقَّنت من هذه المعلومات؟

- لا يوجد دليل واحد على صِحتها إلا أقوال سارة شبير.

- هذه القضية تمثِّل خطرًا كبيرًا على الوجود الإسرائيلي.

- ندرك ذلك جيدًا، سيدي. وهناك معلومة أخيرة بأن مستشفى شبير تم بيعه، بعد الحرب مباشرة، للدكتور والتر، وتحول لمستشفى والتر للطب النفسي.

- أيعني ذلك أن ساندرا هون تعمل في المستشفى نفسه الذي عولجت فيه إيفا براون قبل هروبها إلى فلسطين، وفي المكان نفسه قُتلت نيكول غيرد، وأُعلن عن عودة هتلر؟

- مع الوضع في الاعتبار أن ساندرا هون تسلَّمت العمل هناك بعد بيع المستشفى ولم تقابل إيفا براون، إن صحَّت أقوالهم.

- لو ربطنا بعض الخيوط ببعض لظهرت كارثة كبرى.. جرائم تحدث بشكل متلاحِق في ألمانيا، والقاتل يدَّعي أن هتلر قد عاد.. وفي التوقيت نفسه يأتينا بلاغ بأَنَّ إيفا براون على قيد الحياة وأنها لم تنتحر كما أُشيع..أتعرف ماذا يعني ذلك؟

- أن هتلر أيضًا قد يكون على قيد الحياة!

تنهد السيد ناحوم بقلق لا مثيل له:

- كارثة لا مثيل لها.

- لا تتعجَّل سيدي..سيبقى الجميع تحت مراقبة دقيقة حتى نصل للحقيقة.

- ألم تعثروا على هذه السيدة، زوجة ياسين الزيداني؟

- لا أثر لها على الإطلاق.. تيقَّنا من ذلك قبل مهاجمة القرية..

- هناك احتمال عليك تتبُّعه.

- ما هو يا سيدي؟

- أن تكون تلك الجرائم العنيفة إشارة لإيفا براون.. إشارات يرسلها أدولف هتلر لها لتعود إلى مكان ما.. يُخبرها أنه مُستعد الآن للخروج.. أكبر الظن أن إيفا براون في ألمانيا الآن يا ألبرت..بالتحديد في برلين الغربية..

- هذا إن كان هذا هتلر من الأساس!

- كيف؟

- قد يكون شخصًا ما ينتقم له.. لاحظ أن كل المقتولين من اليهود.. وجميعهم مشتركون في شيء واحد.. كُره هتلر المُذاع علنًا، إما على صفحات جريدة أو لقاء تلفزيوني.

- وإيفا براون؟

- تعلَّمت في الحياة ألَّا أُصدِّق الجميع.. على أي حال سأسافر لبرلين لأصبح قريبًا من موقع الحدث.. ورجالي هنا يتعقَّبون أثَرَ ياسين وزوجته.

- حسنًا يا ألبرت..أريدُك أن تبلغني بكل جديد أولًا بأول.

ألقى ألبرت سلامه لرئيس الجهاز وخرج.. استقلَّ سيارته الخاصة - الأحدث موديلًا في شركة مرسيدس بنز الألمانيّة - بصحبة مساعده "داغان"، وانطلقا في طريقهما إلى تلك الطائرة الخاصة التي ستقلهما إلى ألمانيا.

أخرج داغان علبة فاخرة من السجائر، وناول إحداها لألبرت، وأشعلها له.. نفث سيجارته ونظر لألبرت بابتسامةٍ لا تخلو من الإعجاب:

- للحق أنت قدوة لنا يا سيدي.

- لماذا؟

- لم أقابل شخصًا في هذا البلد له مثل بطولاتك.. يكفي وقوفك بجوار إخواننا من اليهود الألمان، ومساعدتهم على الفرار من نار النازية.

- لم أكن الوحيد.

- ولكنني لم أقابل غيرك.

نظر إليه ألبرت مبتسمًا:

- في زمن الحرب يكثُر الأبطال.. لذا قرِّر أن تسمو بروحك بعيدًا عن أية مصالح شخصية.

- أتعلَّم منك الكثير يا سيدي.

كان داغان عضوًا جديدًا في جهاز الاستخبارات الإسرائيلية.. يهوديًّا عربيًّا في الخامسة والثلاثين من عمره، دخل إلى فلسطين بصحبة والديه منذ خمس سنوات، وسرعان ما بزغ نجمه بعد انضمامه إلى منظمة الهجرة غير الشرعية، وبعد فترة تمت ترقيتُه ليعمل مع ألبرت شخصيًّا بصفته أفضل القادة في تلك المنظمة، والمرشَّح لرئاسة جهاز الموساد المُزْمَع إعلان تأسيسه عما قريب.

سأله داغان:

- هل لي بسؤال يا سيدي؟

- تفضَّل.

- هل حقًّا كنت قريبًا من أدولف هتلر؟

لم تكن المرة الأولى التي يُسأل فيها ألبرت ذلك السؤال، فالجميع يخبر قصته، وتلوكها ألسنتهم في جلسات النميمة.. ذلك اليهودي الذي كان صديقًا مقربًا لهتلر سيد الرايخ الثالث العتيد والعدو الأول للسامية، فاتح أوروبا الذي زجَّ العالم كله في أتون الحرب، وألبسه ثوب الحداد.. تنهَّد ألبرت ليبدأ حديثًا مشوقًا للغاية لمساعده الجديد الشاب داغان:

- أتعرف؟ على الرغم من كل جرائمه.. لم أتمكن من كُرهه حتى هذه اللحظة.. أدولف هتلر.. ذلك الشاب النحيل النمساوي المتمرِّد على والده صبيًّا رافضًا مستقبلًا وظيفيًّا كأبيه، متعلق بالرسم والفنون..كان يقضي أوقات فراغه في مكتبة والده يطالع كُتب التاريخ والمجلات المصورة..كنّا في طفولتنا

صديقين لا يفترقان.. جمعتنا أحلامٌ مشتركة واهتمامات واحدة.. شعرنا أننا لن نفترق أبدًا.. كنتُ الطفل الوحيد المتبقي من زواج مات فيه ثلاثة إخوة وكنت أنا آخرهم..وهتلر كذلك تُوفي أربعة من إخوته..ومع مرور الأيام أدركنا أننا مختاران من الله.. كان والدي ثريًّا للغاية بعكس والد هتلر، ولكن بُخله، وهجره لوالدتي كان يساوي بيننا في الفقر والعوز.. بعد وفاة والد هتلر حاولنا الالتحاق بمعهد الفنون، وتشاركنا غرفة واحدة في فيينا، وجاءت نتيجة القبول مخيبة لآماله، فقد تم قبول التحاقي ورسب مرتين.. ومع ذلك ظللنا صديقين حتى وأنا ألاحظ عليه ذلك التغيير المباغت.

- متى كان هذا التغيير؟

- ليس هذا هو السؤال الأمثل.. الأجدر بك أن تسأل: لماذا تغيَّر هتلر؟

- لماذا؟

- قصة حب فاشلة.

- ماذا؟

- أحبَّ هتلر ونحن في فيينّا فتاة تُدعى كلارا هوفمان.. يهودية نمساوية تبيع الزهور في محلّ والدها الصغير.. كان يتابعها من بعيدٍ مشدوهًا بجمالها الأخّاذ.. ويعود في المساء ليحكي لي عن تلك الحسناء صاحبة العينين الزرقاوين السالبتين لكل تفكيره.. ذات يوم شجَّعته على التقرُّب إليها.. ليتوِّج ذلك العشق بعلاقة تدوم أبدًا.. اشترى القرنفل في اليوم التالي، وأهداه لها، ولكنها رفضت هديته.. فارتبك وتصبَّب عرقُه في أعتى أيام الصيف

حرًّا.. اقترب منها بعينين يملؤهما الحبُّ، وأريج القرنفل المتعدد الألوان يُعطِّر الجو من حولها.. نطق بصوت مهزوز:

"اني أحبك.. أتريدين أن تكوني زوجتي؟"

طلبت منه أن يتحدث مع والدها.. كان هتلر في هذه الفترة يعمل في طلاء المنازل ليوفِّر قوت يومه، وكنتُ أُشارِكه في ذلك أحيانًا للغرض نفسه.. ولكنه كان أسعد إنسان في الكون بقربها.. قالت له ذات يوم:

"ثمة شيء يُضايقني، فأنت بروتستانتي وأنا يهودية" فقال لها: "لا قيمة لهذه العبارات، فالحب لا يعرف ديانات".

عامان من العشق المتبادَل والعمل الجاد ليوفر لها كل متطلباتها.. ولكن كان لوالدها رأي آخر.. تعمد مضايقته في كلّ مرة يراه فيها، إذ يعيّره بفقره.. وتحمَّله هتلر لأجلها حتى طلب منه إتمام الزواج، فرفضَ، وكانت المفاجأة أنها أخبرته حينها أنها لا تريد العيش في الفقر بقية حياتها، وأن والدها على حقٍّ.. في هذه الليلة تبدَّل هتلر.. قرَّر الرحيل عن فيينا إلى ميونيخ وتقديم طلب للمشاركة في الحرب العالمية الأولى.. رأيت الغضب في عينيه.. وهو يخبرني بتلك الجملة التي لم أنسَها طوال حياتي:

"يومًا ما سأعود لأنتقم من هذه اليهودية.. حينئذٍ لن تُجدي توسُّلاتها أبدًا". وكانت صدمته الثانية أنه غير لائق لأداء الخدمة العسكرية.. ولكن مع مشاركة ألمانيا في الحرب تقدَّم بالتماسٍ لملك بافاريا، وسُمح له بالتجنُّد في الجيش البافاري.. تباعَدْنا، وبقيت بيننا تلك الرسائل التي تربط ما تبقَّى

من صداقتنا.. تقابَلْنا بعد عامين بعد طول غياب في مدينة لينز بالنمسا في أحد مسارح الأوبرا حيث كنّا نستمع لموسيقى فاجنر.. القس الأعلى لدين الموسيقى على حدِّ تعبيره.. لم يكن هتلر في هذا اليوم صديقي الذي عهدتُه.. أصبح أشدَّ حدة وقسوة..رأيتُ ذلك في عينيه. حتى قراءاته تبدَّلت..أصبح الفيلسوف المُلهِم له نيتشه.. تأثر بكتابه "هكذا تكلم زرادشت"، أخبرني بعضًا منه يومئذ:

"فلتدخل اللعنة على من لا يتحملون فلسفتي.. أما الذين يُقدِّرونها، فقد كُتب عليهم أن يصبحوا سادة العالم".

..يدعو نيتشه للتخلص من الضعف البشري.. لا رحمة.. القوة هي الأساس.. الأقوياء فقط هم من لهم الحق في الهيمنة، ولا يحرمهم الضعفاء هذا الحق.. تلك كانت مبادئه التي اقتنع بها هتلر.. وانتهت الحرب بعد أن أنهيتُ أنا أيضًا التحاقي بالجيش البافاري بعد إنهاء دراستي، وانتقلتُ للعيش في برلين بعد وفاة والدي، وارثًا مالًا لا يُحصى.. أصبحتُ بين عشية وضحاها من أغنى الشباب.. طلبتُ من هتلر العودة لنعيش معًا، وأخبرته بعنواني الجديد في إحدى رسائلي، ولكنه رَفَضَ.. ابتعد، ولم أعد أعرف عنه شيئًا، وانقطعت رسائله.. وفي هذه الفترة تعرَّفتُ إلى الفتاة الوحيدة التي دقَّ لها قلبي.. فتاة تصغرني بعشرين عامًا في عمر الزهور، بنت خمسة عشر عامًا.. أتدري من؟

- مَن يا سيدي؟

- إيفا براون.

برقت عيناه.

- إيفا براون زوجة هتلر؟

- نعم.. كانت فتاة رائعة الجمال.. عيناها واسعتان مذهلتان، قد تقضي عمرك ناظرًا إليهما من دون ملل.. فتاة جرمانية، ذات شعر كستنائي فاتح اللون، تبدو كالشقراوات، طويلة القامة..

تنهد ألبرت كأنه يشتاق إليها بكل مشاعره.. نظر إلى الطريق أمامه مبتسمًا..

- شفتاها شطآن خمر، وكنت عاشقًا يتمنى الثمالة، عيناها بلاد غريبة تتوق للنفي فيهما مدى الحياة، بين أحضانها وطن تحارب من أجله طوفان الدنيا لعلك ترتمي يومًا على شطآن قلبها كناج وحيد قد أقسمَ على الغرق في أعماق عِشقها المستحيل.. كنت أُناجيها، والحُبُّ يقفز من عينيَّ:

"فتاتي، أرجوكِ لا تفرجي عن أسرى عينيك، فأنا أحدهم المسكين التائه بين سجون هواك".

- أنت عاشق عتيد يا سيدي.

- كنت.

- وهل بادلتك تلك المشاعر النبيلة؟

- تقرَّبت إليها وحاولت استمالة قلبها، ولكنها لم تتخذ مني سوى صديق مقرب تحكي له أحيانًا ما يضايقها، ورضيت بهذا الدور مؤقتًا.. كانت غريبة

الأطوار.. تضحك تارة، وتشرد فجأة من دون سابق إنذار.. فتاة تحبُّ رائحة البارود.. كنت ببيتهم أتناول القهوة مع جدِّها حينما صرع جرذًا صغيرًا برصاص مسدسه، فأرداه قتيلًا غارقًا بدمائه الملطخة لشعره الرمادي.. اشتمت الرائحة بسعادة: "إنني أحب تلك الرائحة".

ظهر هتلر مرة أخرى بعد فترة ليست بالقليلة..رجل سياسة من الطراز الأول في حزب العمال الاشتراكي الألماني.. ذاع صيته ثائرًا في وجه السلطة، مُنددًا بمعاهدة فرساي الناتجة عن خسارة ألمانيا للحرب.. أتدري ماذا حدث؟

- لا.

- أحبَّت إيفا هتلر.

اغرورقت عينا ألبرت بالدموع ليغتال ذلك الشيب المالئ رأسه.

- ويسألونني عن أوجاع الروح قلت أحببتُها بكل جوارحي، وعجزت عن البوح، فعشتُ باحثًا عنها في أحلامي كل ليلة، فلا حلم تحقَّق ولا كففتُ عنها.

- يا الله!

- مَن عَشِقها قلبي أحبَّت صديقي الوحيد. كنت على مبدأ هتلر الذي أخبرني إياه.. الحب لا يعرف الديانات.. فما الضرر في أن يعشق يهودي فتاة مسيحية؟

- وكيف عرفت؟

- هي من أخبرتني.. وطلبت مني أن أُقرِّبها منه.

- وهل فعلتَ ذلك؟

سالت الدموع من عينيه في هذه اللحظة، فتلجلجت الكلمات بحلق داغان:

- سيدي.. هل أقود السيارة بدلًا منك؟

- كلا.. لا تقلق، فقد اعتدتُ ذلك، فهي قصة مضى عليها أكثر من عشرين عامًا..

- وبعد؟

- ابتعدتُ.. عشتُ مع لوحاتي ورسوماتي، وقرَّرت النسيان، ولكن قلبي ظل متعلقًا بها.. أعرضتُ عن مقابلاتها أو الردِّ على اتصالاتها.. كنت أخاف النظر إلى عينيها العاشقتين لصديقي.. صرت مجذوبًا في مدن العشق المهجورة، أهرب منها كبحر من الظلمات يرتعد يومَ تنقلب أعماقه ببصيص من نور عينيها.

- وهتلر؟

- انقطع كل شيء بيني وبين هتلر.. وبدأ نجمه يبزغ في ألمانيا حتى أصبح مستشارها عام ١٩٣٣، وبدأت المضايقات لليهود تزداد يومًا بعد يوم..

حتى وصلتني رسالة منه.. بعد انقطاع قرابة العشر سنوات.. رسالة أتذكرها للآن:

"بحكم ما سبق بيننا فإنني أُحذِّرك من البقاء في ألمانيا.. كن مهاجرًا خيرٌ لك من الموت على أرض ألمانيا".

ازداد سخطي وإصراري على مقاومة النازية.. وحاربت طغيانه المتفشي بكل ما أوتيت من مال.. وغدوتُ متنكرًا في شوارع برلين أساعد هذا وأهرّب ذاك من جحيم النازيين، فاليهود أصبحوا عفنًا يتهافتون لإبادته عن بكرة أبيه.. وتكاثرت جراثيم الجنون في رأس هتلر ليتحول إلى مسخ لم أعرفه.. ولكنني لم أكلَّ يومًا عن تأدية الواجب الوطني الذي كان لزامًا على كل يهوديّ القيام به في هذه المرحلة التي انتهت بانتحاره، تاركةً وصمة عار على جبين ألمانيا.

- أعتقد أنك تتمنى أن تكون من نبحث عنها هي إيفا براون حقًّا؟

- العشق ظلمات، يوم الفراق يغرق فيها العاشق حتى يلتقى مَن يحب.. عندما جاءني ذلك البلاغ المقدم من سارة شبير شعرت كأن روحي قد رُدت إليَّ من جديد.. كم أتمنى أن تكون هي! ولكن ما الفائدة، فواجبنا الوطني المقدَّس يُحتِّم علينا القبض عليها وتقديمها للمحاكمة، فزوجة هتلر لا يمكن لها النجاة أبدًا، بالإضافة إلى جريمة القتل الخاصة بجبرائيل شبير..

- ولماذا لم تتزوج بعدها يا سيدي؟

- من يعشق مرة لا يخون.. صِدقًا حاولت، ولكن النتيجة كانت الفشل دائمًا.. رجل يبحث عن امرأة واحدة بين أحضان النساء.. يحاول أن ينساها

من دون فائدة.. كنتُ أبحث عن أخبارها رغماً عني وأتابعها راصدًا سعادتها بجوار هتلر.. أتعرف؟ كنت سعيدًا لذلك حتى وإن كان ذلك على حساب قلبٍ لم يكفّ عن حبها يومًا.

– فخور بك يا سيدي.

ربت ألبرت على قدمه مبتسماً ماسحًا تلك الدموع عن خديه، معلنًا وصولهما للمطار:

– ها قد وصلنا.

***

الطريق الغربي – القدس

آلام لا حصر لها تغتال جسدي.. كأن أحدهم ذبحني وقطع أطرافي بسكينه الصَّدئ.. فتحتُ عينيَّ مدركًا أنني ما زلتُ على قيد هذه الحياة المُصرَّة على إذلالي.. أيعرض الموت عني؟ أتغادر الرغبة نفس عزرائيل في كل مرة يتطلع فيها إلى وجهي؟

نظرتُ حولي.. جثث شاحبة تحيط بي مصابة بطلقات نارية، والدماء متجلطة على وجوههم وأجسادهم المهترئة.. إنهم أهل قريتي.. أكوام من الجثث..شاحنة ضخمة تنقلهم لمكان ما وأنا معهم.. لمحت جثث أخواتي الثلاث، ومددتُ يدي المرتعشة متحسسًا رؤوسهنَّ والدموع تنسال من عيني.. قهر لا مثيل له.. قبَّلت وجناتهنَّ الغارقة بسيل من الدموع هامسًا:

- اشتقت إليكنَّ.. يا أجمل من رأت عيناي.

جذبتُ جثة أختي الصغرى فادية ورأسها المتدلي.. احتضنتها بقوة:

- لم أستطع حمايتكن.. سامحنني.

يد ما تربت على كتفي.. التفتُّ إلى صاحبها منهارًا.. إنه صديقي فطين مسعود.

- فطين!

- ألم أقل لك لا تعُدْ إلى القرية؟

- أكنتَ تعرف ما سيحدث؟

- لا.. لا يمكن لأحد أن يتوقع تلك الجرائم الشنيعة.

- ماذا حدث؟ وكيف أنت هنا؟

- كنت على مقربة من القرية طوال فترة هجومهم.. فعلتُ المستحيل لأتمكن من الدخول إلى هناك بعد انتهاء احتفالاتهم باحتلال القرية.. وكانت الفرصة حينما صدر لهم قرار بالتخلص من الجثث بعيدًا عن القرية للبدء في إنشاء مستوطنة جفعات شاؤول على أنقاض قريتكم.. وبالرشوة تمكَّنت من الدخول للقرية متعهدًا للدفن.. فحتى عرباتهم ترفَّعت عن حمل جثث أهالي القرية.. بحثتُ عنك بين الجثث ولم أجدك.. فعرفت أنك ما زلتَ حيًّا بين العشرين المتبقين من تلك المجزرة.. وتمكنتُ من تهريبك وسط الجثث.. لم يكن الأمر صعبًا؛ فقد كنتَ فاقدًا للوعي كأنك فارقتَ الحياة

وسط انشغالهم.. ويبدو أنهم لم يكتشفوا شخصيتك.. وقد سمعتُ أحدَهم يُخبر آخر أنهم سيطلقون سراح الباقين حتى تُنشر تفاصيل تلك المذبحة بين الفلسطينيين عن طريقهم.. ليتحاكوا بما عايشوه من أهوالٍ تُجبر عموم المواطنين على الهجرة والرحيل.

- وهذه الشاحنة!

- شاحنة ستنقل الموتى ليدفنوا بمقبرة جماعية أُعدت لهم في الصحراء.

- جماعية!

كنت منهارًا لا تتوقف دموعي..احتضنتُ فادية أكثر فأكثر، بينما اقتربَ مني فطين ممسكًا بوجهي ناظرًا إلى عينيَّ:

- ياسين.. أعلم أن ما تمرُّ به فوق أي احتمال.. ولكن يا صديقي قد يكون نجاة هذه الأمة معلَّقًا برقبتك أنت.

- أنا؟

- نعم.. لقد أرسل الله لنا طوق نجاة، وعلينا التعلُّق به لآخر قطرة بدمائنا.

- أيُّ طوق للنجاة؟

اقترب مني أكثر وهمس في أذني:

- إن كانت زوجتك هي إيفا براون حقًّا فهذا يعني أن أدولف هتلر ما زال حيًّا.

- هتلر!

- نعم المنقذ الوحيد مما نحن فيه.

- ماذا تعني؟

- لقد رتبت لك طريقًا إلى ألمانيا.

- ولماذا ألمانيا؟

- ثمّة جرائم تُرتكب هناك ضد يهود، والقاتل يكتب على حوائطهم جملة: "هتلر عاد ليبدأ جحيمكم".

وهذا يؤكد ما توقعتُه.. هتلر حيٌّ لم يمت، ويستعد للخروج.

- وما علاقتي أنا بذلك؟

- إيفا براون.. من تحمل طفلًا لك في أحشائها.. عليك البحث عنها، وأثق تمامًا أنك حينما ستصل إليها ستقابل هتلر..حينئذ أخبره عما يدور هنا.. ليكون في أولوياته إنقاذ فلسطين من الصهاينة، وننتقم لأهالينا منهم.

كنت صامتًا أفكر في ما يقول.. والشاحنة في طريقها إلى تلك المقبرة الجماعية.. ضغط فطين على كتفي بقوة:

- لقد كُتب عليك قدرنا وبيدك أنت فقط إنقاذنا. لم يبق أمامنا سوى هذا الأمل، فقد فَقَدْنا الثقة بالجيوش العربية المرتعشة أن تُقدِّم العون لنا.

- وأنت؟

- سأنضم إلى المجاهدين رفاقك سرًّا.

- وخطيبتك سارة شبير؟

- صدِّقني.. هي تختلف عنهم كثيرًا.. لن أقوى على تَرْكِها، وربما هذا يصبُّ في مصلحتنا.. فقُربي من مجتمعهم قد ينفع يومًا ما.. بعد قليل ستقفز من هذه الشاحنة، وتختبئ خلف إحدى الصخور حتى تجد شاحنة نقل فواكه تقف في هذه النقطة بالتحديد.. ستجد أوراقًا معه باسم مزيف لك، وتصريحًا لمرورك الحدودَ عاملًا على هذه الشاحنة.. وسائق هذه الشاحنة صديق مقرب لي.. سيبقى بجوارك طوال مدة إقامتك في ألمانيا وسيساعدك.

- ولكن كيف أبحث عن إيفا براون؟ أنا لا أعرف عنها أي شيء؟

- سأوصلك إلى أوّل الخيط وعليك البحث وراءه.

- ما هو؟

- إيفا براون زوجتك كانت نزيلة في مستشفى شبير للطب النفسي الذي باعه صاحبُه قبل هجرته إلى فلسطين، وأصبح اسمه مستشفى والتر.. ستجدها في برلين الغربية.. إيفا كانت تُعالج هناك تحت اسم ريتا بورمان.

- ريتا يورمان!

- اسم مُزيَّف حتى لا يُكتشف أمرها.

- ولماذا تعتقد أن البداية من هناك؟

- لأن أول جريمة أُعلن فيها ظهور هتلر كانت من هناك في المستشفى نفسه.. وثاني جريمة كانت لطبيبة تعمل هناك، اسمها ساندرا هون.

- من أين لك بكل هذه المعلومات؟

- الجرائد لا حديث لها منذ البارحة إلا عن هذه الجرائم.. وأنت تعرف أن هتلر كان عاشقًا لبرلين، وخطَّط لجعلها عاصمة العالم إذا انتصر.. أكاد أقسم أنه في مكان ما هناك.. والآن.. اقفز يا صديقي.. تلك هي النقطة المتفق عليها.. هيَّا.

احتضنني، ودفعني بقوة لأنهض.. نظرتُ إليه وإلى جثث أخواتي مُودِّعًا، وقفزتُ من السيارة في ليل مظلم كداخلي، منتظرًا تلك البارقة التي تلوح في مكان بعيد عن وطني.. ألمانيا.. لعلني أجد الزعيم أدولف هتلر لتُكتب لنا النجاة على يد الغرباء بعد أن تقاعَسَ العرب عن الوقوف معنا.



(١٠)

ساحة جندار منماركت

شارع فردريشتراسه

يتساقط الجليد بشارع فردريشتراسه متراكمًا على الأرض، تلوكه الأرجل، وتدهس هشاشته في كل مكان، ولكنه لا يتوقف عن السقوط من جديد.. أجواء قارسة البرودة في أواخر فصل الشتاء، كأنه يقسم على البقاء، حتى يلقاه الربيع، فيتصارعان ككل عام.. بل إنه أحيانًا قد ينتصر عليه إلى آخر نيسان.

اكتظت ساحة جندار منماركت برُوادها على غير العادة في هذا اليوم الاستثنائي.. الاحتفال بعيد الفصح اليهودي.. وهو أحد الأعياد الرئيسية في اليهودية، ويُحتفل به لمدة سبعة أيام، بدءًا من الخامس عشر من نيسان، لإحياء ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر الفرعونية، كما هو مذكور في سفر الخروج.

وبين الكاتدرائية الألمانية والفرنسية على جانبي تلك الساحة يحتشد الناس من كل مكان.. تلك الأبنية التي يفوح منها عبق التاريخ، فيعود

تاريخ إنشاء كلتيهما إلى القرن الثامن عشر وفقًا لمخطوطات (يوهان آرنولد نرنيغ) - مهندس معماري ألماني عاصَرَ تلك الفترة - فقبل ذاك الوقت استوطن المهاجرون الفرنسيون في هذا الحي، ومعظمهم كان من الفرنسيين البروتستانت بعد حملة نابليون بونابرت.. وبُنيت الكنيستان تباعًا، وبُني بينهما بعد ذلك (كونسيرت هاوس) بيت الاحتفالات ذو الطراز الكلاسيكي.

جندار منماركت من أجمل ميادين ألمانيا، على الرغم من ذلك الدمار الذي لَحِقَ به ككل برلين في أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن يعمل الحلفاء على ترميمه سريعًا، فالمكان من أعرق الأماكن السياحية.

ما زالت أعمال الترميم تجري على قدم وساق في الميدان، فترى الأخشاب والعمال والعربات المحملة بمواد الترميم في كلّ مكان، يعملون ليل نهار للانتهاء من تلك الساحة وأبنيتها العريقة؛ لتعود كما كانت قبل الحرب.. ومع ذلك فُتحت الساحة للجمهور مع توصيات بمنعهم من دخول الكاتدرائيتين وبيت الحفلات.

تستمع إلى صوت الموسيقى السيمفونية تتردّد عالية بين جوانب ساحة جندار منماركت بدون توقف.. احتشد الناس في شكل دوائر متتالية حول شيء ما.. منصة خشبية عالية نُصبت حديثًا في منتصف الساحة.. فرقة موسيقية بزيِّها الرسمي في خلفية المنصة، منهمكون بالعزف من دون توقف.. لم يكن الحاضرون مجرد ألمان وحسب.. فبالنظر إلى وجوههم تكتشف أنهم من مختلَفِ الأطياف والجنسيات، فبينهم العرب والإنجليز والأمريكيون والزنوج وغيرهم من مختلَفِ البلدان والقارات.. وقفوا متفرجين على ذلك العرض

الفريد من نوعه.. انتهت الفرقة الموسيقية من مقطوعتها الأولى، وصفَّق لهم الجميع بحرارة شديدة.. دخل بعدها أحد الأشخاص معلنًا عن الفقرة التالية من هذا الحفل الممتع.. رجل بزي بهلوان، يُخفي وجهه وراء طلاء أحكم تغيير ملامحه، ممسكًا بميكروفون، صائحًا بصوت جهوري استعراضي، ترافَقَ مع صوت موسيقى أشبه بتلك التي نسمعها في عروض السيرك:

- والآن أيها السادة من كل مكان..أيها الباحثون عن المتعة والتشويق.. عرض الليلة وكل ليلة.. مع فاتنة الشعوب، وملهبة القلوب، وساحرة الدروب.. إيفا براوووووووووووون..

تعالت موسيقى السيرك معلنةً عن دخول إيفا براون مرتدية زيًّا ذهبيًّا يتلألأ مرصعًا بالياقوت والمرجان، يُخفي بطنها المنتفخ.. بُهت الجميع مصفقين لها لروعة طلَّتها.. تحركت إيفا على المنصة ذهابًا وإيابًا، خاطفة أبصارَهم وآسرة قلوبَهم، مستعرضة جمالها الأخاذ. واشتدَّ تصفيق الجمهور، وتسرَّبت كلماتُهم إلى أذنيها فزاد ذلك من ثقتها وشموخها.

- يا لروعتها!

- إنها تأخذ العقل.

- فاتنة.

- ملاك من السماء.

- أفديها بروحي.

توقَّفت إيفا بجوار الرجل البهلوان، وشرع هو في إكمال فقرته مشيرًا ناحيتها:

- ساحرة، أليس كذلك؟

صاح الجميع وهللوا:

- بلى.

- أمستعدون للعرض؟

- نعم.

- سيداتي آنساتي سادتي.. فلتُفتح العيون، وتُحملق، فعرضنا عجيب مشوق.. ثلاثة لا رابع لهم سيتصارعون هنا أمامكم..فائز واحد فقط.. من يبقى على قيد الحياة.. يفوز بإيفا براون.. سيدة من الذهب والياقوت والمرجان.. إيفا براون.. حلم الجميع.. واستعدوا جيدًا، فقد يكون أحدكم ها هنا يومًا ما في عرضنا.. يومئذ لا ينفع جار ولا سند.. من يردِها يستعد.. والآن فلتدخل القضبان.. وتُسعر النيران.. ليبدأ العرض في الحال.

موسيقى تشويقية تعزفها الفرقة خلفهما معلنة عن دخول مجموعة من الرجال والفتيات بشكل استعراضي يجرجرون قفصًا حديديًّا إلى منتصف المنصة.. مغطى ببعض الستائر حمراء اللون.. تعالت الموسيقى أكثر فأكثر، واختفى الرجال والفتيات، وكذلك الرجل البهلوان.. إيفا براون والقفص جنبًا إلى جنب.. لفَّت إيفا حوله مرتين قبل أن تنتزع تلك الستائر بحركة

استعراضية، فظهرت محتويات القفص وسط تهليلات الناس وصياحهم وتصفيقهم.

كان في داخله مفاجأة.. شهق الجميع بأصوات مشدوهة حينما رأوا مَن بداخله.. الزعيم النازي أدولف هتلر قاتل الملايين.. يرونه أمامهم رأي العين.. يفصلهم عنه تلك القضبان الحديدية.. صمت رهيب سيطر على ساحتهم.. التقت أعينهم بعينيه الغائرتين القاسيتين.. كان يرمقهم بقوة كأنه يقول لهم:

- أغبياء.

لم يكن هتلر بمفرده.. شارَكه محبسه الاستعراضي اثنان.. صديقة القديم ألبرت هيرمان والمجاهد الفلسطيني ياسين الزيداني.. نعم كنت ثالثهم في ذلك المنفى الجبري ممسكًا بكتاب بيدي محتضنًا إياه إلى صدري.. كان ذلك هو القرآن الكريم، بينما كان هتلر ممسكًا بصليب معقوف معلقًا برقبته، وألبرت هيرمان قد أمسك بين أصابعه كتيبًا من العهد القديم يحوي آيات من التوراة، ثلاثة من معتنقي الديانات السماوية الثلاثة، في مأزقٍ لا مثيل له.. وهكذا نحن البشر المؤمنين بالله نلوذ بكلماته درعًا أخيرًا حينما تشتد الأزمات.. بات كل شيء حولي أسطوريًّا، فلا أتذكر كيف أتيت إلى هنا.. وهذا الرجل المدعو ألبرت لم أقابله من قبل.. ولكنني سمعت هتلر يناديه قبل قليل، بينما كنت أحاول التحدث إليه مرارًا، من دون جدوى.

- سيدي أنا بحاجة إليك.. سيدي وطني يحتاج إليك.

لا حياة لمن تنادي.. لم أحصل منه على أية إجابة.. لم ينظر إلى عيني مطلقًا، وأسبل عينيه ناظرًا إلى أسفل، حتى أصابني اليأس.. كان منكسرًا، وهذا ما كان يغتال روحي، فمصير وطني معلق بيديه.. ولكن بعد إزالة تلك الستائر عن قفصنا الحديدي، تحوَّل هتلر من الضعف إلى القوة، التي طالما عهدتها فيه.. كان كالصقر ينتظر اللحظة المناسبة لينقضَّ على ضحاياه الجُدد..أمسك القضبان بحدة محاولًا كسرها، واقتربنا نُقلِّده فيما يفعل.. كأسود وقعت خطأ في شباك صياد ماهر.. نظر كل منا إلى أولئك المجتمعين هنا في هذه الساحة.. وذلك الصمت المخيم على رؤوسهم يُثير فضولنا.. شَرَعَ أحدهم في غناء النشيد الوطني الإسرائيلي على استحياء، ولكن سرعان ما شاركه آخرون حتى ضجَّت الساحة بغنائهم:

- ما دامت تكمن في القلب نفس يهودية

تتوق للأمام، نحو الشرق

أملنا لم يصنع بعد

حلم ألف عام على أرضنا

أرض صهيون وأورشليم القدس

ليرتعد من هو عدو لنا

ليخيم على سمائهم الذعر والرعب

حين نغرس رماحنا في صدورهم

ونرى دماءهم التي أريقت

ورؤوسهم المقطوعة..

ما دامت تكمن في القلب نفس يهودية

تتوق للأمام، نحو الشرق

أملنا لم يصنع بعد

حلم ألف عام على أرضنا

أرض صهيون وأورشليم القدس

خرجت حينها من داخل الكاتدرائيتين أصوات أجراس الكنيستين، وامتزجت معهما ترانيم مسيحية ردَّدها البعض الآخر من الحضور، كصقيع يسوعي يهبُّ على أناس تدثَّروا بأغطية من الصهيونية ليتصارعا في مزيج لا يُفصل، بينما لاذ من تبقى من ذلك الحشد بالصمت.. أمسكت حينها بقضبان ذلك القفص اللعين بكل قوة، وبدأت تلاوة شيء من القرآن بصوت جهوري يبارز أصواتهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

كررتها كثيرًا، وقلبي يرتجف من الوحدة.. لوهلة شعرت أن الإسلام يندثر، وأنا آخر المسلمين.. كشف عني حجاب المستقبل لأرى عُزلتنا وفُرقتنا وسط المسيحية واليهودية.. تذكرت حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

(بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء).

سالت دموعي وأنا أُبارز أصواتهم بمفردي، شاهرًا آخر سيوف الحق.. كتاب الله وتلاوته.. كررت الآيات مرارًا وتكرارًا، حتى شقّت ضجيجَهم

الممتزج أصواتٌ مترددة، سرعان ما تجمعت خلف صوتي، لتشكِّل جبهة بعثت الدفء في أفئدتنا، وسط صقيع موشك على اغتيالنا.. تعالت أصواتنا تارة، وانخفضت تارة في صراع لا يتوقف مع أجراس النصارى ونشيد الصهاينة الوطني.. ملحمة صوتيةً تُلخِّص عشرات القرون الماضية: اليهودية والمسيحية والإسلام.. تاريخ حافل من النزاع الظاهر والباطن بحثًا عن سلام لم يتحقق..كانت إيفا تنظر إلى الجميع محتفظة بابتسامتها.. التفتت ناحية الفِرقة الموسيقية، وأشارت إليهم كأنها المايسترو المسؤول عن شارة البدء.. بدأوا عزف سيمفونية جديدة.. لحن اعتلى أصواتنا، فصرنا كبُكْم مسلوبة حناجرنا.. كأنها والعدم سواء..صرخنا من دون جدوى، فطوفان لحنهم يجتاح ضجيجنا.. أمسكت إيفا ميكروفونها، وصاحت بصوت واضح كأنها الوحيدة المسموح لها باعتلاء آلاتهم الموسيقية:

– والآن موعدكم مع الفقرة الأخيرة.. مَن يخف من الدماء فليرحل.. من يَهَب العنف فليغمض عينيه.. مَن يرِد الفوز بي فليدفع الثمن.. أيها السادة.. حانت جولة جديدة من صراع البقاء..

اقتربتْ من قفصنا ناظرة إلى أعيننا الواحد تلو الآخر من خلف قضباننا:

– من يبق منكم على قيد الحياة سيفز بي.

صرختُ فيها:

– لِمَ تفعلين ذلك بي؟ لم أؤذِكِ يومًا يا إيفا.

اقتربت مني هامسة أمام قضباننا:

- أنا لستُ إيفا براون.

- مَن أنت إذًا؟

- أنا سلامكم المنشود. فليبدأ العرض في الحال.

قالتها مُهلِّلة.

أشارت إلى الفرقة فتعالت الموسيقى أكثر فأكثر.. أصبحت أكثر حدة وإيقاعًا.. هلَّل بعدها الناس عاليًا.. احتضنتُ القرآن الكريم، بينما نظر كل من ألبرت وهتلر ناحية بعضهما البعض بشرٍّ لا مثيل له.. انقلبا لوحشين ضاريين مفترسين ينهش كل منهما الآخر.. تشابكا بقوة وحاولتُ الابتعاد بكل ما أوتيتُ من صبر.. دماؤهما تتساقط وتمتزج حولي.. أصرخ عاليًا:

- فليكفِ.

أدركتُ أنني التالي، فمن سيغلب منهما سينقضُّ عليَّ، وسيتحتم القتال حينها دفاعًا عن حياة يصرون على اغتصابها.. وهذا ما حدث بوطني فلسطين.. أنا لستُ عاشقًا للدماء، ولكن كُتب عليّ قتالهم دفاعًا عن أهلٍ استباحوا إبادتهم، وغيرهم بدون رحمة.

كانا يزمجران كضبعين، والناس تصفق كأنه عرض مسرحي مبهر ومشوِّق لهم.. عادت الأصوات تتصارع مرة أخرى.. الترانيم والأجراس المسيحية مع النشيد الإسرائيلي، وبعض من الترتيل القرآني الجماعي.. بدأت إيفا بالتمايُل على تلك الموسيقى بشكل استعراضي راقص.. تعالت صرخاتي أكثر:

- فليكفِ.

وفجأة ثبت كل شيء.. تحوَّل الجميع إلى تماثيل من شمع.. سكنت الموسيقى والأجراس والترانيم والتراتيل القرآنية.. مددت يدي لتلك القضبان الحديدية مُخضَّبَة قدماي بدماء هتلر وألبرت.. تطلعت إلى كل الوجوه الصماء.. لوحة بشعة من الدنيا.. صراعات دموية لم أبْغِها يومًا.. لحظات من الصمت المطبق قطعها صوت واحد أعرفه جيدًا.. صوت فتاة أحلامي:

- ياسين!

كانت بين حشودهم الثابتة.. تتحرك بينهم، وعيناها تقطران دمعًا لا يتوقف رأفة بحالي.. ناديتها.

- يااااا.. أنا لا أعرف اسمك.. ثلاث سنوات ولم أسألك عنه.

صوت صافرة إنذار الحرب استمعت لها بغتة.. لمحت طائرات تُحلِّق فوق رؤوسنا، ولكنني لم أتمكن من رؤية شعارها.. تساقطت قذائف كثيفة ستحيلنا لأشلاء في لحظة واحدة.. صرخت بكل قوة ناظرًا إلى عينيها البعيدتين:

- النجددددددددددددددددة.

أظلمت الدنيا من حولي.. صوت ما يناديني:

- ياسين! ياسين!

أهناك شيء ما؟

فتحت عينيَّ لأجد كل شيء تغيَّر من حولي.. فقد كنتُ نائمًا في ذلك البيت المنزوي في أطراف برلين الغربية، بصحبة صديق فطين الذي أوصاه بملازمتي وتقديم العون لي في مهمّتي المستحيلة.. أدركت حينها أنه كان كابوسًا جديدًا أرتعد من أن يصبحَ حقيقة.. أكثر ما يرعبني حقًّا أن تفشل مهمتي قبل بدئها، ولذلك كنت حذرًا للغاية في تحركاتي نحو الزعيم النازي أدولف هتلر سائلًا الله التوفيق.. نظرت إلى صاحبي الجديد مربتًا على يده:

- لا شيء.. لا شيء.



(١١)

السادس عشر من نيسان

برلين الغربية

أيام من بركان عذاب لا يُضاهى، غرقت في نيرانه ساندرا هون، فُتح باب الجحيم على حياتها من جديد.. وكأنه كُتب عليها فراق كلّ من تحب.. بالأمس القريب كان والدها ووالدتها وجدها في معسكرات الموت بأوشفيتز، واليوم عائلتها الجديدة بأكملها، والسبب واحد.. أدولف هتلر، ذلك اللعين المُصرُّ على اغتيال كل ما قد يمنحها الحياة.

نارٌ من حميم تلتهم وجدانها، ودموع لا تتوقف منذ وقعت عيناها على رقابهم المنحورة المُعلَّقة على حائط بيتهم، وابنها الحبيب إدجار الذي تفحَّم فاتحًا ذراعيه كأنه كان ينتظر حضنها في لحظاته الأخيرة في هذه الدنيا.. يقتلها ذلك الشعور بكل لحظة.. ما الذي كان يدورُ في خَلَد طفلها ونيران المدفأة تلتهمه؟ أكانت نظرته الأخيرة للحياة رعبًا أم اشتياقًا؟

شوق لوالدته التي لن يراها مجددًا.. هل انتزع أحدهم قلبك وأنت واعٍ لما يفعل؟ دبَّ سكينه باحتراف وكَسَرَ ضلوعك.. أحكم قبضته عليه وزادَ منها بقوة.. ومع ذلك ما زال القلب ينبض دون توقُّف كأنه يصرخ بكل ما أُوتي من نبض، منتظرًا اللحظة التي يعود فيها إلى ذلك الصدر الحزين ليغلق عليه أبواب ضلوعه المتكسرة، ليبدأ عهدًا جديدًا من الانتقام.. هذا ما كانت تفكر فيه ساندرا في كلِّ لحظة تمر عليها.. الانتقام ممن فعل بها ذلك.. الانتقام من أدولف هتلر.

انتهت إجراءات التشريح، وسمحوا لها بدفن الجميع.. واجتمعت ساندرا على رأس مشهد الجنازة الجماعية مع أقران أخيها بيتر ومعارفهم، وكل من تأثَّر بتلك الجريمة البشعة من يهود برلين الغربية.. كانت جنازة مهيبة، ولكنها لم تشعر بوجود أحد.. كأنها بمفردها مع جثثهم.. في العام الماضي في اليوم نفسه كانوا يحتفلون معًا بعيد الفصح.. واليوم تُشيَّع جثثهم إلى مثواهم الأخير.. وتبقى هي وحيدة في عالم تملأُه الوحوش بلا رحمة.

خمسة نعوش يحملها رجال "الحفرا قاديشيا" الطائفة المكلّفة بحمل النعوش وقراءة التسابيح المقدسة من التوراة وترديدها في أثناء تشييع جثامينهم. هذه الطائفة مؤلّفة من خمسين رجلًا لكل نعش عشرة رجال، (قاديشيا)[1]. رجال يتوقفون كل أربعة أذرع كعادتهم في تلك المناسبات معتقدين أن هذا قد يبعد الأرواح النجسة والشريرة التي تريد أن تتعلَّق بالنعوش وساكنيها لتدخل معهم القبر.

---

(١) كلمة آرامية تعني الصلاة المقدسة، وهي صلاة تسابيح مكتوبة باللغة الآرامية، ترددها الطائفة في أثناء تشييع الجنازة

أحاطت بالمقابر سَرِيَّةٌ من قوات الجيش البريطاني الذي أعلن حالة التأهُّب القصوى بعد جريمة بيت ساندرا هون.. وَضَعَ الجميعُ في الغرف السياسية المغلقة احتمالات قوية لصحة أقوال بيتر هون قبل انتحاره بأن هتلر ما زال حيًّا.. ربطت الصحف ذلك البلاغ المقدم من سارة شبير بشأن إيفا براون وتلك الجرائم، وخرجوا بنتيجة واحدة.. الحلفاء في خطر، بخاصّةٍ بريطانيا التي أوكل إليها نشر قواتها في شوارع برلين الغربية، بحثًا عن أدولف هتلر، واستعدادًا لضربة قوية قد يفاجئهم بها في أية لحظة، ولم تخلُ ألمانيا كلها من حالة الطوارئ تلك.. اجتماعات مطوَّلة، وخطط حرب استعد فيها الحلفاء لمواجهة ذلك المجهول، فلا أحد يعلم بِمَ يعود هتلر، فربما يفاجئهم بجيش أقوى من الفيرماخت قد صنعه في الظل طوال الثلاث سنوات الماضية، وربما لديه حلفاء جدد يتدثَّر بقوتهم.. كل الاحتمالات واردة، وعليهم الاستعداد حذرين للغاية.

وقفت وحدة تصوير من التلفاز الألماني الرسمي لينقل مراسم تلك الجنازة حديث العالم بأكمله.. تنهدت تلك المذيعة اليهودية أمام كاميراتهم لتنهي ذلك الحدث الموجع بنص مقدس من سفر التثنية:

"والرَّبُّ سَائِرٌ أَمَامَكَ. هُوَ يَكُونُ مَعَكَ. لاَ يُهْمِلُكَ وَلاَ يَتْرُكُكَ. لاَ تَخَفْ وَلاَ تَرْتَعِبْ".

بدأوا بإنزال الجثث إلى مثواها الأخير.. لم تحتمل ساندرا ذلك المشهد كثيرًا.. خرجت تهرول بعيدًا عن المقابر.. خلعت نعليها، وانطلقت في شوارع برلين كالمجنونة.. كأنها تهرب من مصير محتوم ينتظرها.. تعدو

مبتعدة عن أحزانها، من شارع إلى آخر، بدون توقّف، ولا مفرّ.. تتساقط دموعها كالأنهار.. عشرة كيلومترات بين المقابر وبيتها لم تتوقف ولو لحظة، حتى وصلت إلى تلك البناية في شارع فردريشتراسه.. صعدت درجات سلم بيتها، وفتحت الباب ودخلت.. تتابعت أنفاسها عالية من دون توقُّف.. فتحت كل أبواب البيت وشبابيكه.. لم تستطع دخول البيت خلال الأيام الماضية لخضوعه لأعمال النيابة والتحقيقات والطِّبِّ الشرعي.. ولكنهم أخبروها بانتهائهم من التحقيق الليلة الماضية، فلم تجرؤ على العودة، وبقيت في بيت أخيها الصغير بيتر.

تلهث أنفاسها الخارجة من صدرها بآهات حزينة لا تملك إيقافها.. وقفت في منتصف صالة بيتها وضوء الشمس يغتال كل شيء حولها ما عدا ظلمتها الداخلية.. ستائر بيتها تتطاير بفعل الرياح ونسيم الظهر يتسرب إلى أنفها الأحمر من كثرة البكاء.. نظرت إلى المدفأة بحزن دفين متخلية ابنها العزيز إدجار في لحظاته الأخيرة معها، ودموعها لا تجف منهارةً.. رمقت ذلك الحائط إلى جوار المدفأة بخوف، كأنها ترى الدماء تقطر من رؤوسهم المعلّقة عليه.. هُرعت ناحية الجرامافون، وأخرجت أسطوانة لفاجنر وشغَّلتها.. خرج صوت الموسيقى عاليًا لتبدأ هي رقصة كالمذبوحة.. أخذت تتمايل وتتمايل بدون توقف على أنغام الموسيقى، كأنها تريد التحرُّر من تلك المآسي التي تلاحقها كلَّ لحظة من حياتها، من دون أمل في النجاة.. يداها تضربان الهواء كأنها تصارع من أجل البقاء، عازفة على أوتار القدر التي ودت ولو تقطعها يومًا ما.

توقفت ساندرا أمام مرآتها ناظرة إلى نفسها لاهثة والدموع تغطي وجهها.. رفعت يدها وضربت بها بقوّة زجاج مرآتها، فهشّمته، وجرحت يدها فانسابت الدماء منها.. نظرت إلى وجهها في زجاج مرآتها المهشَّم.. شخص ما يقف خلفها.. كنتُ أنا ياسين الزيداني وراءها في هذه اللحظة مُهشَّمًا كمرآتها.. رأتني فالتفت تنظر إليَّ من دون ان تنطق بكلمة واحدة.. تلاقت أعيننا للمرة الأولى.. فبرقت عيناي غير مصدق ما أرى.. أيختلط الحلم بالحقيقة؟ سألتها وآلاف الأفكار تنهش عقلي وتلتهم فؤادي المشتعل بأهوال لا مثيل لها:

- أنتِ الطبيبة ساندرا هون؟

فخرج صوتها مرتعشًا:

- مَن أنت؟

انتحرت الكلمات في حلقي.. وقفت مذهولًا فمن تقف أمامي.. تلك الطبيبة اليهودية التي اخترتها لتساعدني في رحلة البحث عن أدولف هتلر على الرغم من تاريخ لا حصر له من العداوة، ما هي سوى تلك التي غرقتُ بعشقها في أحلامي لثلاث سنوات مضت.. من خلقها عقلي ليلوذ إليها قلب أقسم على الزهد إلا بحضرة فتاة أحلامه التي لم يتخيل يومًا أن لها وجودًا بالحقيقة.. ليصفعه القدر اليوم صفعة جديدة بدون أدنى تفسير يقبله العقل.. ساندرا هون هي فتاة أحلامه الخيالية تقف أمامه ويراها رأي العين.

***

شَرَعَ داغان بشرب كأسه من النبيذ بعد الانتهاء من وجبة الغداء التي أعدَّها له ألبرت هيرمان في منزله القديم ببرلين.. أشاد داغان بتلك الرسومات المُعلَّقة على حوائطه تحفًا فنية بديعة الصنع، تخفي وراءها فنّانًا من الطراز الأول.. وقف أمام صورة لإيفا براون تتوسَّط حائطه.

- أهذه هي إيفا براون؟

نهضَ ألبرت بعد أن فرغ من طعامه وأدار الجرامافون بموسيقى فاجنر، وارتشف من كأس النبيذ الحمراء ناظرًا إلى تلك الصورة متنهدًا:

- نعم.. إنها هي.. فاتنتي.

- إنها جميلة حقًّا.. لديك كل الحق بالوقوع بشباك عشقها.

- ليس للجمال دخل بذلك العشق.

- إذًا لماذا عشقتَها؟

- الروح.. الروح يا عزيزي.. تلك التي تسلب حياتك وأنت في غفلة، ومهما تحاول استرجاعها فلن تقو بدونها.. للروح عبق إن تسلل لنفسك فلن تسلاه حتى الموت.

- ليتني أقابِل من تسلب قلبي مثلها.

- من الأفضل ألَّا تقابل من يفعل بك ذلك أبدًا.

مَدَّ يده ليمسح بعض ذرّات تراب تجمّعت فوق صورتها:

- أتعرف أن هذه الصورة حديثة؟

- كيف؟

- نعم لقد رحلت عن هذا البيت قبل الحرب العالمية الثانية، وأصابه الدمار كبرلين بأكملها في أثناء اجتياح الجيش الأحمر لها، ولكنني استطعت إعادة ترميمه من جديد، ورسمت في إحدى زياراتي القليلة، هذه اللوحة التي تراها هنا. فأنت تعرف أن عملنا في إسرائيل المستقبل شغل كل وقتنا في الفترة الأخيرة.

- لي سؤال يا سيدي؟

- تفضل.

- لماذا لم نذهب بأنفسنا إلى السيدة ساندرا هون ونُحقِّق معها، لربما تعرف شيئًا عن إيفا براون أوريتا بورمان.

- لم تكن ساندرا تعمل في المستشفى وقت علاجها السريع.. وكما رأيت عندما سُئلت زميلتها راشيل أقدم طبيبة في المستشفى والتي واكبت وجودها، قالت في التحقيقات إنها لا تعرف عنها شيئًا، فهي مجرد مريضة كغيرها ولا وجود لملف باسمها.. يبدو أنه سُرق عمدًا لإخفاء شخصيتها وقتها.

- ولكنني لا أفهم لماذا نراقب ساندرا هون؟

- عزيزي داغان.. عليك أن تتعلم أن التحقيق في مثل هذه القضايا لا يترك شيئًا للمصادفات.. ساندرا هون الأخت الوحيدة لبيتر هون المتهم بقتل نيكول غيرد، والعاملة في المستشفى نفسه، والمقتولة أسرتها بالكامل

على يد شخص يَدّعي بأنه هتلر.. وبذلك خرجت رسالة "هتلر ما زال حيًّا" منهما.. فلو صح حدسنا.. فستظهر إيفا براون في واحد من تلك الأماكن: المستشفى أو بيت ساندرا هون.. لتعلن استلامها إشارة هتلر.. ولذلك وَضْعُها تحت المراقبة أمر بديهي يا داغان.. ولكن نحن فقط مَن يراقبها، فلم يشغل الشرطة الألمانية أمرُ مراقبتها أو حتى القوات البريطانية.

- وذلك ما يميزنا يا عزيزي.

رنَّ حينها هاتف بيت ألبرت فأجابَ سريعًا.. استمع لشخص ما وأغلق الخط.. سأله داغان مجددًا:

- ما الأمر يا سيدي؟

- ظهر ياسين الزيداني في بيت ساندرا هون منذ قليل.

- أنهاجمه سيدي ونلقي القبض عليه؟

- أبق رجالك بعيدًا يا داغان، ولا تقترب منهما.. يبدو أننا لسنا وحدنا من يتتبع إيفا براون.

***

رمقتني ساندرا هون متعجبة بعد طلبي منها مساعَدتي في ما أريد.. كنت متنكرًا بهيئة حاخام يهوديٍّ وزيِّه، وذقن طويل غير مهذَّب، لأتمكن من التنقل بحرية في شوارع برلين الغربية، الواقعة تحت سيطرة بريطانيا

المنتشرة دباباتها في كلِّ أرجاء المدينة. وساعدني على ذلك الأوراق المزوّرة التي جهّزها لي صديق فطين متعهد الفاكهة.. ولكنني كشفت عن شخصيتي أمام ساندرا هون، محاولًا الفرار من عينيها الساحرتين، لأخطو بقلبي على أرض الواقع القاسية أيّامه، مبتعدًا ولو عنوة عن مشاعر تملأ نفسي الجريحة التي تودُّ الارتماء في أحضانها والبكاء من دون توقف.. أحكمت السيطرة على نفسي بصعوبة، وأخبرتها بإيجاز خطتي.. جففت دموعها واقتربت مني بعينين حادتين تخفيان خلفهما فتاةً غرقت لسنوات بعشقها الغيابي.

- هل تعيد ما قلت مرة أخرى على مسامعي؟

- ما طلبته منك واضح وضوح الشمس أيتها الطبيبة.

ضجت شقتها بضحكاتها الهستيرية.. أخذت تغالب نوبتها الضاحكة بصعوبةٍ بكلماتها وهي تتجه لحقيبة صغيرة كانت بحوزتها.

- مجاهد فلسطيني يطلب مساعدتي للعثور على أدولف هتلر لينقذ فلسطين من اليهود.. أهذا ما قلت؟

- نعم.

أخرجتْ سلاحًا ناريًّا وأشهرته في وجهي مقتربة مني:

- أتعرف؟ لقد اشتريتُ هذا السلاح الناري منذ يومين.. وأقسمتُ على إفراغ خزنته بقلب أدولف هتلر، ولكن يبدو أنني سأحنث بقسمي قليلًا، فهناك شخص آخر سينال تلك الطلقات قبله.

ابتسمتُ دون تأثُّر بكلماتها وتهديداتها، واغرورقت عيناي بالدموع:

- أتعتقدين أن شخصًا مثلي شاهَدَ أخواته البنات يُذبحن أمام عينيه، ويُغتصبن وتُشق بطونهن حياتٍ، ويذبح جنين إحداهن، أن يخاف من سلاح كهذا الذي تحملين؟

ارتعشت يدها في وجهي متذكرة تلك المشاهد القاسية لرؤوس أفراد عائلتها المعلقة قبل أيام هنا، وجسد ابنها المتفحِّم.. اقتربت منها:

- أعرف أن لديك جرحًا يماثل جرحي..كلانا تمزَّق لفقدان أعزِّ ما يملك.

- كيف لي أن أثق بشخصٍ يستنجد بهتلر؟ يستنجد بقاتل عائلتي.

- قد تكونين على حقٍّ، ولكن القدر وضعنا في الخندق نفسه.. مصيرنا مُعلَّق بالعثور على أدولف هتلر.

- ولكنني أبحث عنه لأنتقم منه، وأنت على العكس تريده لينتقم منا.

- سيدتي أنا أُفرِّق جيدًا بين اليهود عامة والصهاينة المغتصبين لوطننا خاصة.. للحق خلطتُ بينكما لبعض الوقت، ولكن بعدما هدأتُ عُدتُ إلى مُعتقداتي التي تربيتُ عليها.. اليهود معتنقو ديانة سماوية.. لا صراع بيننا وبينهم، بينما من يقتلون إخواننا، ويذبحون أولادنا ويغتصبون وطننا أولئك هم أعداؤنا.

كانت تلك الكلمات من وراء قلبي.. كنت مضطرًّا إلى قول ذلك حتى أتمكَّن من إقناعها بمساعدتي.. ولو كان الأمر بيدي لأشعلتُ النيران بيدي في جسد كل اليهود في العالم، فما عايشته من أحداث لا يتحمله بشرٌ عاقلٍ، ولا بدَّ أن يصيبَه بالجنون.

أردفت ساندرا مترددة تُغالِب رغبتها في قتلي:

– لم أكن يومًا دموية، ولكن الدنيا لا تتسع لضعيف.

– أرجوك..فأنتِ ما تبقَّى لي من أمل لتحقيق هدفي.

– أكل المسلمين مثلك؟

– ماذا تعنين؟

– أيُعلِّق المسلمون آمالهم على مجرمٍ كهتلر؟

– لم نجد طريقًا آخر ليحمينا من جرائمكم.

– أترى؟ أنت تجمعنا في سلة واحدة.. أنت كاذب.

– فلنتفق على شيء واحد.. أنتِ تساعدينني في ما أريد وأنا بالمثل، وبعدما نصل إلى هتلر يتحمل كلانا نتيجة هدفه المنشود.

– بمعنى؟

– كلانا يريد هتلر لسببين متناقضين.. فلنصل إليه إذًا، وحينئذ يفعل كلٌّ منّا ما يريد.

خَفَضَت حينها سلاحها الناري إلى أسفل متسائلة:

- وكيف يمكننا ذلك؟

- هل يمكنك مساعدتي للعثور على عائلة إيفا براون؟

- كل شيء هنا تغيَّر بعد الحرب، وما أعرفه أن عائلتها هاجرت أيام الحرب الأخيرة، رافضين بقاءها بجوار هتلر، ولم يعد أحدُهم بعد ذلك.

- وبيتهم ببرلين؟

- حَلَّ محله فندق هنا في الشارع نفسه بالقرب من ساحة جراند منماركت.

- هل تعرفين شيئًا عن سيدة تُدعى ريتا بورمان؟

- ريتا بورمان! لقد سُئلت في تحقيق النيابة ذلك السؤال عن مريضة كانت في المستشفى.

- وبماذا أجبتِ؟

- لا، لم أصادف مريضة بهذا الاسم.. ولم يعثروا هم على ملفِّ علاجها بين ملفات المرضى.

- ريتا بورمان هي إيفا براون.. كلتاهما الشخص نفسه.

برقت عيناها محاولة فَهْم الأحداث، ولكنني ساعدتُها على ذلك.

- دعيني أرتِّب معكِ بعض أحداث القصة، كما جاءت في التحقيقات المنشورة في الجرائد.. مستشفى شبير للطب النفسي تم بيعه للطبيب والتر،

وقبل بيعه نجح شخص ما في تهريب هتلر وزوجته إيفا براون، واختلاق قصة انتحارهما، واختفى هتلر، ولجأت إيفا لعائلة شبير، وساءت حالتها النفسية، فعولجت في المستشفى تحت اسم ريتا بورمان، ثم هاجرت معهم إلى غزة بفلسطين، ولسبب ما قتلت الابن الوحيد لعائلة شبير، وهربت لدير ياسين وتزوجتُها أنا.. وبعد عام ونصف يُفشى سر حياة هتلر، وتهرب هي من القرية، وتجري هنا جرائم بشعة تعلن وجود هتلر بالفعل، وجميعها معُلَّقة بهذا المستشفى أو العاملين فيه مثلك.

- ماذا تريد إخباري من تلك القصة؟

- أدولف هتلر هنا في برلين الغربية.

- ماذا؟

- أعتقد أنه يرسل لإيفا براون رسالة ما.. وعلينا فكُّ شيفراتِها.. وأنتِ من ستساعدينني على ذلك.. أشعر أن بداية الخيط يكمن في مستشفى والتر للطب النفسي.. أريد مقابلة كل من يُحتمل أن يكون قابَلَها في تلك الفترة التي عولجت فيها هناك قبل بيع المستشفى.

شردت ساندرا قليلًا ثم تذكرت شيئًا ما.. فأردفت:

- راشيل.. الطبيبة راشيل.



(١٢)

محطة قطار برلين الغربية

السابع عشر من نيسان

- العشق يُذهِب العقل، وتبقى الروح جامحة، نار تتأجج كل لحظة، فلا هي تخبو ولا أنا أَسلوها.

أمضيتُ ليلة على فراشٍ من لهيب.. صراعٌ يُمزِّقني.. بداخلي شخصان أحدهما يرغب في قتل ساندرا هون وذبحها انتقامًا من كل اليهود، والآخر يتمنى الركض إلى أحضانها المستحيلة.

عيناها ملاذٌ لمشاعر حُبست خلف قضبان قلبي لعقود.. لفتاتُها شمسٌ بنهارٍ تُصارعه غيوم تُلازمني.. صوتُها طَوْقُ نجاةٍ لأسيرٍ في بحر أمواجه غدر وأعماقه وحدة، وروحه ظمأى إلى لمسة من يديها.. نفسي تحاكم روحي بقسوة صارخة:

- عار عليك تلك المشاعر مع من تنتمي لقاتلي أخواتك.

كأن روحي تُسلب من بين جنبات نفسي.. تفرُّ من جحيم أَلِفَتْهُ عقودًا.. تهيم باحثة عن غفران محتمل.. تبعث من جديد بنظرة من عينيها الممتلئتين بالدموع، وما عيناها سوى وطن تحارب الدنيا لاحتلاله، وأخاف أن أكون ساكنها الجديد.. وفي قُربها رحيلٌ إلى بلاد لم تطأها إلا روحي بحثًا عن دفء محتمَل بأحلامٍ لازمتني أعوامًا، وكنت أظنُّها لن تتحقق.

تبًّا لهذا الزمن! وفي غفلة من الأحزان يُولد العشق من رحم الخراب ليعيش معتقلًا بسجون هواها، رافضًا البوح مغلقًا ألف باب وباب في قلبي، مشتاقًا للهيب أحضانها من دون جدوى..

بتُّ حائرًا بين نفس وروح تتنازعان على موعدٍ لا يتناسب أبدًا مع تلك الكارثة التي وضعت أوزارها في حياتي.. غفوتُ على تلك الأريكة في بيت ساندرا هون، مستعدًّا لرحلة لا يعلم نتائجها إلا الله.. لم تنم ساندرا طوال تلك الساعات، منتظرة قطارَ الصباح المتجه إلى ولاية ساكسونيا الواقعة في شرق ألمانيا على الحدود مع بولندا، بعد زيارة سريعة إلى مستشفى والتر للطب النفسي بحثًا عن الطبيبة راشيل، وتفاجأت أنها تغيَّبت عن العمل منذ أربعة أيام بعد خضوعها للتحقيق في قضية مقتل نيكول غيرد.. توقَّعت ساندرا سفرها إلى بيت العائلة في ولاية ساكسونيا، الذي يبعد ثلاث ساعات عن برلين الغربية.

جلستُ وساندرا فجر السابع عشر من نيسان على محطة القطار بعد أن تيقنت من أوراقي المزوَّرة لشخصية حاخام يهودي، فمن المؤكد مرورنا بنقاط

تفتيش عديدة خلال تلك الرحلة، بالأخص من تلك القوات البريطانية المنتشرة في شوارع برلين الغربية.. خيم الصمت بيننا في تلك المحطة الفارغة إلا منا.. كنتُ أستمع لأنفاسها متابعًا صدرها المضطرب وعينيها الزائغتين.. أشفقتُ عليها لحظةً ثم نَقِمْتُ عليها في اللحظة التالية، ثم غرقتُ في سُهد عينيها، ثم صفعتُ تلك الأفكار بداخلي.. بهذه الطريقة ستفشل مهمتي.. عليّ أن أتحكَّم بروحي إلى أقصى درجة ممكنة.. نظرتُ إلى قضبان تلك المحطة متنهدًا، وضوء الصباح يشقُّ طريقًا بين ظلمات ليلٍ يمضي..تذكرتُ آخر مرة اصطحبتُ فيها عائلتي الجميلة منذ عامين تقريبًا في رحلة اعتيادية إلى مدينة يافا.. فقد اعتاد والدي الذهاب إلى هناك كل عيد بعد انقضاء شهر رمضان مباشرةً بصحبتي وأخواتي قبل أن أتزوج أنا وأختي الكبرى.. تلك المدينة الساحلية على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، والتي تبعد عن القدس ٥٥ كيلومترًا غربًا.. وفي كل مرة كنا نزور فيها نهر العوجا قبل أن تحول مياه الصرف الصحي من المستعمرات إلى مجراه، فأصبح بعدها غير صالح للشرب أو السباحة.. يافا عاصمة فلسطين الثقافية، أهم الصحف اليومية، عشرات المجلات ودور النشر ودور السينما والمسارح والأندية الثقافية.. كنا نستمتع بوقتنا هناك إلى أقصى درجة.. وفي هذه المرة الأخيرة بعد وصولنا بالقطار إلى يافا وزيارتنا المعتادة إلى الأماكن نفسها التي اشتقنا إليها..جلسنا لنتناول الغداء على شاطئ البحر بالقرب من الميناء.. سألتني أختي الصغيرة ذات الخمس سنوات حينئذ عن تاريخ هذه المدينة كعادتها،

فقد كانت كثيرة الأسئلة دائمًا.. ابتسم أبي ناظرًا ناحيتي، وطلب مني أن أُعدِّل سؤالها إلى:

- أخبرنا يا أخي عن تاريخ فلسطين.. أيمكنك ذلك؟

أدركَ والدي عشقي للتاريخ.. وللحق لم أكلَّ يومًا من إيصال تاريخنا الحقيقي لكل النشء الجديد، خوفًا من محاولات التزوير التي عاصرتُ بعضًا منها.. ابتسمتُ وأخواتي حولي يستمعن لي وأبي:

- فلسطين دولة موغلة في القِدم.. الأثريون وجدوا أدوات نحاسيةً وحجريةً بجوار أريحا وبئر السبع، ويعتبرونها من أقدم المدن على الإطلاق.. يرجع تاريخها إلى العصر الحجري، أي ما قبل أحد عشر ألف سنة.. وأول من وصل أرضها الكنعانيون أبناء سام، الابن الأكبر للنبي نوح، وعاشوا فيها أكثر من ألف عام حتى دخلها يوشع بن نون، ذلك الذي خرج ببني إسرائيل "اليهود" من التيه، وذهب بهم إلى أورشليم القدس.. دارت معركة شديدة بينهم وبين الكنعانيين، وانتصر فيها اليهود الغزاة، ولكنهم بعد فترة انقسموا على بعضهم البعض إلى قبائل متنازعة، دارت بينهم الحروب والنزاعات، حتى وحَّدهم داوود في مملكةٍ متَّحدة عاصمتها القدس، وخَلَفَهُ ابنُه سليمان، وظلَّت مملكتهم قويةً حتى وفاة سليمان، حينئذ انقسمت إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا، وفي عام ٧٢١ قبل الميلاد استولى الآشوريون على مملكة إسرائيل، ثم هُزمت مملكة يهودا، وذُبح أغلب أهلها، وهرب الباقون، وهُدم الهيكل الذي يعتقد اليهود أن سليمان قد بناه..ثم احتل الفرس بابل، فسمحوا لليهود بالعودة لفلسطين، وأصبحت يهوذا ولاية من ولايات الفرس.. ثم

هزم الإسكندر المقدوني الفرس، واحتلَّ فلسطين، وبعده تناوَبَ البطالمة على حُكمنا، وكان اليهود أقليةً في أرض كنعان.. ثم أحتلها الرومان، وخلال تلك الفترة وُلِد السيد المسيح، إلا أن اليهود وشوا به واتَّهموه بالكفر، ثم جاء الإمبراطور هادريان واضَّطهد اليهود، فخرجوا في ثورة كبيرة فذبحهم الرومان.. ذبحوا أكثر من ٥٨٠ ألف نسمة، وتشتَّت الأحياء منهم في بِقاع الأرض.. ذلك ما يُسمى بعصر الشتات.. ثم جاء عصر المسلمين، ومرورًا بالعصر الأموي والعباسي وصولًا إلى العثمانيّين كانت فلسطين عربيةً مسلمة .. عادت إلى سكّانها الأصليين الكنعانيين.. حتى هلَّت بشائر الهزيمة السوداء في الحرب العالمية الأولى، وسَقَطَتْ فلسطين بيد بريطانيا، ومن وقتها وهجرة اليهود على قدم وساق، كأنهم يعودون من جديد بعد عصر من الشتات رغمًا عنا.. ولذلك علينا أن ندافع عن أرضنا التي فيها وُلد أجدادنا الأوائل وماتوا.. هي تَرِكَتُنا التي سنتوارثها جيلًا بعد جيل.

- إذًا نحن كنعانيون يا أخي.

قالتها فادية بصوت طفولي بريء.

ابتسمتُ وأنا أتذكر تلك الوجوه التي ودَّعتها للأبد.. كم كنت أحبهم!

أما ساندرا هون تلك الشجرة اليهودية المُنتزَعة جذورها بكل قسوة، ما زالت تعاني فِقدان الحياة التدريجي، ولم تُجدِ مُحاولاتها العديدة لنسيان الماضي الأليم، فقد بات كل شيء حولها بلون الدم، يصبغ أيامها وأحلامها وعُمرها بأكمله.. تشعر بطعمه في حَلْقِها، وتشتمُّ رائحة جسد إدجار طفلها المتفحِّم..

تذكرتُ هذه اللقطات في المكان نفسه منذ سنوات مع عائلتها القديمة.. عندما كانت تلك المحطة ممتلئة باليهود البائسين، وقد تم نقل أغلبهم من معسكرات الجيتو التي ارتضوا بها على الرغم من الأهوال التي عايشوها خلال سنوات الحرب الأولى في تلك المعسكرات.. وقد انقلب بعضهم إلى شحاذين وفقراء رغماً عنهم، فقد سَلَبَهم النازيون كل شيء.. لقد تداعت الأزمات من دون توقُّف على اليهود في ألمانيا تِباعًا.. ما زالتْ تتذكر البداية.. والدها ممسك بجريدة صباحية والهمُّ يملأ عينيه، ويقرأ فيها هذا القرار المصيري لهم:

- بموجب هذا القانون جميع اليهود في أنحاء ألمانيا سوف يرتدون شعارًا ظاهرًا عندما يخرجون من بيوتهم، فهذا أمر من السلطات سيصبح نافذ المفعول من أول (كسلو) عام ١٩٣٩، وسيعمل به اليهود الذين تجاوزوا الإثني عشر عامًا، وهذا الشعار سوف يتم ارتداؤه على الكُمِّ الأيمن، ومن لن يحترموا هذا الأمر سيتم معاقبتهم بقسوة.

أيُّ قمعٍ هذا يجبرهم على تنفيذ أوامر كهذه؟

ومرَّت أيامهم بين الاضطهاد تارة والذل تارة أخرى..ما زالت تلك المرة التي رافقت فيها والدها بأحد شوارع برلين، مرتدين تلك الشارة على كتفيهما تتردد في ذاكرتها.. حينما تعرض لهما جنديان ألمانيان أقرب إلى الحيوانات المفترسة سلوكًا، بلا رحمة.. تحرشا بها جسديًّا، وعندما اعترض والدها صفعاه وضرباه حتى امتلأ وجهه بالدماء، وغادرا من دون أدنى شعور بالذنب.

وجاءت الأوامر الجديدة بنقل اليهود إلى معسكرات الجيتو المغلقة.. لم تنسَ ساندرا وجوه النازحين معها وبكاء الأطفال الأبرياء.. أطفال يموتون كل يوم أمام عينيها، وهم يحاولون الفرار من تلك الفتحات الصغيرة التي صنعوها في جدران المعسكرات برصاص النازيين، وهم يتلقون العطف من أصدقائهم الألمانيين القُدامى، مَن لم يتدنسوا بجُرم النازية.

ذات مرة هَجَمَ بعض رجال الغيستابو، وهو أكثر أجهزة الأمن الألمانية النازية شُهرةً في حقبة هتلر، على عائلة تسكن في بناية تواجِه تلك التي كانت تقطن فيها عائلة ساندرا هون في معسكر تابع للجيتو.. قتلوهم جميعًا بمنتهى القسوة من دون سبب واضح.. ألقوا بمعيلهم المقعد، وهو في كرسيّه المتحرك من أعلى البناية ليسقط ميتًا في الحال، وأطلقوا الرصاص على الباقين منهم، وغادروا.. هكذا كانت حياتهم.. وتلك المرأة التي شاهدتها ساندرا تحمل طعامها المكون من حساء من العدس، يهاجمها شحاذ يهودي مسكين ليخطف منها طعامها فيقع على الأرض، فما كان منه إلا أن انحنى كالكلاب يلعق حساءها من الأرض، وهي تضربه باكيةً على طعام لا تناله إلا بمشقة عظمى.. ليالي مفعمة بالذل والهوان والحرمان تعذبت خلالها ساندرا..لم تشفع لها مهنتها السامية كونها طبيبة في مُقتَبل العمر.. حتى صدر قرار بترحيلهم إلى معسكرات أوشفيتز.. شُحنوا بقطار من المحطة نفسها التي تجلس فيها الآن، مُهدَّدةً بالمصير نفسه.. رائحة عرقهم وتكدُّسهم بعربات القطار تملأ أنفها.. نظرات الرعب والخوف المسيطرة عليهم حينئذ ما زالت تغتال أحلامها.

أيُّ قلب هذا الذي يمنع أناسًا من حقِّ العيش على أراضيهم؟ يحبسهم.. يُصادِر أموالهم.. يبيد أحلامهم.. يقتلهم.. يحرقهم.

تلك كانت الليلة الوحيدة التي قضتها في معسكرات الموت بأوشفيتز قبل أن يكتب لها الله النجاة على يد رجل الأعمال المسيحي الذي اكتشفت في ما بعد أنه يهودي متنكِّر لينقذ شباب اليهود من تلك المعسكرات، فقد حمل لواء الإنسانية في بلد مات فيه الضمير.

- إنهم يقتلونهم بالغاز السام، ثم يحرقون الجثث.

تلك كانت الجملة القاتلة التي ألقاها بيتر هون في وجه ساندرا في تلك الليلة الأخيرة في معسكر أوشفيتز.. انهمرت دموعها بدون توقُّف وقلبها يصرخ:

- أبي وأمي.. جدي!

باتت تبكي أهلها الذين رحلوا بعد رحلة عناء في غرف الغاز اللعينة، منتظرة الموت في أي لحظة.. لم تدرك أنها ستنجو من تلك المجزرة اللعينة.. لتعاني حياةً أخرى يدنسها المجرم الأول نفسه..أدولف هتلر.

ها قد وصل قِطارنا المنتظر لينطلق بنا في رحلة البحث عن هتلر.. جلسنا أمام بعضنا البعض وتحرَّك القطار مغادرًا محطة تزاحمت عليها الذكريات.. كانت عربة ممتلئة بالألمان واليهود جنبًا إلى جنب في هذه الساعة المبكرة من الصباح.. وجوههم شاحبة، يملؤهم الخوف معًا من تلك الأخبار المنتشرة عن عودة هتلر من جديد.. لم يكن كل الألمان يحبون هتلر، فقد جَرَّ عليهم

حروبًا وخرابًا، كانوا يتجنبونه، وطالما حاولوا التخلص منه بلا جدوى، فالزعيم النازي تعرض لخمس عشرة حادثة اغتيال نجا منها جميعًا.

ما زلنا صامتين لا يُحدِّثُ بعضنا بعضًا.. كلٌّ في عالمه الخاص، ولكنني كنت أختلسُ النظرات من حين لآخر إليها.. عيناها ليل يأبى الرحيل.. كأن روحي تترنَّح من سكرة الدم، وتقابلها هي بعالم من يقظة مباغتة لم أتوقعها يومًا.. باغتتني بسؤال يقطع ذلك الصمت:

- لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

تلعثمتُ باحثًا عن إجابة لسؤالها.. تنهدتُ:

- لا شيء.. كنت شاردًا بأخواتي.

تطلَّعت بعينيها للسماء من شباكنا والحزن يملأُهما :

- أنت الآن وحيدٌ مثلي.. أفهم ما تشعر به جيدًا.

- كم أتمنى أن أفْقِدَ الذاكرة!

- يا ليتنا نملك الاختيار!

- أتعلمين؟ كلانا يعاني الألم نفسه.. ومع ذلك نحن في خندقين متناقضين.

- في زمن هتلر كل شيء جائز.

- وهل كان هتلر سببًا لجرائمكم؟

سألتها بحدة شديدة.. رمقتني بانكسار:

- أنا لم أذهب لفلسطين من قبل.

- عذرًا.. أقصد جرائم الصهاينة منكم.

- هل كان الأمر سيئًا لهذا الحد؟

- أشنع من سكين تُمزِّق جسدك رويدًا رويدًا وأنتِ على قيد الحياة.. تُخرج قلبك منفيًّا خارج صدرك، فلا هي تُعلن موتك، ولا العذاب يتوقَّف.

شردت ساندرا بعيدًا، لأكثر من خمس سنوات، واغرورقت عيناها بالدموع:

- عرايا في مهب رياح الغدر.. ترى الرعب في عيونِنا..حشود لا حصر لها، يقتادوننا أسرابًا إلى غرفٍ مظلمة يفوح منها عَبَقُ الموت بجدارة.. تُطفأ الأنوار، ويتسرب إلينا غاز يسلب أرواحنا.. دقيقة واحدة كفيلة بإسقاطِ المئات من القتلى ممّن لا ذنب لهم غير أنهم يهود.. جثث يُمثَّل بها وتُحرق.. ومن نجا منا بجثته ليلحق بمقابر جماعية، يأتي من ينبش آخرته ليحرق جثامينا، في محاولة لإخفاء جرائم لن تُغتفر.. حتى لا يبقى منا ذكر.

سالت دموعها لتشارك دموعي المخنوقة في عينيّ.. مددتُ يدي مربتًا على يدها لألمسها لأول مرة.. كانت باردة للغاية كأنها تعاني سكرات الموت.. نظرت إليَّ للحظات ثم سحبتها مرتعبة.. باغتتني بسؤال آخر:

- لو أخبرتُك أن هتلر هو سبب ما حدث بقريتك فماذا تفعل به؟

- فرض محال.

- ألم تفكر ولو مرةً لماذا يفعل اليهود هكذا بفلسطين؟

- لماذا؟

- أزمتنا الحقيقية أننا لا نعرف التاريخ.

- أي تاريخ؟ الحقيقي أم المُزوَّر؟

- تاريخ قوم عُذبوا من دون ذنب.. هل تعرف زمن الحملات الصليبية؟

- نعم.

- كان اليهود مسالمين يحبون الخير للجميع.. ومع ذلك خرجت الإشاعات المُغرضة في كل مكان بأوروبا.. اليهود يذبحون الأطفال في عيد الفصح.. اليهود خونة.. اليهود يحرقون.. يقتلون.. يسرقون.. فيحق لنا قتلهم جميعًا.. حرقهم أحياء.. تعدَّدت المذابح في كلِّ مكان من دون ذنب أو غفران.. اضطهاد لا مثيل له، ولم يعد لليهود خيار سوى أن يدخلوا في المسيحيّة أو يموتوا.. وفي الحرب العالمية الأولى كنا أول المحاربين.. اثنا عشر ألفًا من اليهود قُتلوا فداء لذلك الوطن.. ومع ذلك نَسَبَ لنا هتلر سبب الهزيمة في الحرب، وأذاقنا كل ألوان العذاب.. تطهير عرقي بامتياز.. من حقِّنا أن نعيش بعد كل هذه المذابح بأمن وسلام.. لماذا تجدونه إثمًا لا يُغتفر أن يصبح لليهود وطن مثلكم ومثل الجميع؟

- إنه وطننا نحن.. مِلكنا ولن نسمح لأحد أن يسرقه منا.

- إنها أرض الله وليست ملكًا لأحد.

- أتعيشون على جثث شعوبنا؟

- أنتم مَن بدأتم.. ونحن ندافع فقط.. هل سمعتَ يومًا أننا كنا غزاة.. بالعكس اليهود في كلِّ مكان في العالم يعيشون بسلام.

- ألم يراودك يومًا سؤال بديهي: ماذا فعل اليهود حتى يقتلهم هتلر؟

- هتلر فعل ذلك بسبب فتاة يهودية كان يحبُّها في شبابه وهجرته لفقره.

ضجت عربة القطار بضحكاتي الهيستيرية.. حاولت التغلُّب عليها لأُكمل تلك المناظرة المستفزَّة.

- هذا ما تروجونه للآخر.

- هذه حقيقة.

- أيتها الطبيبة.. اليهود كانوا قلة من الشّعب الألماني بنسبة لا تزيد عن ٢٪، ومع ذلك كانوا مسيطرين على ٥٠٪ من الإعلام و٧٠٪ من القضاء، كانوا سببًا رئيسيًّا في انهيار الاقتصاد.. سببًا في الانحطاط الأخلاقي.. أول مسرح للشذوذ الجنسي صاحبه يهودي كان هنا في برلين في العشرينيات.. أول العروض الإباحية كانت على يد مؤلفين يهود.. زنى.. شذوذ.. كل أنواع الهوس الجنسي.. انهيار كلّ شيء في المجتمع.. رجس كان عليه التخلص منه من دون رحمة.

اقتربت مني بعينين حادتين وغضب مكبوت:

- أنت وغد!

- وأنتِ تبررين جرائم ضد الإنسانية.

- أنا لا أُبرِّر شيئًا.. أنا اخبرك عن الأسباب فقط.

- أدولف هتلر قتل واحتلَّ واعتبر الألمان فوق البشر، وأشاع الدمار.. نعم التلفاز يخبرنا بذلك.. ولكنه لم يذكر أن الإنجليز فعلوا أكثر من ذلك.. واليابانيون.. الجميع كانوا مجرمي حرب، ولكن هتلر وحده طفا على السطح.. أتدرين لماذا؟ لأن اليهود يريدون ذلك.. يبغون أن يظهروا للعالم أنهم ضحايا النازية، الباحثين عن وطن في أراضي فلسطين، وأهلها يمنعونهم.. ولذلك يدافعون عن حقِّهم في العيش.. وهم في الحقيقة يقتلون أهلنا، ويذبحون أطفالنا ونساءنا.. يقصفوننا بالطائرات والدبابات ويرتكبون المجازر.. ذلك هو التطهير العرقي.. ذلك هو الإجرام بعينه.

عاد الصمت من جديد سيدًا لرحلتنا.. تعرَّضنا للتفتيش أكثر من مرة، ومررنا بسلام.. يحمل اليهود أحقية للمرور بيسُر بين ولايات ألمانيا الواقعة تحت سيطرة الحلفاء.. اقترب القطار من مدينة درسدن عاصمة ولاية ساكسونيا.. تلك المدينة التي تدمرت ككل ألمانيا خلال الحرب، ولكن سرعان ما أُعيد ترميمها..كان السوفييت منتشرين بقواتهم المسلحة في الشوارع كما يفعل البريطانيون في برلين..توجَّهنا إلى قرية صغيرة تقع على نهر إلبه، وصل إليها القطار بعد محطتين..كنت متعجبًا للغاية من تلك

المسافة الطويلة للوصول إلى بيت الطبيبة راشيل، الذي يبعد ثلاث ساعات عن مكان عملها، ولكن ساندرا هون فسَّرت ذلك:

– راشيل لم تتحمل البقاء في هذه المدينة، فكل شيء هنا يُذكِّرها بالخراب والدمار.. فقد مات كلُّ أفراد عائلتها تحت أنقاض تلك المدينة.

– ولماذا عادت إلى ذلك البيت من جديد؟

– وصية والدها.. طلب منها ألَّا تترك قريتهم..ولكنها لم تتحمل.. فبحثت عن عمل بعيد، وبقيت تذهب إلى قريتها من حين إلى آخر، ولو ليلة واحدة كل شهرٍ.. ثم تباعَدَت زياراتها، فباتت تذهب في الأعياد فقط.

– هل كنتِ صديقة لها؟

– مجرد زميلة.. ولكن الجميع يعرف حكايتها.. هذه الفتاة التي تتمزق كل ليلة لفراقِ أهلها.. كلنا يعاني الألم نفسه.

– وهل تعتقدين أنها في ذلك البيت اليوم؟

– نحن في عيد الفصح.

– حسنًا.

وصلنا إلى باب بيتها..الأجواء هادئة ونسيم الظهر يهلُّ برائحة الورود والزروع المحيطة بذلك البيت المطل على نهر إلبه..خبطت ساندرا عدة خبطات ولا أحد يجيب.. لاحظنا أن الباب مفتوح.. نظرت إليها مرتابًا فطمأنتني:

– لا داعي للقلق، فهنا في الرّيف يتركون الأبواب مفتوحة على مصراعيها.

عادت تناديها مرات ومرات وما من مجيب:

- راشيل.. راشيل.

دفعت الباب بيدها وطلبت مني الدخول:

- فلندخل..ربما تكون في الخارج وعلى وشك العودة.. لقد زرتُها هنا مرة واحدة، وأعرف عادتهم.. ادخل.

خطونا داخل بيتها القروي بارتياب.. صورة عائلتها كبيرة معلقة على الحائط تحيط بها الورود المجففة على إطار ذهبي.. تحف فريدة متناثرة في بيتها البسيط.. تجوَّلت بعيني في أرجائه على استحياء.. ملابسها الداخلية مبعثرة بفوضى في كلّ مكان، وبقايا طعام على طاولة، وكأسان من النبيذ بجوار زجاجة لم يشرب منها الكثير.. عبق الفوضى تشتمُّه في كلِّ أرجائه، ومع ذلك تستشعر الوحدة بين جدرانه.. كانت إضاءته خافتة.. شيء ما يشعرني بأن ثمّة كارثة على وشك الحدوث..وصَدَقَ حدسي! فهناك جثة لسيدة في منتصف الثلاثينيات ممدَّدة في نهاية تلك الصالة، مضرَّجة بدمائها، مُعلنةً فصلًا جديدًا من الغموض في هذه القضية العجيبة.. برقت عينا ساندرا وهُرعت ناحيتها.

- راشيل! راشيل!

كنت متوقعًا ذلك.. وكأن هناك شخصًا ما يسبق خطواتنا ليمنع وصولنا لأدولف هتلر.. شخصًا يتوقع تحركاتنا.. لم أقتنع حتى اللحظة أن هتلر هو القاتل، ولم أدافع عنه أمام ساندرا، وللحق لا يهمني غير الوصول إليه.. ولكن هذه الأحداث المتلاحقة عجيبة.. عجز عقلي عن الاستيعاب.. وهل

تُقتل هذه الطبيبة الشابة لمجرد أنها كانت من أقدم أعضاء طاقم المستشفى؟ مَن قابلت إيفا براون؟ بالتأكيد كانت تملك معلومات قد تؤدّي للوصول إلى هتلر.. ولكن من يمنع ذلك؟ هتلر؟ أم شخص آخر يقطع كل الطرق للوصول إليه؟

وفي هذه اللحظة جاءتني الإجابة على ذلك السؤال.. مكتوب على الحائط خلفنا الجملةُ نفسها بدمائها:

- هتلر عاد ليبدأ جحيمكم.

أمسكت ساندرا يد راشيل باكية.. شيء ما تُطْبِقُ يدَها عليه.. أخرجته ساندرا.. ورقةٌ مكتوبٌ عليها غرفة ٧١ مستشفى بيلتز المهجور.. همست ساندرا:

- غرفة ٧١ مستشفى بيلتز المهجور!

أصوات أقدام تغتال السّكون في ذلك المكان.. هُرعتُ إلى الشّبّاك مختلسًا النظر بحذر.. همستُ بغضب مكبوت:

- اللعنة.. قوات من الشرطة الألمانية ستقتحم البيت الآن.

وقفنا في مكاننا مشدوهين، وقد شُلت أطرافنا.. لا مفر.. لحظات ويلقون القبض علينا بتهمة جديدة.. قَتْل الطبيبة راشيل مع سبق الإصرار والترصُّد.



(١٣)

السابع عشر من نيسان

جريمةُ قتلٍ جديدةٌ تكتشفها الشرطة الألمانية ببلاغ من مجهول..ذلك ما استمعنا إليه ونحن رابضان كالجرذان تحت أرضية بيت راشيل، وجسدانا ممدّدان في مكان أضيق من القبور.. سحبتني ساندرا من يدي وهي تصيح بي هامسة قبيل اقتحام القوات للبيت:

- المخبأ.

تذكرتْ ساندرا ذلك المخبأ الصغير أسفل بيت راشيل المهجور من أيام الحرب الماضية.. فبعض الألمان القرويين غير اليهود كانوا يخافون كثيرًا في آخر سنوات الحرب من هزيمة هتلر، ويرتعدون من اليوم الذي يصل فيه الحلفاء إلى بيوتهم، ولذلك حفروا ممرات صغيرة أسفل بيوتهم ليختبئوا فيها إذا حدث ذلك، ولسذاجتهم لم يدركوا أن الحلفاء لن يهاجموهم سيرًا على الأقدام، بل بقذائف ستتساقط عليهم كلعنات تودي بحياة أغلبهم.

كنا نائمين تحت أرضية البيت نستشعر أقدامهم المتحركة في كلّ مكان، وحديثهم عن تلك الجريمة الجديدة.. ساعات لم ننطق ببنت شفة محاولين كتم أنفاسنا بصعوبة بالغة.. كنا متلاصقين بجوار بعضنا البعض لتتوحَّد مخاوفنا من الاتهام بالقتل، وانتهاء الرحلة نحو أدولف هتلر من بدايتها.. شعرت بجسدها يرتعش بجانبي.. مددتُ يدي ممسكًا يدها بصعوبةٍ مُرَبِّتًا عليها لأطمئنها في ذلك الظلام الغارقين فيه.. ولكنها سحبتها مجددًا.. ساعات ونحن على الحال إيّاه..

انتهت النيابة من التحقيق، وتمت مُعاينة البيت وتفتيشه، ورَفْع البصمات، وكل الإجراءات اللازمة في جريمة كهذه.. وصل السيد ألبرت هيرمان مع مساعده داغان بعد خمس ساعات من إعلان مقتل الطبيبة راشيل وانتهاء النيابة من عملها.. كان مرهقًا للغاية وعصبيًّا.. دخل البيت، وجثا على ركبتيه ناظرًا إلى جثة راشيل.. رحَّب به أحد الضباط بعد وصوله:

- مرحبًا سيدي.

- هل عرفتم الجاني؟

- ليس بعد.

- وكيف عرفتم بالجريمة؟

- بلاغ من مجهول.

- بلاغ من مجهول! إلى متى أيها الضابط سيتلاعب بنا هذا المجهول؟

قالها بعصبية صارخًا في وجهه.. فعمَّ الصمتُ المكانَ، ونظر ناحيته كل الجنود المنتشرين في البيت.. أجابه الضابط بهدوء:

- لا عليك يا سيدي.. ستأخذ الأمور نِصابها وسنقبض على الفاعل في أقرب وقت.

اقترب منه ألبرت كاتمًا غيظه:

- عذرًا.. فقد طَفَحَ الكيل.. نريد جميعًا أن نعيش في سلام، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذًا فعلينا توفير ذلك للألمان.. ذلك هو دورنا.

- لديَّ تعليمات بالتعاون معك سيدي إلى أبعد الحدود.

- حسنًا.. أخبرني إذًا: هل عثرتم على أي شيء يدلُّ على القاتل؟

- نعم، سيدي.. عثرنا على هذا الملف مُخبأ بين أغراض القتيلة.

ناوله حينها ملفًّا مكتوبًا على غلافه "ريتا بورمان".. فتحه ألبرت ووقف بجواره داغان متابعًا.. برقت عيناه، حين رأى أولى أوراقِه كأنه وَجَدَ كنزًا:

- أحسنتَ أيها الضابط الهُمام.

قالها ألبرت مُغلقًا ذلك الملف، طاويًا إياه بين يده:

- أشكرك سيدي.

- وبعد؟

- لا شيء.. ستُنقل الجثة إلى المشرحة وسنغلق مسرح الجريمة.

- ليس كافيًا يا عزيزي.

- أوامرك.

- أريدُك أن تترك بعض رجالك هنا في القرية.. ربما يحاول القاتل العودة للعثور على هذا الملف.

ترجَّل حينها ناحية الشباك ناظرًا منه إلى ذلك الطريق الوحيد المؤدي إلى القرية عبر جسرٍ يمرُّ أعلى نهر إلبه.

- هذا الجسر هو طريق القرية الوحيد.

- نعم سيدي.

- حتى رواد محطة القطار في الضفّة الأخرى من النهر عليهم المرور على هذا الجسر.. أليس كذلك؟

- سنغلق الجسر سيدي ونفتش كُلَّ من يمرُّ.

- خطأ.. عليك مراقبة المارِّين من دون أن يلاحظوا ذلك.. علينا ترك المكان آمنًا لذلك القاتل، لربما يعود من جديد.

- أمرك سيدي.

كنتُ أسمعهما جيدًا من مكاني تحت أقدامهم.. تحرَّك الجنود، ورَحَلَ الجميع بعد نَقْل الجثة، وعاد كل شيء لهدوئه السابق.. همست لساندرا:

- ماذا سنفعل الآن؟

- سنخرج من هنا.

- ألم تسمعي بأنهم يحاصرون البيت؟

- هذا المخبأ يؤدي إلى حديقة البيت الخلفية.. فلتزحف معي.. هيَّا.

- انتظري.. إنهم في الخارج.

- لا تكن غبيًّا.. إنهم عند الجسر.. فلنبتعد عنه إذًا.

زحفنا إلى الأمام كجرذان تبحث عن النجاة من معاول ترغب في تمزيق رؤوسها.. مدَّت ساندرا يدها ودفعت غطاء أُسطوانيًّا في نهاية ذلك المخبأ الضيق، فانفتح عاليًا كأنه بالوعة صرف صحي.. خرجت ساندرا ومدَّت يدها لتساعدني على الخروج.. كنا في منتصف الليل تقريبًا والظلام حولنا يغتاله ضوء القمر المختبئ أحيانًا خلف الغيوم.. مصابيح متفرقة متباعدة تضيء الجسر في بداية القرية، وبعض المصابيح القليلة المنتشرة على بيوتها.. همستُ لساندرا:

- وبعد؟

اغرورقت عيناها بالدموع:

- يبدو أن راشيل كانت تملك من الأسرار ما يستدعي قتلها.. هي الوحيدة من طاقم المستشفى التي قابلت إيفا براون.. ربما تعرف مكانها الآن.

- غرفة ٧١ مستشفى بيلتز المهجور!

- نعم.. تلك الورقة الصغيرة بخط راشيل التي قبضت يدها عليها.. كأنها تدلنا على مكان إيفا براون.. قُتلت حتى لا نصل نحن إلى ذلك المكان..

- مَن قتلها؟

- أدولف هتلر.. قتل نيكول غيرد ليعلن للعالم أجمع عودته.. وقتل عائلتي بعدها ليؤكد ذلك؛ لأن انتحار بيتر أخي قد يُغلق الجدل الدائر حول ظهوره.. والآن يقتل راشيل طريقنا الوحيد إليه.

- لست مقتنعًا بما تقولين.

- لديَّ تفسير مقنع.. هتلر وإيفا براون كانا قد اتفقا على خطة بديلة إن تفرقا.. يرسل هو إليها إشارات تُعلن عودته، وتذهب هي حينها إلى مكان يعرفانه معًا.

- أتعنين أن راشيل قُتلت لأنها تعرف ذلك المكان؟

- نعم لو افترضنا أنها عرفت ذلك المكان بطريقة ما من إيفا في أثناء علاجها في المستشفى، وهذا أمرٌ وارد، فالمريض النفسي قد يُخبر طبيبه بأشياء قد ينساها في المستقبل.

- ولكن كيف عرف هتلر أنها على دراية بذلك المكان؟

- هذا ما سنعرفه حينما نذهب إلى هناك.. أخبرتني ساندرا أن ذلك المستشفى المهجور يقع على أطراف برلين الغربية، وقد تم تدميره في منتصف الحرب، وتهدمَّ أغلب أبنيتها، ولم تُجدد حتى هذه اللحظة لوقوعها في منطقة صحراوية لم تُرَمَّم بعد الحرب كباقي برلين.. فكَّرت كثيرًا في الطريقة التي سنفرُّ بها من تلك القوات الألمانية الرابضة في القرية، مغلِقة جسرَها، ولو

خاطرنا ومررنا عبره، فما سبب وجود طبيبة وحاخام يهودي مقيمين في برلين الغربية داخل هذه القرية البعيدة؟ بالطبع سنخضع للشكِّ وربما يقبضون علينا وينكشف أمرنا.. لم يكن هناك حلٌّ سوى عبور ذلك النهر تحت سِتر الليل.. اعترضت ساندرا في البداية:

- أنا لا أعرف السباحة.

- لا تخافي سأحملك على ظهري.. كل ما عليك فِعله هو التمسُّك بي جيدًا.

تسلَّلنا بحرص شديد إلى حافّة النهر وقفزنا.. كانت متوترة للغاية، ولكنني طمأنتها، وبدأت السباحة ناحية الضفة الأخرى.. تعلَّقت ساندرا بي كأنها تحتضنني من الخلف.. دقَّ قلبي عاليًا معلنًا فرحه بذلك الاحتضان الاستثنائي على الرغم من كذب مغزاه.. تبًّا لذلك القلب المُصرِّ على السير عكس اتجاه المنطق.. البرد قارس والمياه باردة للغاية.. سبحتُ بهدوء خوفًا من اكتشاف وجودنا.. وصلت بها إلى الضفة الأخرى بنجاح، ووقفنا عليها والمياه تتصبَّب من ملابسنا، وأنا ألهث مقطوع الأنفاس..

همست لها ناظرًا حولي:

- أترين تلك الشجرة كثيفة الأوراق هناك؟

- نعم.

- سننتظر أسفلها حتى مرور أول قطار عند الفجر.

نظرت ناحيتها.. المكان هادئ ويعمُّه السكون.. للحقِّ لم ندر أين يختبئ الجنود الألمان.. ربما على الجسر ذاته الذي يبعد كيلومترًا عنا الآَن.. ولكن أكثر ما يميز ذلك المكان أنه كثيف الزروع والأشجار، بخاصّة في تلك الضفة المواجهة للقرية.

تحرَّكنا نحو تلك الشجرة.. وقفنا أسفلها، وأنا أنظر إليها بحبٍّ لا أقوى على منعه.. كنا متقاربين تحت ضوء القمر والسماء التي تشهد على عشقي المستحيل.. صوت خرير مياه النهر يكتنفنا وسط ذلك السكون.. رمقتني متعجبة:

- لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

- لا شيء.. لا شيء.

- المكان هنا بارد للغاية.

- تشعرين بذلك لأن ملابسك مبتلة.

- وأنت كذلك.

- نعم.

خلعتُ ذلك الرداء الكثيف، ووضعتُ يدي على رأسي باحثًا عن تلك القبعة الصغيرة فلم أجدها..

- القبعة!

- يبدو أنك فقدتها في النّهر.

- حسنًا.

أكملتُ خلع ذلك القميص المبتل والبنطال،فأدارت ساندرا وجهها إلى الناحية الأخرى محرَجةً:

- ماذا تفعل؟

- سأصاب بالحمى إن بقيت هكذا.

أخرجتُ تلك الأوراق المزوَّرة من جيب البنطال، وفردتُها على الأرض واضعًا بعض الأحجار فوقها، بينما بقيت ساندرا تعطيني ظهرها صامتة.. نظرتُ ناحيتها:

- ألن تخلعي ملابسك؟

التفتتْ نحوي بحدَّة كأنها تصفعني بكلمتها:

- وقح.

فضحكتُ.

- المرأة هي المرأة في كلّ أنحاء العالم.. أنا أقصد أن تجف ملابسك حتى الصباح.. فلو ركبنا القطار بهيئتنا تلك فسيُقبض علينا عند أوّل نقطة تفتيش..

وقفت تفكِّر في ما أقول.. أشرتُ إليها:

- هيا أيتها الطبيبة الحسناء.. لا تخافي.. يمكننا الجلوس بعيدًا عن بعضنا البعض.. ويمكننا أيضًا ألَّا تتلاقى أنظارنا حتى الصباح.

- حسنًا فلتُدِرْ وجهك.

أشحتُ بوجهي بعيدًا عنها:

- عِدْني بأنك لن تنظر ناحيتي حتى الصباح..

- أهذا حديث لائق بين اثنين ماتت عائلتهما منذ أيام، ويبحثان عن هتلر في رحلةٍ يملؤها الدم؟

- عِدني أيها الفلسطيني.

- أعِدُك أيتها اليهودية.

جلستُ بملابسي الداخلية ناظرًا إلى ذلك القمر البعيد.. كم تمنيتُ أن أرحل عن هذه الدنيا وأعيش بصحبتها على هذا القمر البعيد.. تلك مَن سلبت روحي في عالم افتراضي بأحلام كنتُ أعتقد أنها مستحيلة، ولكنها تتحقَّق الآن.. أنا وهيَ في خندق واحد، يحمل كل منا خنجرًا للآخر، وينتظر اللحظة المناسبة ليدبَّه في قلب عدوِّه.. كلانا عدوٌّ، جمعتنا أرض من الأحلام كعشيقين تُفرِّقهما الأيام.. أدرك جيدًا أنها لن تقوى على الانتقام من هتلر.. مَن هذا الذي يستطيع التغلب على الزعيم النازي مُفزِع العالم كله؟ ولكنني لا أعلم مصيرها.. ربما ستموت ككل اليهود بعد عودته من جديد، وكل ما أستطيع فِعله حينئذ أن أتوسط لها لتبقى على قيد الحياة.. ربما أكون منقذها الوحيد.

تذكرت ذلك الحلم الذي جمعني بها منذ أكثر من عام في مكان يُشبه مكاننا هذا، وبجوارنا عازف كمان يبدع بألحانه ليشارك زقزقة العصافير

وخرير مياه النهر، كأنها الجنة بصحبتها.. قبَّلت يدها وأنا أغرق في ليل عينيها الساحرتين:

– قالوا لي: لقد صبأت عن هواها مهاجرًا.. قلت لهم أنا وإن كنت منفيًّا وغائبًا بجسدي فروحي تائهة ومعلَّقةٌ بين عينيها... حبيبتي أخبريهم.. هل يصبأ العشاق السكارى؟ وإن أكثروا من خمر عينيك ما ارتووا.. أحبُّك..

وغبتُ معها في قبلة اعتدناها، في أحلامي.

صرخت ساندرا عاليًا لتخرجني من جنة أحلامي الماضية.. فالتفتُّ إليها ناقضًا عهدي لها بالبعد حتى الصباح..هُرعت ناحيتها:

– لماذا تصرخين؟

– جرذ.. جرذ مَرَّ من هنا.

ضحكت كثيرًا بشكل هستيريّ، وشاركتني هي ضحكاتي من دون توقف.. مرَّت لحظات لم ندرك فيها أننا نقف عاريين أمام بعضنا البعض، لا يسترنا إلا ملابسنا الداخلية.. يا لله! كم هو بديع جسدها! ملاك بُعث للدنيا ليلهب مشاعر رجالها، ويقضون أعمارهم زحفًا خلف بريق روحها المتوهجة.. تلك الثنايا التي لم أرَ مثلها في حياتي تلهب أشواقي إليها.. وبياض كالثلج يضوي في تلك الليلة العجيبة.. هنا على ضفاف نهر إلبه عند الضفة المقابلة لبيت قتيلة في ألمانيا، مَهْد ظهور أدولف هتلر من جديد، يقف فلسطيني ويهودية عاريين، يجمعهما عشقٌ بغير موعد، يخرج من قلبي ويحاول مغازلة قلبها بتلك السهام المنطلقة من عيني.. ساد الصمت بيننا.. لم أستطع

منع روحي من الاقتراب منها.. خطوتُ ناحيتها رويدًا رويدًا وهي ثابتة لا تتحرك.. كنتُ أرى سهامي قد نفذت إلى قلبها وداعبته قاتلةً كل الكُره والبُعد بيننا.. لمحت بعض الدموع التي تحاول الفرار من عينيها.. ألقيتُ كل التاريخ المعلَّق برقبتي..محوتُ ذكرياتي في هذه اللحظة كأننا خُلقنا من جديد.. آدم وحواء في الجنّة بغتة.. كنت قريبًا منها للغاية، أنظر إلى عينيها من دون حراك.. لم تهرب عيناها ولم ترفضا قربي.. نظرت إلى شفتي بحبٍّ متبادَل..مددتُ يدي ولمست شفتيها.. حركتُ أصابعي على وجهها بحنان منقطع النظير.. كان عَبَقُ شعرها المبتل متدليًا على جسدها البض يحاصرني.. أنفاسها الحارة تهاجمني.. سقطت دموعي هي أيضًا لتفرَّ من جحيم فُرض علينا في دنيا لم نخترْها... التقمتُ شفتيها متخذًا القرار بالعِشق.. قرارًا بالسلام مهما تكن التضحيات.. لم أذق طعمًا للدنيا قبل هذه القبلة.. ذابت روحانا على أبواب شفاهنا.. امتزج لسانانا اللذان طالما تمنيا الموت للآخر بلهيب يحتضن قلبينا.

لم أكن وحدي أسير تلك اللحظة، فقد كانت هي أيضًا تُقبِّلني بحرارة شديدة، وتحتضنني بجسدها الناعم الرقيق.. تقبض يديها على جسدي خائفة من انتهاء تلك اللحظة.. سقطنا على الأرض ونحن لا نكفُّ عن تلك القبلة التي تمنيتُ لو ينتهي العمر عندها.. التحم جسدانا، وتقلبنا على تلك الزروع فوق بعضنا البعض، ووقعنا في النهر مرة أخرى.. غطسنا للأسفل متلاحمين.. طفا جسدانا للأعلى من دون أن نحاول ذلك.. ابتعدت شفاهنا ونظرنا بعيون يملأها العشق لبعضنا البعض، والتحمت روحانا من جديد.. لم نشعر بأنفسنا، وغِبنا في سَكْرة من الحب سُرقت من تلك المأساة حتى

الصباح.. التحمنا ببحر من النشوة، غَرِقنا فيه، وسلَّمنا جسدينا بين أمواجه المتلاطمة لتخترق بعضها البعض.

***

لعَيْنَيْكِ ما يَلقَى الفُؤادُ وَمَا لَقي

وللحُبّ ما لم يَبقَ منّي وما بَقي

وَما كنتُ ممّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قلبَه

وَلكِنّ مَن يُبصِرْ جفونَكِ يَعشَقِ

كانت بجواري في رحلة العودة..تميل برأسها فوق كتفي، وتمسك بيدي في عشق واضح للعيان..تعانقت روحانا، وتشابكت أياديناء وأضحى الحب قبلتنا الوحيدة بلا هدف.. تأمل قلوبنا أن تقضي ما تبقى من عمرنا سجودًا وتعبدًا لبعضها البعض.. فقط استسلمنا لمشاعر اجتاحت أنفسنا، فبقيت صامتة لا تقوى على الصراع والمقاومة ولو برهة من الزمن.. سألتها هامسًا:

- أليس عجيبًا أن تقع فتاة في حبِّ حاخام يهودي؟

ضحكت ضاغطة بيدها على يدي تعانقها.

- يبدو أن ذقنك قد سقط في الماء في الليلة الماضية.

سحبتُ يدي متحسسًا وجهي، وتفاجأت أنني قد فقدتُ تلك اللحية الزائفة بالفعل.. لم أشعر بذلك مطلقًا.

- قد سقط كل شيء في حضرتك.

سألتني بصوتها الملائكي:

- لمن هذه الأبيات التي كنت تُردِّدها؟

- للمتنبي.. أتعرفينه؟

- نعم.

- منذ أن رأيتُك وأنا أودُّ سؤالك.. متى تعلمتِ العربية بهذه الطلاقة؟

- لقد عشتُ في شمال أفريقيا قرابة الأربع سنوات، وكان لي صديقة عربية تعلَّمت منها الكثير.

تحرك القطار بعد نجاحنا في التسلل خُفية صباحًا.. ارتدينا ملابسنا المبتلة من جديد، آملين أن تجففها شمس ذلك اليوم.. كنا روحًا واحدة بجسدين.. نظرت إلى شفتيها واستنشقتُ عبير روحها متنهدًا.. ابتسمتْ لي، وطبعت قُبلة على خدي، ونظرت من شباكها هامسة:

- أنا أيضًا كنتُ أراكَ في أحلامي منذ ثلاث سنوات.. حلمٌ واحد لا يتغير.. يتكرر عبر ليالٍ ممتلئة بالعذاب.. كأن سوطًا من لهب يضرب أيامي الباردة.. كيف لامرأة متزوجة أن تحلم برجل غير زوجها؟ شعور سخيف لم أستطع منعه ولا ردع ذلك الحلم من التكرار.

- ما ذلك الحلم؟

- أراقصك فوق الخراب.

- كيف ذلك؟

- كنا في ساحة جندار منماركت بشارع فردريشتراسه ببرلين الغربية.. كل شيء حولنا قد تحوَّل إلى ركام وأنقاض..أدخنة تتصاعد من كل مكان وأتربة تعلن الدَّمار الشامل.. وعن بُعد أرى قوات العاصفة، أولئك الشباب الموالين لهتلر، يبحثون عن الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية ويسحلونهم في الشارع، ويشنقونهم بأسلاك حادة بعواميد الإنارة، ويضعون على جثثهم لافتة: خائن.. جثث معلقة، وجثث أخرى حولي في كلِّ مكان.. صوت صفّارة إنذار الحرب لا تتوقف.. وفجأة تظهر أنت.. رجل لا أعرفه ولم أقابله من قبل.. تنظر إليَّ وتقترب.. عيناك تبعث إشارات فيتسرّب الأمان إلى نفسي.. تمسك يدي وتُقبلها.. تهمس في أذني:

"لا تخافي أنا بجوارك".

..تحتوي ضعفي وهلعي.. تُقبلني من دون أدنى مقاومةٍ مني.. ومع قُبلتك يختفي صوت صفّارة إنذار الحرب، ويحل محله صوت أعشقه.. مقطوعة موسيقية لفاجنر.. وتُراقصني فوق الخراب.. حلم عجيب أليس كذلك؟

- الآن أُيقن أن روحينا تلاقتا قبلنا في عالم لن نُدركه أبدًا في حياتنا الدنيا.

- أي عالم؟

- عالم الله..

- عالم الله!

- نعم.. هناك أسطورة تقول إن كل البشر تقابلت أرواحهم في بدء الخليقة.. وهناك تآلفت وعَشِقَت بعضها البعض.

- لطالما كنتُ أمنع نفسي من التفكير فيك.. في ذلك الرجل الغامض الذي شعرت معه بالأمان وسط كابوس الدمار المتكرّر.. أمان لم أجده مع زوجي إدوارد من دون أن أعرف سببًا لذلك.. وحينما رأيتُك أمامي أول أمس.. اختلط الحلم بالواقع.. تخيَّلت بأنني قد جننتُ بسبب ما أعايشه من مأساة.. وكلما كنتُ أنظر إليك أجد العشق في عينيك دليلًا، ومع ذلك أكذبه.. حتى قفزت روحي في أحضانك محطمةً كل محال يفرضه العقل والمنطق.

قبَّلت يدها مبتسمًا:

- أحبُّك.

- أحبُّك رغم البعاد.. أحبُّك والفِراق يقف على أبواب قلوبنا يُهدِّد بالألم.. أحبُّك ويكفيني تلك اللحظات معك.

قالتها متنهدة.. امتلأت أعيننا بالدموع.. كأننا عُدنا إلى أرض الواقع فجأة.. عدوَّان قد أسكرتهما لذَّةُ العِشق من دون ميعاد.. همست لها:

- لن أتركك ما حييت.

- مكتوب علينا النزاع.

- لنغيره بأيدينا.. لنكتب نحن أقدارنا ومن يأتي بعدنا...

- لن نقوى على ذلك.

- الحب يصنع المعجزات.

- هل ستنسى دماء أهلك وأخواتك؟ هل سأتمكن من العيش معك من دون الانتقام ممن قتل عائلتي؟

تلعثمتُ وانتحرت الكلمات في حلقي، وساد الصمت بيننا.. نظرت إليّ بحسرة وسحبت يدها من يدي.. ساد الصمت بيننا أكثر من ساعة.. غاب كلٌّ منا في عالم من الحزن مُتذكرًا لقطات لا يمكن نسيانها.. وكلمات والدي الراحل ما زالت تتردد في أذني:

- أحمدُ الله أن هناك مَن يناضلون مثلك من أبناء هذا الوطن.. كُتب عليك الجهاد لتحمي أهلك.

وأبيات الشعر الأخيرة التي سمعتُها من قائدي وقُدوتي عبد القادر الحسيني قبل استشهاده:

"سَأَحْمِلُ رُوحي على راحَتي وأُلقي بِها في مَهاوي الرَّدى

فـإِمّا حَيـاةٌ تَسُرُّ الصَّـديقَ وإِمّـا ممـاتٌ يغيظُ العِـدا

بِقَلبي سَأرمي وُجوهَ العِدا فَقَلبي حَـديدٌ ونـاري لَظى

وَأحمي حِياضي بِحَدِّ الحُسامِ فَيَعـلَمُ قَـومي بِأَنّي الفتى".

وتذكّرت أهل قريتي وما حدث لأخواتي.. وذلك الوغد الصهيوني وهو يشقُّ بطن غادة ويذبح رضيعها ويقتل فادية، ويضاجع نادية قبل نحرها..

لن أقوى على نسيان ذلك ما حييت.. لن ينجو الحب من تلك الدماء.. ساندرا على حق.. لن يقوى أحدنا على تغيير قدره رغم رغبتنا في ذلك.. تمنيت أن أفْقِد الذاكرة في هذه اللحظة ولا يبقى غيرها فيها.. لو أننا نولد من جديد في مكان آخر بعيدًا عن الحروب والنزاعات الدامية! لو يجمعنا العشق على ضفاف الحياة لنعيش معًا بلا حزن ولا ألم! لو أننا لم نكن من الأساس لكان أرحم لنا.. أن تفنى نطفتنا قبل أن تكتمل مولودًا يأتي إلى دنيا مستعدّة لتعذيبه طوال العمر.. والآن يتعلق مصيرنا بشخص واحد.. أدولف هتلر.. كلانا وجهان متضادان لعملة واحدة، لا يمكن أن يجمعنا جانب واحد مهما نحاول.

سالت دموعي لتشارك دموعها، فقد تذكَّرت هي الأخرى مشاهد من مأساتها: ابنها المحترق وعائلتها المذبوحة.. مآسيها بمعسكرات الموت.. لكل منا آلام لن تُشفى، ولا يمكنه تخطّيها..

همست بصوت مختنق:

- لم أتخيل يومًا أنني سأعشق رجلًا أيَّد كل هذا الخراب في العالم.

توقَّف القطار في نقطة تفتيش بريطانية.. صعد رجال من قواتهم يفتّشون القطار ويطالبون مُستقليه بإبراز الأوراق الثبوتيّة الشخصية الخاصة بكل منهم.. بحثت عن تلك الأوراق المزوَّرة فلم أجدها. همست لساندرا متوترًا:

- يبدو أنني قد نسيت أوراقي على شاطئ النهر هناك..

- اهدأ.. لا تتحدث مطلقًا.

اقتربَ منا ذلك الضابط البريطاني المتعجرف متسائلًا:

- أوراقك؟

فأجابته ساندرا:

- أنا الطبيبة اليهودية ساندرا هون وهذا مريض بمستشفى والتر للطب النفسي، وكنت بصحبته في زيارة عائلية بولاية ساكسونيا لوالده القعيد، وأعتذر لك فقد ضاع مني تصريح خروجه من المستشفى.

- أليست لديه أوراق لنتحقَّق من شخصيته؟

- نعم، ولكن هذا تحقيق الشخصية الخاص بي.

ناولته إياه فنظر فيه ثم نظر لي:

- حسنًا..تفضلا معي.

- قلت لك إنه يهودي مريض، وعلينا العودة للمستشفى.

- عذرًا أيتها الطبيبة.. نحن في حالة طوارئ، وعلينا التيقُّن مما تقولين.. تفضلا.

كتمتُ أنفاسي حينئذ وأنا أدفعه أرضًا، وأركض بكل ما أوتيتُ من قوة، وأقفز من القطار.. سمعتُها تناديني:

- ياسين.. ياسين.

نظرتُ خلفي فوجدتُها تركض هي أيضًا تجاهي، والجنود البريطانيون خلفها يطلقون رصاصاتهم نحونا.. أمسكت يدها، وانطلقنا محاولين الإفلات من وابل طلقاتهم المحاولة النيل منا.. صرخ أحد الضباط بهم:

- أوقفوا النيران أيها الحمقى.

فصرخ به أحدهم:

- إنه يهودي لا يحمل تحقيقًا للشخصيّة.

- لا تجلب لنا المتاعب.. عودوا إلى عملكم ودعوهما لشأنهما.

كنا قد ابتعدنا دون أن ننظر خلفنا.. أوقفت سيارة، وأنزلت قائدها عنوة، وركبنا، وانطلقتُ بها بعيدًا.. عُدنا إلى برلين الغربية مجددًا.. قوات الجيش البريطاني تنتشر في كلِّ مكان.. أوقفت السيّارة خوفًا من الاصطدام بنقطة تفتيش أخرى.. نظرت إلى ساندرا بجواري.. برقت عيناي، فقد أصابها طلق ناري بجانبها الأيسر.. صرخت فيها مرعوبًا:

- أنتِ مصابة!

لم ترد عليَّ ببنت شفة.. قوات من المشاة تعبر الشارع نفسه الذي نحن موجودان فيه.. كنت مرتعدًا من القبض علينا وهي بهذه الحالة.. التفت للجانب الآخر من الشارع فوجدت لافتة:

"منطقة عمل .. نأسف للإزعاج" .

تجديدات في شبكة الصرف الصحي أسفل المدينة.. خطرت لي فكرة.. علينا بالاختباء هناك حتى تهدأ الأمور.

نزلت من السيارة سريعًا وحملت ساندرا على ذراعي قبل أن يلحظ أحد شيئًا.. فقد انعدم المارّة تقريبًا في هذه المنطقة.. دخلتُ بها ذلك الأنبوب الكبير المؤدّي إلى داخل شبكة الصرف الصحي.. من حسن الحظ أننا ما زلنا في أسبوع عيد الفصح، ولا وجود لعمالٍ في ذلك المكان الممتلئ بمصابيح صغيرة وبعض المعدّات التي تُمكِّنهم من العملٍ ليلًا.

وضعت ساندرا على الأرض بعدما تيقنت من خلو المكان تمامًا..صرخت فيها:

- ساندرا.. ساندررررررا.

كانت تنظر إليَّ بعينين زائغتين وابتسامة باهتة على وجهها.. مدت يدها الملطخة بالدماء مرتعشة ومسحت على وجهي قبل أن تفقد وعيها تمامًا هامسة:

- أحبُّك.

- لا يا ساندرا.. لا تتركيني.. لاااااااااااااااااااااا..



(١٤)

شوارع برلين

دقَّت طبول الحرب لترجَّ قلوب الأعداء.. أعداء الفوهرر العائد بعد خداع دام ثلاث سنوات، اعتقدوا خلالها أن كل شيء بات تحت سيطرتهم وسطوتهم القاهرة.. لم يدركوا أن الحرب لم تنتهِ بعد، وأن هناك فصلًا عتيًّا سيودي بهم وبحلفائهم إلى الجحيم... جحيم خاص ابتدعه عدوُّهم اللدود.. أدولف هتلر.

ضجَّت شوارع برلين بقوات الفيرماخت من جديد.. اقتحمت البيوت والمحال بأسلحتها الحديثة الصنع، مرتدين أقنعة سوداء تخفي وجوههم.. فخاخٌ من الدم نُصبت للبريطانيين وحلفائهم، وبغمضة عين فرضت الفيرماخت سيطرتها ليس على برلين فقط بل غدت ألمانيا بأسرها في قبضة الزعيم النازي أدولف هتلر.. صيحاتهم تغتال تلك الجنة الزائفة التي عاش فيها الحلفاء بدون رادع.. حلَّقت طائراتهم في سماء برلين تدقُّ القواعد العسكرية في ألمانيا.. قذائف تُحيل تلك القواعد إلى رماد وركام، لِتخَلِّفَ

خرابًا فجائيًّا لم يكن في الحسبان.. جنود بريطانيون وسوفييت وأمريكيون يهرولون في شوارع برلين، مولولين كالنساء من هول المصيبة:

– لقد عاد الفيرماخت.. لقد عاد هتلر.

جثث الألمان فوق بعضها البعض في كلِّ مكان، فقد أعطى الفوهرر أوامره بالتدمير.. ذلك الأمر الذي لم يستجِب له وزير التسليح والإنتاج الحربي قبل الاجتياح الأخير للجيش الأحمر لبرلين في عام ١٩٤٥.. مرسوم نيرون القاضي بحرق ألمانيا وتدمير المنشآت وتخريب الطرقات ومرافق الاتصالات والمصانع والمخازن، وتدمير البنية التحتية، لتصبح ألمانيا أرضًا محروقة لا وجود لها.. ولكن ذلك الوزير عصى أوامره وأقنع الجنرالات الألمان بعصيانه، بينما اليوم لن يقوى أحد على منعه من ذلك أبدًا.. فالألمانيون يستحقون الفناء.. لن يبقى سوى الفوهرر وفيرماخته ليعيدوا البناء من جديد مع جيلٍ قويٍّ يستحق الحياة.

طائرات تُحلِّق فوق الرؤوس في كلِّ مكان، ويخرج منها صوت واحد.. صوت الفوهرر القائد الأعظم، من خلال سمّاعات تملأ تلك الطائرات.. ليغزو صوتُه تلك الفوضى أسفله، بخطاب سيكتبه التاريخ بحروف من دم:

– أيها الفيرماختيون.. شعبي الجديد.. مَن عكفتُ على جمعكم لسنوات كثيرة.. وأدرك ولاءكم العظيم.. أنا أدولف هتلر.. الفوهرر العائد لكم من جديد.. ليبدأ جحيم أعدائنا، ونغلق معًا أبوابه، ليبقوا فيه أبد الدهر في عذابٍ لن ينقذهم منه أحد.. أيها الفيرماختيون.. أريد أن أقودكم إلى طريق

الخلود.. سيمرُّ العالم معنا في عصرٍ يشبه العصر الجيولوجي الأول في تاريخ الأرض.. انفجار هائل سيغير وجه العالم أجمع ونحن نقود ذلك الانفجار.. سيسقط أعداؤنا في هوة سحيقة ما لها من قرار، وسيغدو العالم في قبضتنا.. من هنا، من ألمانيا، نُطلق شرارة هذا الانفجار..نُشعل العالم.. ليشمخ الرايخ الرابع كطودٍ راسخ من الجرانيت الصلب لا طاقة لكائن على تخطّيه.. بالأمس القريب قلت لكم: اقتربت الساعة وانشقَّ القمر.. واليوم أُعلنها لكم.. لقد قامت قيامتهم.. لتُعلَن مدينة جرمانيا عاصمة للعالم.. لن يبقى على قيد الحياة من لا يؤمن بنا.. يؤمن بالأدولفية الهتلرية.. هيا يا رجالي المخلصين.. لقد حان وقت الحساب.. ليس في ألمانيا فقط.. بل في العالم أجمع.. غُلُّوهم بالأصفاد العتيدة، قيِّدوهم، وجَرْجِروهم إلى جهنّم.. ليلقوا جزاء ما صنعوا.

- يحيا هتلر.. يحيا هتلر..

تعالت أصوات الفيرماخت بتلك الصيحات.. وتكرر الخطاب من جديد من دون توقُّف، ليجوب صوتُه كل أنحاء ألمانيا..

أُعلنت حالة الطوارئ في كلِّ بلاد العالم، بعدما وصلهم خطاب واحد مُوقَّع من أدولف هتلر شخصيًّا:

- من أدولف هتلر زعيم جرمانيا المعظم..ننصحكم بالاستسلام والانضمام لنا، مؤمنين بأن الأدولفية الهتلرية هي مفرُّكم الوحيد، وشعبكم للحياة، وإلا فلتستعدوا للجحيم.. اليوم يعود الفوهرر ليحتل العالم بأكمله بقوة الفيرماخت الساحقة.

كانت ساندرا هون تهيم راكضة في شوارع برلين، وكتفها تنزف من تلك الرصاصة التي أصابتها..تهرول برجليها بين الجثث غير مصدقةٍ كَمَّ الخراب الذي حلَّ ببرلين هكذا بغتة.. لقد حدث ما كانت تهابه منذ معرفتها أن هتلر قد عاد.. لن يكفيه قتل اليهود فقط، بل سيقتل الألمان ويفنيهم عن بكرة أبيهم.. تركض تارة، وتختبئ تارة.. الأدخنة تتصاعد من تلك الأبنية المُحطَّمة في كلِّ شوارع برلين، والنيران مضرمة بين جنود الفيرماخت المنتشرين في كلِّ شبر.. مفاجأة صاعقة شلت حركتَها في البداية.. إنها ترى ابنها إدجار.. طفلًا بريئًا يبكي وسط النيران.. تستمع حينها لأصوات تأتي من تلك الطائرات المحلقة في سماء برلين:

– على قوات الفيرماخت المغادرة.. على قوات الفيرماخت المغادرة.

دبَّت أقدامهم فوق تلك الجثث المنتشرة حولها في كلّ مكان، وهم يغادرون بعيدًا عن عينيها، وهي تلهث باحثة عن طفلها المختفي وسط حشودهم.. لحظات قاتلة، يعود إليها الأمل من جديد باحتمال بقاء إدجار على قيد الحياة.. ربما من تمَّ حرقه مجرد دمية.. لم يكن ابنها.. صرخت بعدما اختفى جنود الفيرماخت:

– إدجار..إدجار.. إدجاااااااااااااااار..

بحثت عنه في كلِّ أرجاء ذلك الميدان الشاسع.. تغوص بقدميها في الجثث وأمعائها المتناثرة خارج بطونها.. رائحة الدماء المختلطة تملأ أنفها.. كان هناك في الجانب الآخر من ذلك الميدان.. طفلها الصغير إدجار.. ركضت بكل قُوَّتها المتهالكة نحوه.. تعثرت ببعض الجيف المبرقة العينين، ووقفت

لتكمل طريقها باتّجاه إدجار.. احتضنته متلمسة كل مكان في جسده.. لم تُصدِّق أنه حي بين يديها.. قبَّلته كثيرًا ودموعها منهمرة بغزارة:

- إدجار.. حبيبي.. اشتقت إليك.. هل أنت بخير يا طفلي؟ أحبُّك يا إدجار.

وفي تلك اللحظة عادت الطائرات مرة أخرى تُلقي سائلًا ذا رائحة نفَّاذة.. إنه وقود بكميات كبيرة تنشره بغزارة في كلِّ مكان.. برقت عينا ساندرا مدركةً ما هم مقبلون عليه.. سيحرقون جثثهم.. سيمحون جريمتهم بكل بساطة.. سهام نارية تُطلقها تلك المروحيات وتبتعد.. لتشتعل النيران وتحاصرهما.. احتضنت ساندرا طفلها هلوعة تصرخ:

- يا رب.

انفجار شديد يحدث بالقرب منها، فتطير ساندرا على إثره في الهواء لتسقط وسط بركة من الدماء والجثث المتفحمة.. تُحرِّك يديها بصعوبةٍ، فما زالت الروح تُصارع داخلها هامسة..

- إدجار!

ترى أمامها أحد جنود الفيرماخت يخلع قناعه الأسود وسط تلك المحرقة الهائلة.. التقت أعينهما معًا:

همست ساندرا:

- ياسين!

كنتُ واقفًا أمامها ممسكًا بسلاحي الناري أُصوِّبه ناحيتها بلا رحمة.. تداعت على ذاكرتي سريعًا تلك الذكريات المؤلمة التي عايشتُها في وطني، أطلقتُ رصاصاتي صوب قلبها لتفارق الحياة على الفور قبل أن أُهرول بعيدًا عن النيران.

فتحت ساندرا هون عينيها والألم يُمزِّق جسدها وروحها بضراوة.. كنت بجوارها في المكان نفسه في شبكة الصرف الصحي أسفل برلين الغربية.. يومان على إصابتها بذلك الطلق الناري وأنا أحاول بكل ما أوتيت من عِلم أن أنقذ حياتها.. لم أنم ولو لحظة منذ نجاحي في استخراج تلك الرصاصة منً كتفها، وكي الجرح بسكين مُطهَّر بنار أشعلتها ببعض الفحم، وجدتها بين معدّات العمال بالقرب منا.. ابتسمتُ لها حاضنًا يدها بحنان منقطع النظير:

– حمدًا لله على سلامتك.

نهضت جالسة مفزوعة تتحامل على نفسها صارخة:

– إدجار..ادجاااااار.

– اهدئي يا ساندرا.. اهدئي.

– أرجوك لا تقتلني.. لا تقتلني..

– ساندرا.. لا تخافي.. أنا بجوارك.

كانت تبكي بانهيار.. هلَّلت كالمجذوبة:

– سيُخيم الموت على الجميع.. سيحلُّ الخراب والدمار.. ادجاااااار.. اد جاااااااااااااااااااااااار.

- اهدئي.. كل شيء على ما يُرام.. أرجوكِ.

لحظات من الصمت، أجالت خلالها نظرها في ما يحيط بنا، كأنها تكتشف أننا ما زلنا في المكان نفسه.. سألتني وأنفاسها تتسارع في صدرها بشكل مسموع:

- ماذا حدث؟

- أصابَك طَلْقٌ ناري منذ يومين، ونجحتُ في استخراجه وتطهير الجُرح.

- طلق ناري!

- نعم، ورحتِ في غيبوبة لم تستفيقي منها إلا الآن.

- يومين!

- كنتِ تعانين الحُمى الشديدة.

- ولماذا لم تتركني وترحل؟

- لن أتركك ما حييت يا حبيبتي.

- ستتركني.

- لن يحدث.. سأبقى معك حتى النهاية.

- كُفَّ عن هذا الهراء.. لن يتقابل العدوَّان إلا لقتل بعضهما البعض.

- ولكنني أحبُّك.

- لماذا أنقذتَ حياتي؟ كانت نهاية مناسبة ومباغتة.. كان عليك أن تتركني لأموت.

صرختُ في وجهها:

- لم أستطع.. فأنا أحبُّك.. أحبُّك.. ألا تفهمين معنى لهذه الكلمة؟

- إن كنت تحبُّني فدعني أنتقم من أدولف هتلر.. ساعدني على ذلك.

- لن أترك وطني يضيع لأجلك.

- أرأيت؟

- فليكفِ.

تردَّدت صرخاتنا في أرجاء المكان، وصمتنا برهة قطعتها ساندرا متنهدةً:

- حسنًا.. دعنا نُكمل رحلتنا كما اتفقنا في البداية: نتعاون للوصول إلى أدولف هتلر.. وبعدها يتحمل كل منا نتيجة هدفه المنشود.

اقتربتُ منها ونظرتُ إلى عينيها بحب محاولًا استمالتها هامسًا:

- أريدكِ أن تفكري قليلًا بالتضحية من أجلي.. فلتنسي عائلتك ونعيش معًا بعشق لن ينتهي.

رمقتني بعينين حادتين تنهي كل حوار محتمل بيننا:

- فليذهب العشق إلى الجحيم.. لن أترك هتلر ما حييت.

***

خرجنا من شبكة الصرف الصحي حذرين.. فاليوم هو آخر أيام عيد الفصح، وسيعود العمال إلى عملهم بدءًا من يوم غد.. كانت الشوارع فارغة

إلا من بعض المارة، واختفت القوات البريطانية تمامًا من المشهد.. تعجبنا كثيرًا لذلك، فلم يقابلنا أيٌّ منهم طوال طريقنا إلى ذلك المستشفى المهجور.. أجبرت سائق سيارة أخرى على ترك سيارته، وانطلقنا بها سريعًا نحو هدفنا المنشود.. مستشفى بيلتز غرفة ٧١.

سردت لي ساندرا هون تاريخ تلك البنايات المهجورة في طريقنا:

- بحلول عام ١٨٩٨ بنى المعهد الوطني الألماني للتأمين مصحة بيلتز لضحايا مرض السُّل.. وتطوَّرت بشكل مطَّرد بعدها ليعالَج فيها مصابو الحرب العالمية الأولى، وكان من بينهم هتلر الذي أُصيب بطلقات نارية في ساقه في أثناء الحرب.. وبعد وصول هتلر للحكم اهتمَّ بتطويرها، ولكنها دُمرت في أثناء هجوم الجيش الأحمر على برلين، وبقيت مهجورة منذ ذلك الحين:

- هل تعتقدين أن هتلر يختبئ هناك؟

- سنرى.

كان كل شيء اعتياديًّا طوال الطريق.. لا وجود للقوات البريطانية، كأن حالة الاستعداد القصوى قد انتهت.. شيء ما مريب لا نفهمه.. ساعة كاملة قبل أن نصل أمام بوابة ذلك المستشفى المتهدِّم.. وقفنا أمامه ننظر إلى تلك الجدران الباقية والشغف يفترسنا.. أسئلة عديدة تتردد في داخلنا:

- هل نحن على وشك مقابلة الزعيم النازي أدولف هتلر؟ أيختبئ حقًّا في هذا المكان؟ أمن هنا يدير مخططه الانتقامي؟

همست لي ساندرا:

- لندخل.

- هيَّا.

خطونا فوق ذلك الركام المنتشر في أرضيّتها.. جدران متهدمة بعض أسقفها، ودماء متجلطة على حوائطها.. يبدو أن الأيام الأخيرة في هذا المكان كانت مسرحًا مخيفًا للموت بجدارة.. بعض الجيف المتحللة والهياكل العظيمة تعثَّرنا بها على طرقات هذا المستشفى.

نستمع لدقات قلبينا عالية، فكلانا ينتظر تلك اللحظة متشوِّقًا للقاء تاريخي.. بحثنا عن غرفة ٧١ بالدور الأرضي فلم نجدها.. خمس وعشرون غرفة مهدمة تمامًا على هياكل عظمية منتشرة فيها، كأنها تصرخ لك:

- كان هناك حياة يومًا هنا..

وجدنا سُلمًا في نهاية أحد الممرات للدور العلوي، ويبدو أن هناك دورًا سفليًّا أيضًا.. صعدنا إلى أعلى حذرين، وبحثنا عن تلك الغرفة.. أعلنت تلك اللافتات المتآكلة في بداية الدور غياب تلك الغرفة أيضًا.. فلم يكن هناك وجود لرقم ٧١.. آخر غرفة رقمها ٦٩..

- فلننزل إلى أسفل.

قالتها ساندرا، فتحرَّكنا عائدين إلى أسفل.. حيث بعض المصابيح الصغيرة مُعلَّقة على الحائط تضيء المكان.. لم يتأثر ذلك الدور بمظاهر التدمير

المتفشية أعلاه.. يبدو أن وجوده تحت الارض حافظ عليه من الخراب.. ممر طويل في نهايته غرفتان.. غرفة ٧٠ و ٧١.

لقد اقتربنا من المواجهة.. أدولف هتلر على وشك الظهور.. خطونا نحو تلك الغرفة مبرقة أعيننا.. وجاءت اللحظة الحاسمة لنقف على باب تلك الغرفة.. هاجمت عقلي مشاهد طالما تمنيت حدوثها.. رأيتني أخرج على رأس الفيرماخت غازيًا لجفعات شاؤول، منتقمًا لقريتي، محررًا فلسطين من اليهود الصهاينة.. أراني أرفعُ علم فلسطين عاليًا في فناء المسجد الأقصى وأُهلل:

- الله أكبر.. الله أكبر.

أراني أتسلَّم نوط الشجاعة والإقدام والبطولة من الزعيم المعظم أدولف هتلر.. أرى الحب وقد اقتلع جذور الشر وانتشر في كلّ بلاد العالم.. وأراها في بيتي..ساندرا هون.. حبيبتي التي عفا عنها هتلر وتنازلت عن ثأرها لأجلي.. أحلام تراودني بغتة.

لحظات لم ندرك فيها أن الغرفة ٧١ من مستشفى بيلتز المهجور خاوية.. ليس فيها غير سرير طبي يأكله الصدأ، وبقايا طعام وفاكهة يملأُها العفن، وزجاجة من النبيذ الأحمر، وكأسان أحدهما فارغ بجوارها، وبقعة من الدماء المتجلطة على الأرض، وسكين ملطخ سلاحه بالدماء بجوارها.. مدَّت ساندرا يدها تتفحص تلك الدماء ممسكة بالسكين:

- أحدهم قُتل هنا.

لمحت بعيني على ذلك السرير شيئًا لم أصدقه مطلقًا.. إنها مجموعة من اللوحات والرسومات التي أعرفها.. اقتربت منها وأمسكت بها.. تلك الرسومات لزوجتي إيفا براون.. رأيت توقيعها خلف كل منها بعد إزالة الأتربة العالقة على سطحها.. همست لساندرا:

- تلك الرسومات لإيفا براون.

- نحن إذًا في المكان الصحيح.

نظرت لتواريخ توقيعها لأكتشف المفاجأة الثانية، مكتوب عليها جميعًا: "إيفا براون- نيسان ١٩٤٥"، قرأتُها بصوتٍ عالٍ مفكرًا بمعناها..

- إيفا براون- نيسان ١٩٤٥.. هذا المكان اختبأت فيه إيفا براون بعد التمثيلية الزائفة بانتحارها مع هتلر.

- لماذا؟

- لأنها اعتادت أن تُوقِّع على لوحاتها بتاريخ انتهائها منها.

- هذا يعني أنها عادت هنا مرة أخرى بعدما هربت من دير ياسين.

- ربما.. ولكن ذلك الطعام وتلك الفاكهة ينبئان أن هذه الغرفة لم يدخلها أحد منذ فترة طويلة.. لنقل ثلاث سنوات.

- أين هي إذًا بحقِّ الجحيم؟

كنتُ أتصفَّح تلك الرسومات جيدًا.. لفتَ نظري ذلك المسجد الذي رسمتْهُ إيفا في إحدى المرات من مجلة أحضرتها إليها يومًا.. أتذكره جيدًا.. أدرتُه لأقرأ توقيعها.. برقت عيناي.. جملة واحدة بجوار توقيعها:

"الأمان مجرد هراء - نيسان - ١٩٤٥"

هتفتُ مُكتشفًا لغز اختفائها:

- الآن عرفتُ أين تختبئ إيفا براون؟

- أين؟

- إيفا براون في قرية بشمال برلين كان فيها مسجد خشبي تهدَّم بفعل الزمن.. وبالتأكيد هتلر معها.. ذلك المكان هو الذي اتفقا عليه للقاء بعد الفِراق.. رسمته إيفا مرتين معتقدة أن الأمان الذي عاشته مع هتلر مجرد هراء.. كانت تعتقد أن هتلر لن يعود.. ولكنه عاد وأرسل إليها الإشارات ليتقابلا هناك.

- أخبرني باسم القرية.

قالتها شاهرة في وجهي تلك السكين الملطخة بدماء جافة:

- ماذا؟

- قلتُ لك أخبرني باسم هذه القرية.. لقد انتهت رحلتك عند هذا الحد.

- ستقتلينني يا ساندرا؟

- ليس لديَّ حلٌّ آخر.. عليّ إبلاغ الحلفاء واليهود بتلك المعلومات.. يجب أن يموت هتلر مهما يكن الثمن.

- ولكنني أحبُّك.

- وأنا أيضًا أحبُّك.. ولكنني قلت لك من قبل.. كُتب علينا النزاع والفراق.

حاولتْ دبَّ تلك السكين في بطني، ولكنني أمسكتُ يدها بقوة واشتبكنا.. حاولت قتلي بكل ما أوتيت من قوة وكنتُ أقاوِمها بشدة.. سقطنا على الأرض متصارعين، ونصل سكينها يقترب من رقبتي... ضغطتُ بقوة على يدها نحو الخلف، والتوى ذراعها فجأة.. لم تتدارك نفسها وهي تدب سكينها في بطنها رغمًا عنها، وتسقط بجواري تعاني سكرات الموت.. ذلك الموت الذي أنقذتُها منه قبل يومين، ولكنني الآن سأتركها.. سأتركها تموت كما طلبت.. وقفت ناظرًا إليها بعينين تملأهما الدموع، قبل أن أركض راحلًا:

- الوداع.. الوداع يا من عَشِقتها الروح والجسد..



(١٥)

العشرون من نيسان ١٩٤٨

قرية في شمال برلين

اقتربت الشمس على الرحيل في سماء ذلك اليوم الدامي.. وقفتُ على شاطئ بحيرة "تيغلر زيه" التي تعتبر من أكبر بحيرات برلين، والحزن يعتصر قلبي، فقد دُنست روحي بموت ساندرا هون، معشوقتي الوحيدة في هذه الدنيا، على يدي.. لم أفكر ولو لحظة أن أتنازل عن وطني لأجلها، فكانت معركتنا الحقيقية معركة وجود لا مشاعر واهية.. إما وطني أو وطنها المزعوم.. فلسطين أو وطن الصهاينة المسلوب.. قضيتان متناحرتان، وكلانا انتصر لقضيته، حتى هي كادت تقتلني لأجل أمانها وانتقامها ممن قد يُحرِّر أوطاننا المعذبة باغتصابٍ جبري..

سقطت دموعي متذكرًا تلك الليلة على شاطئ نهر إلبه بين أحضانها الدافئة.. لحظات سرقناها من زمنٍ توعَّدنا بالأوجاع.. همستُ متألمًا والفِراق يغصُّ بقلبي.

- قالوا لي.. لقد صبأت عن هواها مهاجرًا.. قلت لهم أنا وإن كنت منفيًّا بجسدي غائبًا فروحي معلقة بين عينيها تائهة.. حبيبتي أخبريهم.. هل يصبأ العشاق السكارى؟ وإن أكثروا من خمر عينيك ما ارتووا.. أحبُّك.

ارتسم وجهها أمامي على مياه النهر.. أرى ابتسامتها تُعلن لي المغفرة:

- ولي في ابتسامتها عمرٌ أتوق لكل لحظاته مُتعبدًا بليلِ عينيها، مُرتعدًا لصباحٍ آتٍ لا محالة، فينتهي العمر بحضرة عِشقها بدون كفاية.. الوداع يا ساندرا.. الوداع يا حبيبتي.

عندما يموت أحدهم يذوب معه جزء من أرواحنا حتى نرحل، ولكن بفِراق ساندرا مات معها كل ما تبقى من روح أرهقها زمنٌ غادر.. سأغدو لإنقاذ وطني وأؤدي دورًا كتبَه القدر على أياميَ، وبعدها سأنتظر الموت بكل لحظة لأجتمع بها في عالم الله.. سيأتي يوم تتقابل فيه روحانا مجددًا، ونجلس لنحكي كيف كانت تجربة قاسية تلك الدنيا.. سنجتمع لا محالة.. أدعو الله أن يُعجِّل هذا اللقاء بعد انتهاء مهمتي.

كنت على بُعد ثلاثة كيلومترات من القرية المنشودة.. لا مجال لدخول السيارات بهذا الممشى المجاور للبحيرة..إما أن أترجَّل نحوها أو أطلب من

أحد القوارب الصغيرة نقلي هناك.. واخترت أن أتخذ ذلك الممشى شاردًا بساندرا، كأنني لا أرغب في انتهاء تلك الرحلة.. وكأن عبق روحها يُحلِّق حولي.. أشتمُّ رائحتها طوال الوقت، فلجسدها عبق مذهل لا يُقاوَم، تمنيت ألَّا يغادر هوائي مثلها.

ترجَّلت بين الأشجار الكثيفة على جانب الممشى ومياه النهر على يساري.. وبزغت القرية الصغيرة أمام عيني.. مجموعة أكواخ ريفية على طول ساحل البحيرة تتخلّلها الأشجار والزروع.. وكان ذلك المسجد يتوسط القرية على تبَّة عالية.. مسجد مبني من الخشب كما كان في تلك المجلة.. يبدو أنهم أعادوا بناءه من جديد.. فأغلب سكان هذه القرية من المسلمين الذين قرَّروا عدم العودة إلى أوطانهم بعد انتهاء الحرب، والبقاء في ألمانيا.. وعَمِلَ أغلبهم إما بالزراعة أو بالصيد، وأعادوا بناء القرية مرة أخرى بعد خرابها في أثناء الحرب العالمية الثانية.. رأيت أطفالًا يلهون في ساحة القرية بالقرب من المسجد، ونساء يفترشن الأرض ويبعن الأطعمة للزوار، فقد كانت القرية مزارًا سياحيًّا بفضل موقعها المتميز على البحيرة.

أدركتُ حينها أنه مكان مثالي لهتلر وإيفا كي يختبئا فيه.. فأفضل حليف لهتلر المسلمون.. وإن كان يفكر حقًّا في العودة وغزو العالم من جديد فلن يكون ذلك إلا من خلالهم.. ولن أتعجب حين يخبرني بأن الفيرماخت جيش هتلر العظيم أصبح جيشًا مسلمًا عن بكرة أبيه.. فصلاح هذه الدنيا بما فيها لن يتحقق إلا على يد فيرماخت إسلامي.. أيقنت ذلك منذ بداية انخراطي

في العمل الجهادي.. كان قائدي عبد القادر الحسيني يبث الحماسة بيننا بكلماته.

- مهما تطل الأيام ويمر الزمن.. سيأتي يوم ينتشر فيه السلام بالإسلام.. وكي يتحقق ذلك لا بد من القوة..لا بد من جيش يملأه المجاهدون أمثالكم.. ولذلك عليكم بالصبر واحتساب تلك المعاناة في سبيل الله.. ثقوا بأننا لن نفشل.. من اليسير أن تفشلوا.. توقَّفوا عن المحاولة فقط، وموتوا متلبِّسين بقتل حُلمكم.. أتريدون الفشل أم السلام؟

- الإسلام.

كنا نهتف بكل حماسة ممكنة مقتنعين بقضيتنا رغم الأهوال.. يومًا ما سيتحقق حلمنا.. رمقت تلك الوجوه في طريقي إلى ذلك المسجد.. وجوه طيبة خاشعة تملأ أغلبها تجاعيد الزمن.. استمعت لأذان المغرب:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله

حي على الصلاة حي على الصلاة

حي على الفلاح حي على الفلاح

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله

أسئلة تلحُّ على عقلي في هذه اللحظات بدون إجابة.. تُصيني بالارتباك والحيرة فقط.. هل كان هذا المسجد مجرد مكان للقاء مجدد ثم غادراه لمكانٍ لن أعثر عليه أبدًا؟ أم أن هناك لغزًا جديدًا سيبدأ من هنا؟ هل سيستمر أدولف هتلر بالاختباء هكذا أم أن هناك وقتًا محددًا سيخرج فيه إلى العالم علانيةً؟

مؤكد أنه سيخرج حينما يصبح مستعدًّا لامتلاك العالم.. حينما يكتمل الفيرماخت.. قد تكون تلك الجرائم إشارات لدول أيضًا حليفة له وليست لإيفا براون فقط.. سنرى بعد لحظات من الآن ماذا يُخبِّئ لي القدر؟

وقفتُ على باب المسجد مترددًا في الدخول.. هل أُقبل على الحقيقة أم أنني غارقٌ في دوائرَ لن تنتهي من الألغاز؟ خلعت نعليَّ، وخطوتُ ببطء داخلًا المسجد.. أرضية من الحصير وقِبلة يقف أمامها رجل يُصلي وعدد قليل من المصلين خلفه.. كلٌّ يؤدي صلاته تحيةً للمسجد.. تفحصت المكان من حولي وأنا في منتصف المسجد تقريبًا..أهذا المكان يستحق كل هذه الرحلة الدامية؟

تسرَّب اليأس إلى نفسي سريعًا، فكل شيء حولي اعتيادي.. وإن كان هتلر وإيفا بالقرب من هنا حقًّا فلن يخبرني أحد بذلك.. صِرتُ قشة في مهبِّ رياح غادرة.. هُدم حلمي بالنجاة.. كيف أعثر على أدولف هتلر وإيفا براون وأنا لا أملك أي خيوط أخرى؟ فقد قُطعت كل السُّبل هنا في هذا المسجد.. وكأنني أكتشف لأول مرة أن مهمتي مستحيلة.. كان هناك على يمين المسجد

مصلى للسيدات يخفي أغلبه ستار أسود.. لا يُظهر ما خلفه إلا بحوافه اليسرى، فالستار قصير نوعًا ما.

خيال ما يداعبني خلف هذا الستار.. نظرت متفحصًا رغمًا عني كأن روحي تُشير إليَّ لأنظر إلى تلك الناحية.. رأيت خلف ذلك الجانب الصغير المفتوح باليسار جانبًا من سيدة تسجد.. دَقَّ قلبي وخفق عاليًا.. تحرَّكتُ ناحية ذلك الستار.. مددتُ يدي لأُزيل ذلك السِّتار كاسرًا كل قواعد الحياء.. برقت عيني لما رأيتُ.. إنها هي.. إيفا براون بزيٍّ إسلامي تصلي.

لقد نجحتُ.. سقطتْ دموعي من دون توقُّف، حتى انتهتْ من صلاتها وسط تعجُّب باقي النساء واستنكار الرجال من خلفي، حتى أن بعضهم كاد يلتحم معي جسديًّا، ولكنني لم أستمع لأيٍّ منهم، كأنني وهي في المسجد بمفردنا.. كنت واقفًا أنتظرها حتى تفرغ من سجودها. نهضتْ إيفا براون بعد سلامها من الصلاة ووقفت أمامي صامتة والدموع في عينيها:

همستُ ناظرًا إلى بطنها المنتفخ:

- ابني!

سقطت دموعنا معًا وهي تقترب مني ممسكةً بيدي تُقبلها.. نظرتُ إلى عينيها هامسًا:

- أين هتلر؟

صيحات تغتال حرمة ذلك المسجد.. نظرتُ خلفي لأجد جنودًا بريطانيين يقتحمون المكان بأعداد كبيرة.. يحاصروننا ويشهرون سلاحهم في وجوهنا.. كشافات إضاءة قوية تُفتح في المكان، وبصعوبةٍ نستطيع فتح أعيننا.. شخص ما يقترب منا وسط صيحات هؤلاء الجنود.. أعرفه جيدًا.. لطالما حاولنا اغتياله في عمليّاتنا الجهادية داخل فلسطين، ولكنه كان في كلِّ مرة ينجو منها بذكاء شديد.. كأن بيننا من يُسرب له موعد هجومنا.. إنه أحد أهم أعضاء منظمة الهجرة غير الشرعية لليهود.. أكبر داعم لهم.. السيد ألبرت هيرمان.. اقترب مني ألبرت مبتسمًا بثقة:

- ياسين قاسم الزيداني.

- مرحبًا سيد ألبرت.

- أنت تعرفني إذًا؟

- وكيف لا وأنت سبب رئيسي لمصائبنا؟

ضحك ألبرت مربتًا على كتفي.

- انتهت الرحلة يا ياسين.. وكل مذنب سينال عقابًا لجريمته.

- لن يترككم هتلر على قيد الحياة بعد الآن.

قلتُها بصوتٍ عالٍ، والغِل يملأ صدري.. فزادت ضحكاتُه:

- مسكين أنت يا ياسين.

- لم تنتهِ الحرب بعد.

- من مات لا يعود.. ثق بذلك جيدًا.

- هتلر على قيد الحياة، وأنت تعرف ذلك، ولهذا أنت هنا.

- ستعرف الآن كل شيء قبل ترحيلك إلى سجوننا أيها الإرهابي العنيد.

هُرع جنوده بإشارة منه لتوثيقي وإيفا براون الصامتة تمامًا، وأحكموا تقييدنا، ووضعوا أشرطة لاصقة على شفاهنا، وغطوا رأسينا بغطاء أسود شفاف لم يحجب الرؤية خارجه.. اقترب منها ألبرت ناظرًا إليها بشفقة مزيفة، قبل أن يلتف مواجهًا كاميرا كبيرة دخل حاملها للتو ساحة المسجد وسط همسات المصلين وأهالي القرية.. بدأ ألبرت الحديث بلقاء مُسجل للتلفاز الألماني مباشرة، ولم نكن بخلفيته، فقد حرَّكونا بعيدًا نحو أحد جوانب المسجد:

- معكم ألبرت هيرمان مندوب الاستخبارات الإسرائيلية المُكلَّف بالبحث في القضية التي أثارت الذعر في العالم أجمع.. تلك القضية التي بدأت بمقال في جريدة ألمانية بعنوان: "أدولف هتلر بين أساطير الحياة والموت.. هل هتلر على قيد الحياة؟" والآن أجيبكم عن هذا السؤال.. أدولف هتلر مات منتحرًا في الثلاثين من نيسان عام ١٩٤٥.. ولا صحة لتلك الشائعات بفراره وبقائه على قيد الحياة.. لقد اخترت هذا المكان خصّيصًا لأعلن لكم تفاصيل تلك القضية.. هنا في مسجد صغير في قرية في شمال برلين، وحولي مسلمون يعيشون بأمان تام دون أدنى مضايقات.. فالأرض تتسع لنا جميعًا.. هذه

رسالتنا، وعليكم أن تعوها جيدًا.. كفاكم منازعات وصراعات.. السلام هو الحل الوحيد.. لنعُد لتلك الجرائم.. القصة لم تبدأ في هذا المقال، ولكنها تعود إلى تلك الفتاة ذات الثلاثة والثلاثين عامًا التي وقعت بحب هتلر كمجذوبة تتابع كل أخباره عن بُعد.. تمنت كثيرًا أن تقابله، ولكنها فشلت في ذلك.. أقرانها أطلقوا عليها مجذوبة هتلر.. هذه الفتاة هي ريتا بورمان.. فتاة وحيدة ماتت عائلتها في الحرب، وانتقلت للعيش مع صديقتها سارة شبير.. انقطعت كل علاقتها بالحياة ما عدا صديقتها سارة، وذلك العشق البعيد لزعيم نازي لم تلقَه.. وبعد موت هتلر منتحرًا ساءت حالتها النفسية، وفَقدَت النطق من هول الصدمة، فنقلها والد سارة إلى مستشفى شبير للطب النفسي وعالجها لفترة وجيزة قبل أن يبيعه للطبيب والتر ليصبح بعدها مستشفى والتر للطب النفسي.. كانت ريتا تصرخ كل ليلة بأن هتلر لم يمت.. ثم دخلت بعدها بحالة هستيرية معتقدةً أنها إيفا براون زوجة هتلر التي انتحرت معه.. وأنها نجحت بالهروب بصحبته وعليهم البحث عنه.. انتابتها تلك الحالة الجنونية طوال إقامتها بالمستشفى، وسجلت تفاصيل حالتها بالملف الخاص بها كمريضة.. ومَن عالجها في تلك الفترة هي الطبيبة راشيل أقدم طبيبة بالمستشفى.. قررت عائلة شبير بعدها الهجرة إلى فلسطين بالتحديد إلى غزة وانتقلت معهم ريتا.. تحسنت حالتها بعض الشيء، وفي فترة وجيزة وقع السيد جبرائيل شبير الأخ الوحيد لسارة في حبها ولكنها صدَّته، فلم يكن في قلبها سوى هتلر.. حاول جبرائيل معها كثيرًا، حتى عاد في أحد الأيام مخمورًا، وهَجَمَ عليها محاولًا اغتصابها فدبَّت سكين الفاكهة في قلبه وقتلته

أمام أخته سارة التي قام بتقييدها حتى لا تمنعه عنها.. هربت ريتا بورمان من غزة فاقدةً للنطق حتى انتهى بها الأمر في قرية دير ياسين.. وهناك تزوجها الإرهابي ياسين قاسم الزيداني وحماها وبقيت في القرية حتى رأت سارة شبير صورة فوتوغرافية، بمحض المصادفة، لخطيبها فطين مسعود يظهر فيها بصحبة ياسين وريتا في قرية دير ياسين.. فأبلغت شرطة الانتداب البريطاني، واختلقت حينها قصة إيفا براون التي ساعدتها على الهرب، مستمدة تلك الفكرة من حالة صديقتها النفسية.. حاولت سارة شبير إقناعنا أن تلك الفتاة التي قتلت أخاها هي إيفا براون، حتى تبحث عنها السلطات بجدية بدلًا من مرور أكثر من عام على قتله من دون القبض عليها.. فالبحث عن إيفا براون أكثر فائدة بالطبع من البحث عن ريتا بورمان.. ولسبب ما نجحت ريتا بورمان في الفرار مرة أخرى، وجاءت إلى هنا لتختبئ في المسجد.. أيها السادة، هذه السيدة المقبوض عليها الآن والمتّهمة بقتل جبرائيل شبير.. ليست إيفا براون.. هذه السيدة هي ريتا بورمان.

قالها مشيرًا إليها بجواري.. لم أصدق ما تسمعه أذناي.. هذا يعني أنه لا وجود لهتلر؟ وكل أحلامي بعودته ضاعت إلى الأبد!.. مفاجأة ساحقة تدب سكينها في قلبي لتقضي على ما تبقى في داخلي من صبر.

اعتدل ألبرت أمام تلك الكاميرا ليكمل مفاجأته:

- أما بالنسبة للجرائم المتتالية التي تابعتموها هنا في الفترة السابقة.. فإليكم نتائج التحقيقات المتعلّقة بها، بكل شفافية، حتى تطمئن قلوبكم..

الجريمة الأولى الخاصة بمريضة مستشفى والتر للطب النفسي نيكول غيرد.. والجريمة الثانية الخاصة بقتل الصّحافيّ بيتر هون في مبنى النيابة في أثناء التحقيق معه وخداع الرأي العام بأنه قد انتحر.. والجريمة الثالثة الخاصة بعائلة الطبيبة ساندرا هون العاملة في المستشفى نفسه.. ذَبْح زوجها ووالديه وحَرْق ابنها الوحيد.. والجريمة الرابعة الخاصة بقتل الطبيبة راشيل العاملة في المستشفى نفسه.. الفاعل في أغلب هذه الجرائم أراد إيهامنا أن هتلر هو القاتل: هتلر عاد ليبدأ جحيمكم.. جملة كتبَها على حوائط ضحاياه..القاتل الحقيقي اكتشفناه من ملف ريتا بورمان، الذي سرقته الطبيبة راشيل من ملفات المرضى واحتفظت به في بيتها، لتكتمل الجريمة كما جهَّز لها القاتل الحقيقي الذي أُعلنه لكم الآن لأول مرة.. المجرم هو الضابط السري بالاستخبارات اليابانية، المدعو يونج يونا.. عملية استخبارية يابانية أرادت ضرب مكاسب الحلفاء بمقتل.. وذلك برَسْم شبح عائد، يُربك صفوفهم وينشر الذعر بين الناس من جديد.. كان يونج يونا على علاقة عاطفية مع الطبيبة راشيل.. وبعد نشر ذلك المقال "هتلر بين أساطير الحياة والموت" جاءته الفكرة سريعًا، ونفذها في الليلة نفسها.. أُجبرت راشيل على قتل نيكول غيرد، وكتابة تلك الجملة المعلنة عن عودة هتلر على حائط غرفتها في المستشفى.. أقنعها يونج بأن ذلك سيكون انتقامها لموت عائلتها في أثناء هجوم الجيش الأحمر على ألمانيا.. وأغراها بمال لا حصر له، وبحياة رغدة معه بعد الزواج به.. ولكن راشيل خافت من تورُّطها في هذه الجريمة وأرادت إبعاد أيِّ شُبهة عليها، فدسَّت أداة الجريمة في بيت الصِّحافيّ بيتر

هون، الذي زارته في الليلة نفسها في شقّته الصغيرة، لسبب ما لم نعرفه.. وحينما عرف يونج بذلك ثار وصفعَها.. فهي تُعرِّض خطته الذكية للفشل.. إذ سيعتبر الجميع أن منفّذ الجريمة هو بيتر هون وليس هتلر.. لذا تدخّلَ يونج سريعًا وقَتلَ بيتر في محبسه الاحتياطي، ثمّ أتبعها بجريمة مُروِّعة تؤكد ظهور هتلر من جديد ضحاياها هم أفراد أسرة الطبيبة ساندرا هون المعروفة بكرهها المعلَن لهتلر، وذلك من خلال التسجيل حول زفافها الذي نُشر في التلفاز الألماني.. وبين ليلة وضحاها، باتت، بالنسبة للجميع، عودة النازي أدولف هتلر أمرًا حتميًّا.. ما أربكَ صفوف الحلفاء، في الوقت نفسه الذي يُجهِّز فيه اليابانيون لعمليات تخريبية وتفجيرات في كلّ أنحاء ألمانيا...ولكن العناية الإلهية جعلتنا نكتشف أمرهم.. قتل يونج يونا الطبيبة راشيل خوفًا من افتضاح خُطتهم، ولكنها كتبت كل شيء في ذلك الملف المُعنون: "ريتا بورمان"، وخبَّأته في بيتها، وعلى الأرجح لم يتوقع يونج هذا.. لقد كتبت بيدها كل تفاصيل المؤامرة منذ بدايتها.. وهكذا نجحنا في القبض عليه وعلى رجاله، ومَنْع كل جرائمهم المرتقَبة.. وحافظنا على ألمانيا من مصائب كانت ستقذفها إلى جحيم الحرب... ويبقى سؤال واحد يحتاج إلى تفسير.. كيف وصلنا إلى ريتا بورمان في ذلك المسجد، وكيف وصل إليها ياسين الزيداني في التوقيت نفسه، ما مكّننا من القبض عليهما معًا؟

أيها السادة، ريتا بورمان عميلة للمخابرات اليابانية.. عملت معهم فترةً قبل سقوطها، في بئر عشقها الجنوني لهتلر.. وبعد فرارها من قرية دير ياسين عاودت الاتصال بهم.. وهم من أمَّنوا وجودها في ذلك المسجد

بعيدًا عن الأنظار.. وطلبوا منها رسم بعض الصور التي برعت برسمها، والتوقيع أسفلها باسم إيفا براون، حتى يستكملوا قِصتهم المزيفة، تأكيدًا على وجود هتلر على قيد الحياة.. نسيت أن أخبركم أن يونج يونا كتبَ ورقة صغيرة بعنوان "مستشفى مهجور" وُضعت فيه هذه الرسومات، وتُركت في قبضة الطبيبة راشيل المقتولة.. بقصد أن تجدها الشرطة ولم يتخيل أن ياسين الزيداني هو من سيجد هذه الورقة ويذهب بدلًا من الشرطة الألمانية إلى هناك.. إرهابي ذكي.. استطاع فَكَّ شيفرة تلك اللوحة التي رسمتها ريتا مرة أخرى من دون قصد لذلك المسجد في تلك القرية، التي طالما قابلت فيها رجال المخابرات اليابانية.. لا تتعجبوا؛ فاليابانيون كانوا يتجسسون على الألمان مع أنّهم حلفاؤهم.

أعزائي المواطنين الشرفاء في كل مكان.. لقد حرصنا على تفسير كل شيء أمامكم، ولأُعيدها لكم مجددًا: إيفا براون وأدولف هتلر ماتا منتحرين في الثلاثين من نيسان ١٩٤٥. تلك الفتاة المدعية هي ريتا بورمان العميلة السابقة لليابان.. القاتل الحقيقي هو يونج يونا الضابط في الاستخبارات اليابانية.. والآن انتهى ذلك المؤتمر الصحفي.. لنغلق ذلك الباب تمامًا.. وللعلم قد فرضنا عقوبات اقتصادية وعسكرية على اليابانيين تضمن لنا عدم تكرار ذلك، مع أنهم أنكروا علاقتهم كدولة بذلك الضابط يونج يونا.. وزعموا أنه مفصول من الجهاز الاستخباراتي منذ أعوام.. فلتناموا بسلام وهدوء، ولتنعموا بحياتكم من جديد.. عيد فصح سعيدًا أيها اليهود..

ونتمنى للمسلمين والمسحيين عيشًا هنيئًا، كلنا تحت سماء واحدة.. عِمتم مساء..

أُطفئت الأضواء، وباتت العتمة وطنًا لن أغادره مهما أحاول.. انتهت القصة بخُدعة كبرى وقعت ضحيتها..وها أنا أرحل بصحبة زوجتي ريتا بورمان إلى مكانٍ مجهول، وكل ما أفكر فيه ذلك الوطن الموشك على الضياع، بعدما ذاب أملنا الوحيد في النجاة.. كان وهمًا لا أساس له.. ومات الزعيم النازي أدولف هتلر، ليغرق بنا طوق النجاة الوحيد بين أمواج الصهاينة.



(١٦)

الأول من أيار ١٩٤٨

سرايا الرملة – فلسطين

"من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين:

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.. إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل إشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمُّهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

انهضوا بقوة أيها المُشرَّدون في التيه. إن أمامكم حربًا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تُقسم بينهم حسب أهوائهم.. لا بد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزي الذي شلَّ إرادتكم لألفي سنة..

إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقِّكم، ولهذا فإن فرنسا تُقدِّم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت خاصةً، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرًّا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي استهانت طويلًا بمدينة داود وأذلَّتها..

يا ورثة فلسطين الشرعيين..

إن الأمة الفرنسية التي لا تُتاجِر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء. انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تُخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفًا لأسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة..

سارعوا، إن هذه هي اللحظة المناسبة ـ التي قد لا تتكرر لآلاف السنين ـ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السنين، وهي وجودكم السياسي أمةً بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم، طبقًا لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العلن، وافعلوه إلى الأبد".

"نابليون بونابرت"

كان ذلك الخطاب هو بداية المؤامرة على فلسطين في العصر الحديث.. في بداية القرن التاسع عشر، أعلنها نابليون صراحة.. لا بد من وجود وطن قومي لليهود على أرض فلسطين.. خطاب تحوَّل لخبر رئيسي وقتها في كلِّ الصحف الفرنسية، محاولًا كسب المزيد من الدعم لحملاته العسكرية، على جثث أوطاننا.. ثم جاء وعد بلفور بعد مائة عام تقريبًا ليمنح اليهود تشريعًا نافذًا لاغتصاب فلسطين.. كابوس مخيف غرقنا فيه بدون مُعين.. وقفت الدول العربية تتابعنا عن بُعد.. تشجب وتعترض على استحياء دون حراك واضح.. تركونا نقاتلهم بمفردنا كأننا لا نمتُّ لهم بِصِلةٍ.

حاولت ألَّا أنام طوال الأيام الماضية خوفًا من رؤيتها في أحلامي من جديد.. ولكنني سقطتُ عنوة في نوم جبري بعد ثلاثة أيام، ليكون وجهها الباكي أول ما أراه.. وجه ساندرا هون حبيبتي الراحلة.. كانت في مكان ممتلئ بالضباب الكثيف مختفية معالمه تمامًا.. وذلك الخطاب الخاص بنابليون

يتردد حولنا بصوت رخيم.. وهي تعزف على بيانو لحنًا يمزِّق قلبي.. لطالما عزفت زوجتي اللحن نفسه.. اقتربت منها والدموع تنساب من عيني:

- آسف.

لم تنظر إليَّ كأنني عدم وأكملت لحنها.

- ساندرا.. أنتِ من رغبتِ في قتلي.

التفتت إليَّ ونظرت إلى عينيَّ:

- هل تحب ذلك اللحن؟

- سامحيني.

- أتراقصُني؟

ابتعدت أصابعها عن ذلك البيانو من دون أن تتوقف تلك المقطوعة، كأن هناك غيرها يعزفها متداخلة مع صوت نابليون.. نهضت ممسكة بيدي لتشرع في الرقص، فتجاوبتُ معها..راقصتُها وسط الضباب.. غرقتُ في عبق روحها من جديد.. ابتسمت لي هامسة:

- قتلتني هباءً.

- تصارعنا من أجل رجل ميت.

- أتعتقد أن موته كان كافيًا لإنهاء أزمتنا؟

- أزمتنا ممتدة منذ فجر التاريخ بين الكنعانيين واليهود.. وما بيننا لن يمحوه شيء، إلا بفناء أحدنا.

- وها أنا راحلة.. هل ستستطيع البقاء؟

- سيعدمونني لا محالة.

التقمت شفتي في قبلةٍ عارمة ألهبت مشاعري، فتوقفتُ عن البكاء ووثبت في بحر من النشوة بصحبتها.. تركتني فجأة وابتعدت بين الضباب هامسة:

- أنتظرُك.

صرخت عاليًا مناديًا إياها بدون فائدة.. فصوت بونابرت يصمُّ أذنيَّ:

- ساندرااااااا.. ساندراااااا..

تكرَّر ذلك الحلم مرارًا وتكرارًا.. وفي كلِّ مرة تتركني وترحل.. نهضتُ مفزوعًا من النوم في تلك الغرفة المعتمة في سرايا الرملة، وذلك السجان الصهيوني يوقظني بركلة من قدمه:

- انهض أيها الإرهابي القذر.. لديك زائر.

اختلط الحلم بالحقيقة لحظات حتى أدركَ عقلي أنني ما زلت سجينًا في ذلك المكان التابع لتنظيم الهاجاناه.. فقد سيطروا على حي الرملة بأكمله.. أخبرني ذلك السجان أن فلسطين بأكملها أوشكت على الوقوع بأيدي الهاجاناه، وأن الفلسطينيين قد تركوا وطنهم ورحلوا خائفين مذعورين.. قالها بحقدٍ دفين كأنه يُعايرني بذلك.

- لقد فَرَّ قومُك كالجرذان.

مشيت معه في طرقات تلك السرايا التي يستخدمونها كسجن حصين.. دفعني إلى غرفة صغيرة وأغلق الباب خلفي.. لوهلة ظننت أنني ما زلت نائمًا.. رأيتها أمام عينيَّ تقف في شبّاك تلك الغرفة الحديدي شاردة.. همستُ غير مصدق ما أراه:

- ساندرا!

التفتتْ حينها لتلتقي أعيننا:

- ياسين!

اغرورقت عيناها بالدموع.. اقتربت مني من دون أن تبعدَ نظرها عن عينيّ... تنهَّدت قبل أن تلقي بنفسها في حضني وتغرقه بدموعها.. احتضنتها متعجبًا هامسًا:

- كيف ذلك؟

- لا أدري.. غِبتُ عن الوعي فترةً، وعندما أفقتُ وجدتني في مصحّةٍ علاجية.. أحد ما قد نقلني لها وأخفى شخصيته.. أنقذَ حياتي.

- لم أقصد أن...

قاطعتني واضعة يدها الرقيقة على فمي:

- لا تقل شيئًا.. فكلانا غارق في خطايا لا حصر لها.

- أنا سعيد لأنك على قيد الحياة.

قبَّلتُها مرات ومرات كأنني لا أُصدِّق أنها تقف أمامي من جديد.

- فعلتُ المستحيل لزيارتك هنا.

- كيف سمحوا لك بذلك؟

- ألبرت هيرمان.

- أتعرفينه؟

سألتها بضيق مباغت انتابني بمجرد سماع اسمه..

- نعم.. ألبرت هو رجل الأعمال اليهودي الذي ساعدني وأخي بيتر على الهجرة من ألمانيا هربًا من معسكر أوشفيتز.

تذكَّرته حينما شاهدتُ ذلك البيان الصحفي المُذاع على التلفاز الألماني من المسجد الذي قُبِضَ عليكما فيه.. قد تُرجم هذا البيان لكل اللغات وأذاعته كل محطات العالَم.. وبمجرد أن تعافيت من ذلك الجرح بحثت عنه لأطلب منه السماح لي بمقابلتك ولو مرة واحدة.

- أتيت لتخبريني بأنك قد انتصرت.. أليس كذلك؟

- أتراني منتصرة؟

- نعم، فقد وقع وطني ببراثن قومك.. وقد أصبح هتلر هباءً منثورًا.

- فليذهب قومي إلى الجحيم يا ياسين.. لقد فقدتُ عائلتي مرتين.. والآن أفْقدُك أنت.. سينفذون حكم الإعدام فيك خلال أيام..

– نهاية طبيعية ياساندرا.. فهل أبقى بعد رحيل الوطن؟ بقائي عبثٌ لا طائل منه.. مرحبًا بالموت في عالمٍ غاب فيه العدل.

– ولكنني أحبُّك.

انهالت دموعها من جديد بدون توقُّف.. أسندتُ رأسي على الحائط خلفنا متمتمًا بنشيد الثورة الفلسطينية التي غرقت ببحور الصهاينة الغادرة..

مـــوطنـــي مـــوطنـــي	الجلالُ والجمالُ والسناءُ والبهاءُ
في رُبـــاكْ في رُبـــاكْ	والحياةُ والنجاةُ والهناءُ والرجاءُ
في هـــواك في هـــواك	هـــل أراكْ؟ هـــل أراكْ؟
سالمـــاً منعَّما وغـانماً مكـرَّمًا	هـــل أراكْ في عُـــلاكْ؟

موطني موطني موطني.

بكيت كثيرًا فربما لن تُسمع هذه الكلمات من جديد.. ربما ينقرض الفلسطينيون بعيدًا عن وطنهم.. نظرت إليَّ ساندرا ولامست يدي هامسة:

– ليتنا هربنا بعيدًا.

– لا فائدة.

– يقولون إن عددًا كبيرًا من المتطوعين من البلدان العربية انضم لجيش الإنقاذ الخاص باللجنة العسكرية للجامعة العربية بعد انتشار خبر ما حدث في قريتك دير ياسين.

- سيُهزمون.

- لماذا؟

- جيش مهلهل، غير قادر على حماية أفراده.. لا وجود لتنظيم واضح.. ولا إدارة عسكرية..ولا أسلحة قادرة على المواجهة.. العرب.. العرب بكل تعدادهم الهائل هذا لم تتحرك جيوشهم حتى الآن لحماية فلسطين.. حكومات متخاذلة سيلازمها عار ضياع وطننا مدى الحياة.

- ربما يتحركون.

- أتدرين يا ساندرا؟ هناك فكرة تُراودني كثيرًا طوال الأيام الماضية.

- ما هي؟

- أيهما أحق بالجهاد..الحب أم الوطن؟

- ماذا تعني؟

- لا أقصد الحب بين حبيبين.. كلا، المعنى أشمل من ذلك.. لو كان الحب دينًا يعتنقه البشر أكثر من تعلُّقهم بالأوطان، لاختفت الحروب، ولما قررتم أنتم احتلال فلسطين، ولما دافعنا نحن..لما تقاتلنا وتصارعنا.. لو أننا نحب بعضنا بعضًا لما غرقنا جميعًا في بحور الدماء.. ولو أحب العرب بعضهم البعض لما استطاع غيرهم غزوهم مرارًا وتكرارًا.. ولذلك أخبرك الآن بكل وضوح أن البشر يكرهون بعضهم بعضًا.. لا سلام ولا أمان ولا

وطن مع هذا البغض القابع في القلوب.. ليس هناك سوى حَلٍّ واحد فقط.. أتدرين ما هو؟

- ما هو؟

أسندتُ رأسي إلى الحائط بائسًا متنهدًا:

- الفناء.

- الفناء!

- نعم.. يرسل الله علينا غضبه، فنموت عن بكرة أبينا.. ويأتي خلقٌ جديد لربما يحبون بعضهم بعضًا.

- ربما يكون الموت ملاذًا جيدًا.

- طلب أخير ياساندرا.. أوصيك بتنفيذه.

نظرت إليَّ باهتمام بالغ:

- أخبرني السجان أنهم قد أصدروا حكمًا بإعدام ريتا بورمان.. أليس كذلك؟

- بلى.

- ولكنها على وشك وضع حَمْلِها ولن ينفذوا حُكمهم إلا بعد فترة إرضاع طفلنا.. أريدك أن تتسلمي ذلك الطفل.

- سأفعل ذلك..اطمئن.

- واقتليه.

- ماذا؟

- اقتليه قبل أن يتعذَّب.

- ألهذا الحد فقدتَ الأمل؟

- لن أورثه الموت والخراب.

- ووطنُك؟

- لقد ضاع وطني.. لله الأمر من قبل ومن بعد.

- لا لن أقوى على فِعل ذلك يا ياسين.

- ستفعلين.

- لا لن أفعل.

- ستفعلين.

- لا.

- ستقتلينه.

- لن أستطيع.

- اكتمي أنفاسه.

- لا.

- ارحميه..

- لاااا.. لن أستطيع.. لن أستطيع.

قالتها صارخة بأعلى صوتها.

دخل السجان فجأة معلنًا نهاية تلك الزيارة الوحيدة.. نظرتُ إلى ساندرا متوسلًا إياها:

- أرجوكِ يا ساندرا.. عِديني بذلك.

تنهدت ساندرا بدموعٍ لا تتوقف والسجان يُجرْجِرني وأنا أقاوِمه.

- أرجوكِ، اقطعي دابري من هذه الدنيا.

- الوداع يا ياسين.. الوداع.

همسْتُ لها والسجان يغلق باب تلك الغرفة، وهي تدرك أنها المرة الأخيرة التي تراني فيها.. لتنتهي قصتنا قبل أن تبدأ.. قصة عشيقين فرَّقهما البُغض المتوارَث في دنيا أقسمت على صراع لا ينتهي.



(١٧)

العاشر من أيار ١٩٤٨

برلين الغربية

مرَّت الأيام باهتة لا روح فيها.. أمان زائف عاشت فيه ساندرا، تعاني الوحدة الجبرية في هذا العالم البغيض الذي تودُّ الرحيل عنه بكل مشاعرها، ولعلَّ ما يمنعها من ذلك هو ذلك الوعد الذي قطعته على نفسها بتربية طفلي بعيدًا عن الحروب والصراعات الدامية.. أقسمتْ على تبنيه والابتعاد به عن هذا التاريخ الدامي.. ستجعله طفلها الجديد عوضًا عن إدجار.. ستخالف وصيتي الوحيدة وتمنحه الحياة والسلام بعيدًا عن هنا.

فكرت ساندرا كثيرًا في الهجرة إلى شمال أفريقيا مُجددًا بصحبته، وعقدت العزم على ذلك بعد مرور عام، حينما تنتهي فترة إرضاع ريتا له.. انطفأ بداخلها كل شيء، على الرغم من إعلان وفاة هتلر قبل ثلاث سنوات..

فَقَدَت روحها مع من رحلوا.. حتى أنا مُهدَّد بالموت خلال أيام، وهذا ما تدركه ساندرا جيدًا..

قضت لياليها صامتة لا تتحدث مع أحد.. تعزف أحيانًا على البيانو الخاص بها، وأحيانًا تبكي.. تصرخ تارة وترقص تارةً أخرى.. كانت كالمجذوبة تترنَّح من عذابٍ لن ينتهي.. وقفت أمام التلفاز مساء ذلك اليوم، فقد اعتادت متابعة التقارير الإخبارية كل يوم، منتظرةً أي أخبار متعلقة بي.. حتى جاءت اللحظة التي طالما تمنت الموت قبلها:

"هذا، وقد نفَّذت السلطات البريطانية حُكم الإعدام الصادر بشأن الإرهابي ياسين قاسم الزيداني والمجرمة ريتا بورمان، فجر اليوم العاشر من أيار، بسرية تامة.. كما أعدمت السلطات الجاسوس الياباني يونج يونا في التوقيت نفسه، لتُغلق معهم قضية أثارت الرعب في العالم كله".

فاندا لوريس- التلفاز الألماني

وقفت ساندرا هون دامعة العينين، أمام ذلك الخبر بعد إذاعته على التلفاز الألماني.. حزن دفين يجتاح قلبها لموت حبها الوحيد في هذه الدنيا، وتعجَّب لذلك القرار المفاجئ بإعدام ريتا بورمان، ضاربين عرض الحائط بالقوانين المُحتمة عليهم تأجيل حكم موتها حتى تضع طفلها وتُرضعه.

نوبة حادة من البكاء، وآلام تعصر قلبها.، وهي تتخيل تلك اللحظة التي فارقتُ فيها الحياة..

تذكرت تلك اللحظات الحميمية بيننا.. قبلاتنا.. لمساتنا.. ضحكاتنا.. تذكرت دفء أحضاني.. عينيَّ.. شفتيَّ الملتهبتين بعشقها.. أنفاسي وعَبقها.. ستمضي في تلك الحياة القاسية وحيدة بمفردي.. هذا ما كان يميتها في كلِّ لحظة تمرُّ عليها.. كانت تتمنى أن نعيش أعداء على موت أحدنا.. حتى حينما حاولت طعني في مستشفى بيلتز المهجور، كان شيطانها الصهيوني هو من يُحرِّكها، ولطالما ندمت على ذلك، ورضيت بتلك الطعنة ببطنها جزاءً لطعن الحبيب.

والآن مات السبب الوحيد لبقائها على قيد الحياة.. طفل ياسين.. طفلي.. من قُتل غدرًا قبيل ولادته في بطن ريتا بورمان.

تواصلت ساندرا مع ألبرت هيرمان خلال الأيام الماضية، وطلبت منه أن يُسهِّل لها تسلم ابن ريتا قبل إعدامها، ثم انقطع الاتصال به بعدها.. حاولت كثيرًا الوصول إليه، سواء في مكتبه في منظمة الهجرة غير الشرعية بفلسطين أو في منزله الجديد بالقدس؛ فقد استقر هناك في الفترة الأخيرة، وترك لساندرا أرقام هواتفه لتتصل به إذا احتاجت أي شيء، إلا أنّه كان دائم الغياب! التقت ساندرا ألبرت، بعدما سافرت إلى فلسطين بحثًا عنه، ليساعدها في مقابلة ياسين في محبسه ونجحت في ذلك بعد زيارة المقر الرئيسي للمنظمة.

بات كل شيءٍ غامضًا حولها، فلم تتوقف ساندرا عن محاولاتها لتحليل ما مرت به في الفترة الماضية.. لم يُرضِها ذلك البيان الخاص بألبرت عن تلك الجرائم.. ما زالت هناك حلقة مفقودة.. كأنها غير مقتنعة بأن ذلك الجاسوس

الياباني هو من قتل أفراد أسرتها بهذه البشاعة.. ما زال لغز تلك الصورة التي شاهدتها في غرفة نيكول غيرد، لهتلر مُتنكرًا بصحبة إيفا براون، تبعث الكثير من التساؤلات.. وهذه القصة العجيبة التي كتبتها نيكول بخطِّ يدها عن الرجل الخفي المساعد لهتلر على الهروب.

لم تظهر ريتا بورمان ولو مرة واحدة في وسائل الإعلام..لا دليل على وجودها سوى ذلك البيان الخاص بألبرت ليلة القبض عليها.. جلست ساندرا في بيتها في برلين الغربية تفكّرُ شاردةً... هناك شيء ما يُلح عليها أن ما أذيع ليس حقيقيًّا.. ولكن لا فائدة من التفكير أكثر من ذلك.. بل لا فائدة من البقاء على قيد الحياة بعد الآن.. فليكفِ عذابًا وألمًا.

- الموت هو الملاذ الأخير.

همستْ بها ساندرا تفكر في الطريقة المثلى للموت.. السُّم أم الشنق أم تُلقي بنفسها في مياه النهر؟.

أحد ما يخبط على بابها.. نهضت ساندرا لتفتح.. فرأت ساعي البريد واقفًا عند الباب وفي يده رسالة:

- سيدة ساندرا هون؟

- نعم.

- هذه هي المرة الثالثة التي آتي فيها هنا لأُسلِّمكِ هذا الخطاب.

- عذرًا.. كنت في رحلة مفاجِئة..

- كان الله في عونك.. فكل من في برلين يعرف مأساتك.. عِمتِ مساءً.

أغلقت الباب، وفتحت ذلك الظرف المغلق.. فوجدت في داخله ورقة وصورة.. سُحقًا.. إنها الصورة نفسها التي كانت تفكر فيها للتو.. صورة هتلر متنكرًا مع إيفا براون.. ولكن يظهر فيها الشخص الثالث الخفي، ذاك الذي محت نيكول غيرد ملامحه من الصورة الأولى.

كتب على الورقة:

"محوتُ ملامحه أملًا في فرصة أخيرة معه، لعل تقرير بيتر الصِّحافيّ يُرجعه إليّ.. ولكنني أشكُّ في ذلك كثيرًا، ولهذا أبعثُ إليك بالصورة كاملة، فأنا أشعر بدُنوِّ الموت في أيّة لحظة، فإن مت، فاجعلي بيتر ينشرها في الجريدة.. إن عشيقي لم يكن خفيًّا عني كما أوهمتُكم.. إنه اليهودي الوطني.. ألبرت هيرمان".

نيكول غيرد

صُعقت ساندرا لهذا الاكتشاف المذهل.. تداخلت كل الأحداث في رأسها.. لم تعد تفهم شيئًا غير حقيقة واحدة بدت لها ساطعة: هتلر لم يمت منتحرًا، بل ساعده ألبرت على الهروب، وقتلَ نيكول غيرد حينما لوَّحت باكتشافها تلك الحقيقة.. إذًا قاتل عائلتها لم يكن ذلك الياباني يونج يونا.. ثأرها الحقيقي هو من صاحب هذا الخطاب المزيف، والذي تؤكّده تفاصيل الجرائم: إنّه.. ألبرت هيرمان.



(١٨)

الرابع عشر من أيار – القدس

منزل ألبرت

إسرائيل الحكومة المؤقتة

الجريدة الرسمية: العدد رقم ١ الصادر في تل أبيب في الرابع عشر من أيار ١٩٤٨ ميلاديّة..

صفحة رقم ١

إعلان إقامة دولة إسرائيل

وثيقة الاستقلال

تم الإعلان عن إقامة دولة إسرائيل يوم الجمعة الواقع فيه الرابع عشر من شهر أيار ١٩٤٨ ميلاديّة، في مدينة تل أبيب عند انتهاء الانتداب البريطاني

على أرض إسرائيل.. وقد حضر الإعلان مندوبو المنظمات والأحزاب اليهودية في البلاد، وفيما يلي نصُّ وثيقة الاستقلال:

"نشأ الشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وفيها اكتملت صورته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة في دولة ذات سيادة، وفيها أنتج ثرواته الثقافية والقومية والإنسانية، وأورث العالم أجمع كتابه الخالد، وعندما أجْلِيَ الشعب اليهودي عن بلاده بالقوة لم ينقطع عن الصلاة والتعلُّق بأمل العودة إلى بلاده واستئناف حريته السياسية فيها.

وبدافع هذه الصلة التاريخية التقليدية أقدم اليهود في كل عصر على العودة إلى وطنهم القديم والاستيطان فيه، وفي العصور الأخيرة أخذوا يعودون إلى بلادهم بآلاف مؤلَّفة من طلائع ولاجئين ومدافعين، فأحيوا القِفار، وبعثوا لغتهم العبرية، وشيَّدوا القرى والمدن، وأقاموا مجتمعًا آخذًا في النمو، وهو يشيِّد اقتصاده ومَرَافقه وثقافته، وينشد السلام متطلعًا إلى الاستقلال القومي.

وفي عام ١٨٩٧ ميلاديًّا انعقد المؤتمر الصهيوني تلبية لنداء صاحب فكرة الدولة اليهودية المرحوم ثيودور هرتسل، وأعلن حقَّ اليهود في النهضة الوطنية في بلادهم. وقد اعترف بهذا الحق في وعد بلفور في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٧. وتمت المصادقة على هذا الحق في صكِّ الانتداب الصادر عن عصبة الأمم الذي أكسب بصفة خاصة مفعولية دولية

للصلة التاريخية التـي تربط الشعب اليهودي بأرض إسرائيل، ولما يستحقه الشعب اليهودي في إعادة تشييد وطنه القومي.

إن المحرقة النازية التـي حلَّت باليهود في الآونة الأخيرة التـي راح ضحيتها الملايين من يهود أوروبا أثبتت بالفعل ضرورة حَلِّ مشكلة الشعب اليهودي المحروم من الوطن والاستقلال بواسطة استئناف الدولة اليهودية في أرض إسرائيل لتفتحَ باب الوطن على مصراعيه من أجل كل يهودي، وتؤمِّن للشعب اليهودي حياةً آمنة متساوية الحقوق مع سائر الأمم في العالم.

إن البقية المتبقية التـي أُنقذت من المجزرة النازية الفظيعة في أوروبا مع يهود سائر البلدان لم يكفوا عن اللجوء إلى أرض إسرائيل رغم جميع الصعوبات والعراقيل والأخطار، ولم ينقطعوا عن المطالبة بحقِّهم في حياة من الكرامة والحرية والعمل الشريف في وطنهم.

وفي الحرب العالمية الثانية ساهَمَ المجتمع اليهودي في أرض إسرائيل بنصيبه الكامل في نضال الأمم نصيرة الحرية والسلام ضد قوى الظلم النازية، وقد اكتسب اليهود بدماء جنودهم وبجهودهم الحربية حَقَّ اعتبارهم من الشعوب التـي وضعت الأُسس لميثاق الأمم المتحدة.

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩٤٧ اتخذت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة قرارًا ينصُّ على إقامة دولةٍ يهودية في أرض إسرائيل، وطالبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة أهالي أرض إسرائيل باتِّخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار بأنفسهم.

إن اعتراف الأمم المتحدة بحقِّ الشعب اليهودي في إقامة دولته غير قابل للإلغاء، إنه لمن الحق الطبيعي للأمة اليهودية أن تكون أمة مستقلة في دولتها، ذات سيادة مثلها في ذلك مثل سائر أمم العالم.

وعليه، فقد اجتمعنا نحن أعضاء مجلس الشعب، ممثلي السكان اليهود في البلاد، وممثلي الحركة الصهيونية في يوم انتهاء الانتداب البريطاني على أرض إسرائيل، وبحكم حقنا الطبيعي والتاريخي بمقتضى قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة..

نعلن عن إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل هي "دولة إسرائيل".

وإننا لنقرر أنه ابتداء من اللحظة التي ينتهي فيها الانتداب ليلة الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨ ميلادي، وإلى أن تُقام سلطات الدولة المنتخبة والنظامية طبقًا للدستور الذي يضعه المجلس التأسيسي المنتخَب في موعد لا يتأخر عن مطلع تشرين الأول عام ١٩٤٨، يقوم مجلس الشعب مقام مجلس الدولة المؤقَّت، وتكون هيئته التنفيذية، أي مديرية الشعب - هي الحكومة الموقتة للدولة اليهودية التي تُسمى إسرائيل.

تفتح دولة إسرائيل أبوابها من أجل الهجرة اليهودية، ومن أجل جمع الشتات، تدأب على ترقية البلاد لصالح سكانها جميعًا، وتكون مستندة إلى دعائم الحرية والعدل والسلام مستهدية بنبوءات أنبياء إسرائيل.

تقيم المساواة التامة في الحقوق اجتماعيًّا وسياسيًّا بين جميع رعاياها من غير تغيير في الدين والعنصر والجنس، وتؤمِّن حرية الأديان والضمير

والكلام والتعليم والثقافة، وتحافظ على الأماكن المقدسة لدى كل الديانات، وتراعي مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

إن دولة إسرائيل لمستعدة للتعاون مع مؤسسات وممثلي الأمم المتحدة على تنفيذ قرار الجمعية العمومية الصادر في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧، كما أنها مستعدة للعمل على إنشاء اتحاد اقتصادي يشمل أرض إسرائيل برمَّتها.

إننا نناشد الأمم المتحدة أن تمدَّ يد المساعدة للشعب اليهودي في تشييد دولته وقبول دولة إسرائيل ضمن أسرة الأمم.

إننا ندعو أبناء الشعب العربي سكان دولة إسرائيل - رغم الحملات الدموية علينا خلال شهور - إلى المحافظة على السلام والقيام بدورهم في إقامة الدولة على أساس المساواة التامة في المواطنة والتمثيل المناسب في جميع مؤسساتها المؤقتة والدائمة.

إننا نمدّ يد السلام وحُسن الجوار لجميع البلدان المجاورة وشعوبها، وندعوهم إلى التعاون مع الشعب اليهودي المستقل في بلاده، وإن دولة إسرائيل مستعدة لأن تساهم بنصيبها في مجهود مشترك لرُقي الشرق الأوسط بأسره.

إننا ندعو الشعب اليهودي في جميع مهاجره إلى التكاتف والالتفاف حول يهود هذه البلاد في الهجرة والبناء، والوقوف إلى جانبهم في كِفاحهم العظيم لتحقيق أمنية الأجيال وهي - تحرير إسرائيل.

تواقيع أعضاء مجلس الشعب - ٣٧ توقيعًا.

"السيد دافيد بن جوريون، السيد دانييل أوسطر، السيد مردخاي بنطوف، السيد يتسحاق بن تسفي، السيد إلياهو برلين، السيد فريتص برنشتين، الحاخام فولف غولد، السيد مئير غاربوفسقي، السيد يتسحاق غرينبويم، الدكتور أبراهام غرنوفسقي، السيد إليياهو دوفرين، السيد مئير فيلنر- كوفنر، السيد زيراح فرهابتيغ، السيد هرتسل وردي، السيدة راحيل كوهين، الحاخام كلمان كهانا، السيد سعديا كوفاشي، الحاخام يتسحاق مئير لفين، السيد مئير دافيد لفينشتين، السيد تسفي لوريا، السيدة غولدا مئيرسون، السيد ناحوم نير، السيد تسفي سيغال، الحاخام يهودا ليف هكوهين فيشمان، السيد دافيد تسفي بنكاس، السيد أهرون تصيزلينغ، السيد موشيه كولودني، السيد إليعزر كبلان، السيد أبراهام كتسانلسون، السيد فليكس روزنبليط، السيد دافيد ريمز، السيد بيرل رابتور، السيد مردخاي شاتنر، السيد بن- تسيون شطرنبرغ، السيد بخور شيطريت، السيد موشيه شابيرا، السيد موشيه شرتوق".

مئات من الجثث على جانبي الطريق المسيطر عليه الإسرائيليون.. وقرى هجرها أهلها فزعًا وذعرًا، تاركين تاريخهم وبيوتهم في أيدي الأعداء.. حتى الحكومات العربية شجَّعت الفلسطينيين على الهجرة وترك وطنهم، لتصبح الحرب بينهم وبين إسرائيل يسيرة.. هكذا قالوا.. لم يكن أمام من تبقوا من تلك المجازر غير الرحيل.

استعدت المنظمات العسكرية الصهيونية للسيطرة مباشرة على مواقع الجيش البريطاني فور رحيله، لتُحكِم قبضتها على فلسطين بأجمعها.

أُعلنت دولة إسرائيل، وقلوب اليهود ترفرف فرحًا بذلك الانتصار التاريخي، حتى وإن كان على جثث الفلسطينيين، وبعض العرب المتطوعين للدفاع عنهم.. حتى تلك الجيوش العربية التي أعلنت - على استحياء - مشاركتها في حرب ضد الكيان الإسرائيلي، ستفشل.. تملؤهم الثقة بالانتصار، فقد أعدُّوا العدة لذلك لسنين طويلة، ولن يقف أمامهم أحد.. سيطرت الهاجاناه سيطرة كاملة على الطرق المؤدية إلى القدس، وبات العرب محاصرين في القدس القديمة.. وبعض القرى الأخرى.

نجحت ساندرا هون في الوصول إلى عنوان ألبرت هيرمان الجديد في القدس..لم تلتقِ ساندرا هون بألبرت - بعد هجرتها إلى شمال أفريقيا على يده - إلا مرة واحدة، وذلك حين ذهبت إلى لتلك البناية التي تضم جهاز الاستخبارات الإسرائيلية في تل أبيب، بعد عناء وبحث يومين، وطلبت مقابلته ليسمح لها بزيارتي..زيارة ياسين قاسم الزيداني.

ومنذ إعلان تنفيذ حُكم الإعدام بريتا بورمان وبي وبالجاسوس الياباني يونج ، وهي تحاول الوصول إليه من دون جدوى.. سافرت إلى تل أبيب رغم المخاطر المنتشرة على الطرق، ليخبروها بأنه لم يظهر منذ عدة أيام.. لم يتبقَّ لها سوى ذلك البيت الجديد لألبرت في القدس..

ذلك الحي اليهودي الذي أخبرها بأنه قد سكن في أحد منازله المحاطة بأشجار الزيتون.. والمبني بالحجر الكلسي والطبشوري.. أخبرها بأنه سيصحبها في جولةٍ هناك يومًا ما بعدما تهدأ الأوضاع، ولكنها لم تنتظر ذلك اليوم.. وقفت على بابه كاتمة أنفاسها تخبط بيدها.. مرت دقائق ولم يجِبها أحد.

كانت قوات الهاجاناه منتشرة في كل مكان في الحيّ تحرسه، ولكن بطاقتها الشخصية كانت جواز مرورها بينهم بنجاح ساحق، كونها يهوديّة. بالإضافة إلى جملة:

- لديَّ موعد مع السيد ألبرت هيرمان.

- تفضلي أيتها الطبيبة.

أعادت خبطاتها من جديد.. فُتح الباب وظهر ألبرت خلفه.. ذلك العجوز الماكر.. نظر إليها متعجبًا:

- ساندرا هون!

- مرحبًا سيد ألبرت.. لقد دعوتني لقضاء يوم هنا في هذا الحي الرائع.. أتعلم أنني أحب أشجار الزيتون للغاية؟

لحظات من الصمت، تفحَّصها فيها.. أشار إليها بالدخول صامتًا.. دخلت ساندرا إلى ذلك البيت تقتنص النظرات نحو غرفه الموصدة.. صالة كبرى تتوسطه، وخمس غرف مغلقة الأبواب.

- أعتقد أنك تودين الجلوس.. فالطريق إلى هنا محمل بالخطر، ومؤكد أنك متعبة للغاية.

- نعم يا سيد ألبرت.

- لا.. ألبرت فقط.. لا داعي للسيد هنا.. تفضلي يا ساندرا.

قالها مقتربًا منها، مبتسمًا وهو ينظر إلى جسدها بشهوانية.

جلست ساندرا على كرسي، وجلس بالقرب منها وعيناه تتابعان نهديها المثيرين المكشوف أعلاهما.

- فلنشرب نخب إسرائيل يا عزيزتي.

نهض ليصب كأسين من الخمر، وأحضر لها إحداهما وشرب الأخرى.

- أنا هنا منذ أيام.. أعشق هذه البلد.. القدس.. حلمت كثيرًا ببيت كهذا، ومؤخرًا تحقق الحلم..

فاجأهُ سؤالها المباغت له:

- أين إيفا براون؟

- ماذا؟

- إيفا براون؟ أهي في إحدى هذه الغرف أم ما زالت في ألمانيا؟

- إيفا براون ماتت منتحرة مع أدولف هتلر منذ ثلاث سنوات.. ألم تشاهدي ذلك البيان الخاص بي في التلفاز الألماني؟

أخرجت حينها تلك الصورة الجامعة له معها وهتلر متنكرًا.. وقذفتها في وجهه بعصبية.. شاهدها ألبرت فتغيّرت ملامحه، ورَمَقَها بابتسامة يملؤها المكر والخبث:

- كنت مخطئًا حينما تركتُك على قيد الحياة.. ولكنني ضعفتُ من حلاوة قُبلتك ونعومة نهديك.. ضَحِكَ حينها عاليًا.. قاطعت ضحكاته فرمقها بقوة:

- لماذا لم تقتلني مع عائلتي؟

- أنت يهودية شجاعة.. تأتين هنا لتواجهيني وأنتِ على دراية بأن تلك هي لحظاتك الأخيرة في الحياة.

- إذًا فلتجبني..أنا هنا لأموت على يديك..أوافقك ذلك.. ولكن أريد إجابات على كلِّ تلك الأسئلة التي تملأ رأسي.

- سأجيبك.. ولكن لتعلمي أننا سنقضي وقتًا ممتعًا على سريري قبل موتك.. هذا شرط لا جدال فيه.. أريدها ليلة ممتعة.

- حسنًا.. اتفقنا.

- رائع.. والآن سأقص عليكِ الحقيقة..لتخبري الله حينما تقابلينه أنّني ضحية العِشق.. وكل ما فعلته في دنياي بسبب ذلك.. أنت تعرفين أنني كنت عاشقًا لإيفا براون.. أليس كذلك؟

- بلى.. الجميع يعرف قصة عشقك الأفلاطوني لها، وصداقتك القديمة لهتلر.. أنت بنفسك قصصتَ علينا ذلك خلال رحلة هجرتنا إلى شمال أفريقيا.

- لم أتمكن من الكف عن التفكير بها طوال حياتي.. كانت تشاركني فراشي كل ليلة، حتى وإن كنتُ في أحضان غيرها من العاهرات، أو حتى البنات اليهوديات اللواتي وقعن بحبي.. كنت متعدد العلاقات النسائية.. ولكنني لم أسلُها قط.. أراها كلَّ لحظة.. حتى في لحظاتي الحميمية أضاجعها هي في أحضانهنّ... ولكن كيف أقترب منها والزعيم الألماني هتلر بجوارها؟ كُتبت على اسمه ولازمته في كلِّ مكان.. صديقي القديم الذي تخلَّى عني وأرسل لي رسالة يطلب مني مغادرة ألمانيا.. أنا الثري المرهف الحس الرسام الناجح، لم تحبني إيفا ولم تشعر بي، وفضَّلت ذلك السياسي الصاعد.. بدأتُ مُحاربته والدفاع عن اليهود المضطهدين، وأنتِ بنفسك لمستِ ذلك حينما ساعدتُك وأخاك على الهروب من معسكر أوشفيتز مع شباب اليهود من كل مكان.. كنت دائم التنكر والتنقل بين بيت وآخر، بأسماء مزيفة لرجال أعمال مسيحيين حتى يتسنَّى لي محاربة هتلر، مقتنعًا بأن اليهود فقط يستطيعون كسره وهزيمته.. وتعرفت إلى نيكول غيرد السيدة الأرستقراطية.. واحدة من تلك النساء العديدات اللواتي كنتُ أتمتع بجمال أجسادهن فترة، ثم أغادر من دون إنذار.. كنتُ أتصل بها حينما أشتاق إلى مضاجعتها وبخاصّة في تلك الأيام الأخيرة للحرب، فقد هاجرت كل النساء ولم تتبقَّ إلا القليلات وسط الخراب والدمار.. كانت سيدة لحوحًا،

عشقتني.. أقنعتها أن زوجها هو الحائل بيننا.. لأتخلص منها لبعض الوقت.. وانتظرت سقوط هتلر الموشكة لأعود مرة أخرى إلى حبيبتي إيفا براون التي كنتُ أتابع تحركاتها عن بُعد عن طريق جاسوس زرعته منذ فترة في حاشية هتلر المقربة.. وفي الثامن والعشرين من نيسان، وصلتني أخبار أن إيفا براون تزوجت هتلر رسميًّا، وأن هتلر قد نوى الانتحار وستشاركه هي ذلك.. تمزَّق قلبي وأنا أشاهدها تضيع أمام عيني.. إيفا براون تفضل الانتحار معه على العيش بدونه.. قضيتُ ليلة مؤلمة، حتى خطرت لي فكرة شيطانية.. أرسلتُ لهتلر رسالة وضعتها في غرفة نومه مكتوبًا فيها:

"لديَّ طوق نجاتِك الوحيد.. اسمح لي بمقابلتك

ألبرت هيرمان"

وكتبت رقم هاتف المنزل الذي كنتُ فيه في تلك الفترة.. جلستُ أنتظر اتصاله، وبالفعل رن هاتفي، وسمعت صوته مرتعشًا في الجانب الآخر..

- ألبرت.

- هتلر.

- أما زلتَ على قيد الحياة؟

- أريد مقابلتك سريعًا.

- أتستطيع الوصول إلى مبنى المستشارية؟

- نعم.

- حسنًا..أنتظرك.

وأعطى هتلر أوامره بفتح الأبواب لي بعد تفتيشي.. وكانت لحظات صعبة، محفوفة بالمخاطر، وصلت إلى غرفة مكتبه.. كان جالسًا مع جوبلز وزير الدعاية الخاص به.. صمت حينها، ونظر إليه وطلب منه تركنا بمفردنا.. كان يربت بيده المرتعشة على كلبه.. أشار لي كي أجلس.. وبدأ محادثتي.

- هذا كلبي المخلص.. اسمه بولندي.

- مرحبًا بولندي.

- توقعتُ أنك هارب أو ميت يا ألبرت.

- ها أنا أمامك حيٌّ، وأملك طوق نجاتِك الوحيد.

- أيُّ طوق نجاة؟

- أليس غريبًا أن تصبح نجاتُكَ بيد يهودي؟

- لقد اكتشفتُ مع الأيام أنه ما من فعل مُغايِر للأخلاق، وما من جريمةٍ بحق المجتمع إلا ولليهود يدٌ فيها..

قالها وعيناه تهربان من مواجهتي.. اقتربت منه وأمسكت يده المرتعشة:

- أتفعل كل هذه المجازر من أجل كلارا هوفمان؟

- فلتذهب كلارا هوفمان إلى الجحيم، هي واليهود جميعًا.

- أتعرف يا أدولف؟ أنت مُحقٌّ.. فالعشق يفعل المعجزات دائمًا.

- أأنت هنا لنتحدث في ذكريات ولَّت؟

- لا.. أنا هنا لأنقذك.

- لا يمكنني الوثوق بيهودي.

- أعتقد أنه أفضل من قرارك بالانتحار.

رمقني بعينين زائغتين.. جال في الغرفة ذهابًا وإيابًا قبل أن يسألني:

- كيف والحلفاء على وشك اجتياح برلين؟

- سأخبرك، ولكن أولًا.. هل هناك ملجأ طوارئ تستطيع الفرار منه من هذا المكتب؟

- نعم.

- إذًا عليك اتِّباع خطتي حتى النهاية.

وانتهت مقابلتي معه وخرجت بسلام كما دخلت.. وجاء اليوم الموعود.. الثلاثون من نيسان ١٩٤٥.. ونفَّذ هتلر المشهد كما رسمتُه له حرفيًّا.. التخلص من بولندي والبكاء عليه في مشهد دراماتيكي مؤثِّر.. تجهيز شبيهين له ولإيفا والتحفُّظ عليهما في غرفة مكتبه في الليلة السابقة ليوم التنفيذ.. وضع أقراص السيانيد القاتل في فم الشبيهين، وإخفاء الجثتين في دولاب المكتب.. الاجتماع بحاشيته، وإخبارهم بأنه نوى الانتحار وإيفا معه اليوم.. وطلب منهم

الخروج.. وضع جثتي الشبيهين في وضع الجلوس مكانهما.. وفي لحظة أطلقَ رصاصةً في رأس شبيهه، وغطَّاه، وفَرَّ من ممر الطوارئ بصحبة إيفا، وأغلق الباب السري خلفهما.. ودخل خادمه وحملَ جثتي الشبيهين، وتم حرقهما، واختفت معالمهما تمامًا.. وهتلر وإيفا هربا من ذلك الممر المؤدي إلى شبكة الصرف الصحي لبرلين.. كنت أنتظرهما في مكان اتفقت مع هتلر عليه.. وبسيارتي هُرعت بهما وسط القذائف إلى ذلك المستشفى المهجور بيلتز.. بقينا هناك ليلة كاملة في الغرفة ٧١ الواقعة تحت الأرض.. كنت متيقِّنًا من أمانهما هناك، بالرغم من كم الجثث والموتى المنتشرين في الدور الأرضي والعلوي لهذا المستشفى، بعد قصف مميت تعرَّض له من طيران الجيش الأحمر.. مخاطرة لا بد منها.. وإيفا تستحق ذلك.. وهناك غيَّرَ هتلر شكلَه كما ترين في هذه الصورة التي التقطناها في الليلة نفسها.. وقضيا ليلتهما الأخيرة يشربان النبيذ الأحمر ويأكلان الفاكهة.. وفي الصباح نهضت إيفا براون تبحث عن هتلر بلا جدوى.. أخبرتُها أنه ضربني ورحل بمفرده، مُقرِّرًا قتل نفسه لتعيش هي بعيدًا عن الخطر.. انهارت وصرخت وحاولت تهدئتها كثيرًا.

- وهل فعل هتلر ذلك حقًّا؟

قاطعته ساندرا لأول مرة متسائلة.. فأجابها:

- كلا.. وضعتُ لهما أقراصًا منوِّمة في النبيذ.. وحين فقدا الوعي حملتُ هتلر إلى مخبإٍ آخر، مؤمِّنًا عليه حراسة مشددة من بعض جنود الهاجاناه الذين اخترتهم بعناية لتلك المهمة.

- أيعرف اليهود بخُطتك تلك؟

- قليلون.. إنها مهمة أمنٍ قومي.. "العمليّة داود"، هكذا أطلقنا عليها.. وأخفينا تفاصيلها عن أغلبيةٍ اليهود وقادتهم التقليديين، لدرجة أن رئيس جهاز الاستخبارات الإسرائيلية بنفسه لم يعرف عنها شيئًا.. فبقاء هتلر على قيد الحياة بين أيدينا، سيجعلنا نحقِّق مكاسب رائعة حينما نحتاج إلى ذلك.

- وبعد؟

- مَرَّ أسبوع وأنا أتقرَّب لإيفا من دون جدوى.. أصابها الاكتئاب الشديد، وفي ليلة هجمت عليها معترفًا لها بحبي وأشواقي إليها.. لم أستطع منع نفسي أكثر من ذلك.. فما كان منها إلا طعنتني بسكين الفاكهة وهربت.. بصعوبةٍ أخذتُ سيارتي ووصلت إلى أوّل مستشفى على طريقي، وغبتُ عن الوعي.. وحينما أفقتُ وجدتُ نيكول غيرد بجواري.. يبدو أنهم اتَّصلوا برقمها المكتوب على ورقة وجدوها في جيبي.. واعترفت لي بحبها الشديد، وبأن زوجها قد مات، وبرغبتها بالزواج بي.. فكتبت لها بأنني لا أحبها ورحلت.. لم أدرك أنني في أثناء إصابتي بالحمي تلفّظتُ أمامها بسرٍّ حياة هتلر.. ولم أتوقَّع أن تلك الصورة التي وصلتك سقطت في يدها.، فقد عدتُ إلى المستشفى المهجور نفسه باحثًا عنها من دون جدوى.. لم أجد سوى تلك الرسومات التي انخرطت إيفا برسمها طوال ذلك الأسبوع..بحثت عنها في كل مكان، ولم أعثر عليها.. ومرت ثلاث سنوات، وهتلر تحت أيدينا، حتى جاءت الفرصة المناسبة لاستغلاله.

- وما تلك الفرصة؟

- الضغط على بريطانيا لترك فلسطين لنا.. لتُعلن دولة إسرائيل.

- كيف؟

- لم يكن متاحًا أن نذهب إليهم، ونخبرهم أننا ساعدنا هتلر على الهروب، ونسلِّمه لهم.. ولكننا سرَّبنا لهم خبر عودة هتلر، ليسبِّب لهم الفزع التام، كما حدث.. جرائم قتل تُرتكب، والقاتل يعلن عن عودة هتلر.. كنا نشعر أنهم لن يرحلوا عن فلسطين، ولذلك أخرجنا لهم تلك البطاقة القديمة لنلاعبهم بها.

- ونيكول غيرد؟

- حظُّها السيئ أنها كانت البداية.. ففي الموعد المحدد نفسه لتنفيذ ذلك، ونحن نبحث عن أسماء بعينها ننفِّذ بها خطتنا تلك.. أسماء كارهة لهتلر، وكنت أنت على رأس هذه الأسماء، بفضل ذلك التسجيل المذاع على التلفاز الألماني لحفل زفافك، الذي أعلنتِ فيه كراهيتك لهتلر.. كان علينا اختيار ثلاثة أسماء لننفِّذ فيهم خُطتنا.. ونيكول أيضًا.. حينما نشر لها أخوك بيتر ذلك التقرير الصحفي الأول، الذي أعلنت فيه عن كُرهها الشديد لهتلر، ولكنني استبعدتُها لعلاقتي القديمة بها.. ولكن التقرير الثاني الذي أعلنت فيه أن هتلر على قيد الحياة أربكنا.. وجعلنا نُغيِّر خطتنا بعض الشيء.. وبدأنا بها هي.. لم يكن واردًا أن يقترن اسمي بعودة هتلر مهما يحدث.. وقُتلت نيكول ثم عائلتك، وأصبحت عودة هتلر كابوسًا أصاب الجميع.

- ومَن قتل بيتر؟

- نحن.. وضعنا له سلاح الجريمة في بيته، ثم قتلناه، ليبدو الأمر انتحارًا.

- ولماذا فعلتم ذلك؟

- لخلق حال من البلبلة والجدل.. موت أخيك أحدث جدلًا واسعًا، وأعطانا فرصة جيدة لننفذ قتل عائلتك، من دون مضايقات من القوات البريطانية التي استُنفرت، وأعلنت حالة الطوارئ والاستعداد القصوى بعد جريمتكم.

- والطبيبة راشيل؟

- حينما جاء بلاغ من سارة شبير أن قاتلة أخيها جبرائيل، هي إيفا براون، وأنها مختبئة في دير ياسين، هُرعت القوات إلى هناك، ولم تعثر عليها..تيقنوا من عدم وجودها في القرية، قبل دكِّها وقَتْل أهلها..عقدنا اجتماعًا سريًّا بعدها لنناقش تلك المستجدات.. رجال العملية داود.. ووصلنا إقرار مهم: ظهور إيفا براون مرة أخرى يُعزِّز من قصتنا بعودة هتلر من جديد.. وليس مهمًّا لنا العثور عليها.. فلنستمر في خطتنا ونبث الرعب في كلِّ وسائل الإعلام، ونُفخِّخ الشوارع في ألمانيا بقنابل صوتية تثير الرعب.. ونربك القوات البريطانية؛ حتى نكشف لهم أننا تمكنا من القبض على هتلر.. ونسلمه لهم، بشرط الانسحاب التام من فلسطين، ودعمنا لإعلان دولة إسرائيل.

- أتعني أن أدولف هتلر الآن بحوزة البريطانيين؟

- ليس بعد.. في اللحظة التي تنسحب فيها بريطانيا في الغد من فلسطين، سيُسلم لهم أدولف هتلر..

- لم تجِب عن سؤالي.. لماذا قتلت الطبيبة راشيل؟

- حينما قرَّر رفقائي المضي بخُطتهم من دون الاهتمام بمكان حبيبتي إيفا.. كان لي رأي آخر.. قرَّرت البحث عنها بنفسي.. وبعد انتشار أخبار جريمة عائلتك، ومقتل نيكول غيرد، توقَّعت أن تحاول إيفا زيارتك أو زيارة المستشفى، بحثًا عن أي معلومات تفيدها للوصول إلى هتلر من جديد.. فوضعتكما تحت المراقبة.. إلى أن ظهر ياسين الزيداني في بيتك. وعرفت وقتها أنه يبحث عنها هو أيضًا.. وواكبتكما في رحلتكما للبحث عنها، لعلكما تريان ما لا أراه.. فياسين عاشَرها أكثر من عام.. وحينما علمت أنكما في الطريق إلى الطبيبة راشيل، التي - بالمناسبة - لا تعرف عنها أي شيء فقد تيقنت من ذلك أكثر من مرة.. جاءتني فكرة مزدوجة.. أولًا، كانت الاتفاقات بيننا وبين البريطانيين تجري على قدم وساق، واختلقنا تلك القصة الخاصة بالجاسوس الياباني يونج يونا، لنعلنهاً لوسائل الإعلام، فلو أعلن البريطانيون أن هتلر في حوزتهم، فسيواجهون متاعب هم في غنى عنها.. وبقي شيء واحد، هو البحث عن ضحية جديدة نقتلها، لنعلن من خلالها قصة يونج يونا، الذي -بالمناسبة- هو ضابط مفقود منذ الحرب، ونعتقد بأنه في عداد الأموات، واليابان خضعت لعقوبات لصالح بريطانيا رغمًا عنها، فلم تستطع إثبات موته، إذ لا وجود لجثته...

ثانيًا، كان عليَّ إنقاذ إيفا تمامًا من تهمة قتل جبرائيل شبير، وإلصاقها بشخصية اخترعتُها، تُدعى ريتا بورمان.. فكانت الطبيبة راشيل هي

الاختيار الأمثل لذلك.. نقتُلها ونضع في بيتها ملفَّ ريتا بورمان المزيف، وقصة راشيل المختلَقة مع يونج.

– وتلك الورقة بعنوان "مستشفى بيلتز المهجور"؟

– أنا مَن كتبتُها.. وددتُ أن أعرض تلك الرسومات الخاصة بإيفا على ياسين، وكانت تلك هي آخر محاولة.. ربما يفهم منها شيئًا لا أستطيع فهمه.. فتلك اللوحات هي كل ما أملك، إرثًا لإيفا براون المختفية.. وهناك طعنك بالسكين نفسه، وتركك تنزفين وهرب.. أرسلت من نقلك إلى أقرب مستشفى.. وتتبعتُ ياسين واليأس يملأني.. أيقنت أن الرحلة ستنتهي عند هذا الحد.. سأقبض على ياسين، وأخرج معلنًا ذلك البيان المتفَق عليه عبر التلفاز، وأفقد إيفا للأبد.. فقد نفَّذ البريطانيون ما طُلب منهم، وأعلنوا انسحابهم من فلسطين، ووقعت العقوبات على اليابان، واتفقنا على تسليم أدولف هتلر لهم صبيحة انسحابهم الفعلي.. بقي أن أخرج لأعلن انتهاء القصة الوهمية لعودة هتلر.. لم أعرف أن الحظ يحالفني إلى هذا الحد.. فكانت إيفا هناك في ذلك المسجد.. نجح ياسين في العثور عليها من خلال لوحاتها.. لم أعرف ما الذي رآه في رسوماتها وجعله يعلن عن مكانها؟

– وإيفا براون؟

– بخير.. تجلس الآن على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وتستمتع بغروب الشمس هناك تنتظرني تحت حراسة مشددة.. هي للحق ما زالت بحالة نفسية سيئة، ولكن الزمن كفيل بعلاجها تحت ظِلال عِشقي.

- ومن التي أُعدمت؟

- ريتا بورمان.. تلك الشخصية الوهمية التي حَمَّلتُها الجريمة.

- والجثة؟

- أن تعثري على جثة بديلة في هذه الأيام لهو أمر يسير للغاية.. أتعرفين سارة شبير صاحبة البلاغ الأول؟

- لا، لم أقابلها من قبل.

- جاءت بالتحقيقات، وقالت إنّ مضمونها يؤكّد أن ريتا بورمان هي إيفا براون، لتحفِّز قوات الانتداب للقبض عليها.

- وبماذا ضغطتَ عليها لتكذب؟

- هددتُها بالحكم على خطيبها فطين مسعود بالإعدام إن خالفت أوامري.. وإن أطاعت أوامري فسأطلق سراحه.

- وهل أطلقتَ سراحه حقًّا؟

- لندعُ لهما بالرحمة يا عزيزتي.

- أفعلتَ كل هذا من أجلها؟

- ومن أجل الوطن.. لقد بذلتُ الكثير والكثير من أجل هذا الوطن.. لقد زرعتُ وآن وقت الحصاد.. لي ولكل اليهود.

- وهل يحتاج اليهود إلى وطن مُغتصَب يُقام على جثث الآخرين؟

- إنها الحرب يا جميلتي.. ولكل حرب ضحايا.. وذلك الوطن المُعلن اليوم هو الحماية لنا ولقومنا مدى الحياة.

- مخطئ.. اليوم فقط ستبدأ المعاناة الحقيقية.

- دعكِ من تلك الحماسة الفارغة.. وأخبريني هل لديكِ أسئلة أخرى؟

- لا.. كل شيء بات واضحًا وضوح الشمس.

- الآن حان أوان ليلتنا.. فلتخلعي ملابسك لأستمتع بجسدك البَضّ ونهديك الناعمين.. اقتربي يا فتاة لتقبّليني أولًا.. لم أنس تلك القبلة الممتلئة بعبق دمائك المتجلطة ليلتها.. اقتربي.

دفعته بيدها ووقفت تنظر له بابتسامة خليعة:

- لقد وعدتُك والآن أفي بوعدي.. ولكن لترَ جسدي أولًا.. أتعلم يا ألبرت؟ اليوم أدركتُ أن فناءنا هو الحل الوحيد.

نظر إليها محاولا فهم ما تقصده.. فتحت أزرار فستانها.. فبرقت عيناه لما رآه! حزام ناسف يلتفُّ حول بطنها.. لم تسنح له الفرصة للركض بعيدًا؛ فقد ضغطت ساندرا على زَرِّ التشغيل فانفجر البيت بكل ما ومن فيه... ليموت ألبرت متحولًا إلى أشلاء اختلطت مع أشلائها... ليتركا وراءهما سؤالًا واحدًا.. هل سيموت هتلر حقًّا هذه المرة أم أن هناك عودة من جديد؟

(١٩)

بحر الظلمات

سفينة ضخمة في عرض البحر، يحيط بها الماء من كل جانب.. اختفت المدن منذ أيام، ولم يظهر غيرها، بين أمواج من التيه التي ستغرقها عاجلًا أم آجلًا.. عاصفة مُوغلة في الخراب على الأبواب..لن يبقى شيء على حاله أبدًا.. ستغدو رياح الغدر عاتية لتقتلع الجميع لتفوح رائحة الموت في كلِّ مكان.. كأنها تُعلق لافتة كبرى: لن ينجو أحد.

وقفت إيفا براون بفستانها الأبيض الفضفاض في وسط تلك السفينة بعدما انتهت من رسم لوحتها الأخيرة.. تتعالى المياه لتغطي سفينتها تارة وترفعها تارة أخرى. بينما تقف هي لاهثة كالمجذوبة بمفردها، فقد فَرَّ الجميع إلى غير رجعة.. وتلك اللوحة الواقعة بجوارها.. يقف أدولف هتلر وياسين الزيداني وألبرت هيرمات خلف قضبان تمنعهم من الخروج.. ثلاثة في سجن صُنع بأيديهم، ولن ينتهي إلا بنهايتهم جميعًا.

صوت موسيقى فاجنر عالية.. بدأت إيفا بالرقص على أنغامها رغماً عن ذلك المصير القادم لا محالة.. ستغرق من دون رجعةٍ، وحينئذ سيندم الجميع.. سيمفونية من العذاب تمزِّق قلبها الذي يصرخ مرارًا وتكرارًا:

- النجدة.

لربما يأتي من ينقذ الكون بأكمله.. لربما يغزونا الحبُّ من جديد.. فبعد كل هذا الخراب والدمار.. نحتاج لفيرماخت من نوع خاص.. فيرماخت يؤسس لمبادئ السلام الحقيقي.. سلام على أرض خُلقت للسلام، وما رأت سلامًا يومًا.. فيرماخت النجاة أيًّا كانت ديانته.. لربما تُكتب لنا الحياة.. ولن يتحقق ذلك إلا بالعدل، بالحق، بعقاب القتلة والمغتصبين، وكما قالت ساندرا هون في لحظتها الأخيرة في هذه الحياة:

- اليوم أدركتُ أن فناءنا هو الحل الوحيد.

فلتنقَّ اليهوديةُ من الصهيونية المجرمة، وليعاقَبْ كلُّ مَن أجرم، حينها فقط سيغزو الحب قلوب الجميع.

***

- تمت-

١٢- ٥- ٢٠١٩

د. عمرو البدالي

أعمال سابقة للمؤلف:

روايات:

* عفريت العلبة.

* بربونيا.

* بكالوريوس إعدام.

* النباش ١.

* قلقاس بن فرناس.

أفلام سينما:

* أسد سيناء.

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/amr.elbadaly1

أو

https://www.facebook.com/amrelbadaly20/?ref=bookmarks